كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

قسم أصول الدين

التفسير وعلوم القرآن

الهمّ الدعوي في القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

Carefree Lawsuit in the Koran

(Objective study)

إعداد:

محمد علي جميل أطرش

إشراف :

د. محسن سميح الخالدي

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لنيل درجة الماجستير في أصول الدين- قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي في جامعة الخليل

1441هـ-2019م

إجازة الرسالة

الهمّ الدعوي في القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

إعداد الطالب:

محمد علي جميل أطرش

إشراف:

د. محسن سميح الخالدي

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت يوم السبت بتاريخ ٢١/ ١٢/ ٢٠١٩، من أعضاء لجنة المناقشة:

١. د. محسن سميح الخالدي	مشرفاً ورئيساً.....
٢. د. هارون الشرباتي	ممتحناً داخلياً.....
٣. د. يونس ياسين	ممتحناً خارجياً.....

الإهداء

إلى حبيب رب العالمين، وشفاء العليل، ودعوة الخليل، وسيد الأنام والمرسلين، محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم -.

إلى الحبيبة الغالية - بلسم الروح وبهجة القلب وقرة العين- أدامها الله فوق رأسي تاجا وعزا ونورا، أمي الحبيبة الغالية.

إلى مشعل النور ونبع الرجولة والعزم والإصرار- حفظه الله تعالى وأدامه مربيا ومعلما في كل الأوقات والأحوال - أبي العزيز الحبيب.

إلى رفيقة الدرب، وزهرة الحياة، وسَكَن الروح، المعينة على نوائب الدهر- زوجتي الغالية الكريمة.

إلى القمرَين البدرَين، والشمسَين الجميلَين: طلحة ويقين.

إلى مَن أعاناني بكثرة الدعاء وتمني الخير، إلى حماي وحماتي.

إلى إخوتي وأخواتي، وأحبابي وأصحابي، وأخص الصاحب الصدوق جواد مصاروة.

إلى كل داعية يريد الآخرة.

إلى كل هؤلاء الكرام جميعا أُهدي هذه الرسالة.

الباحث

محمد علي الأطرش

الشكر والتقدير

الحمد لله أولا وقبل كلّ شيء، حمدا يوافي نعمه، ويكافئ فضله، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم ، الصادق الأمين.

وبعد:

فإنني أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأساتذتي الكرام، وعلى رأسهم فضيلة الدكتور **محسن سميح الخالديّ**- حفظه الله- حبيب القلب وجفن العين، الذي شرّفني بالإشراف على رسالتي، فقد أفادني من علمه الغزير، وخلقه النبيل، والذي جاد عليّ من وقته وجهده، فكان بحقّ، نعم المشرف! جزاه الله عني خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر والتقدير والعرفان للأستاذيْن الكريميْن عضويّ لجنة المناقشة، فضيلة الدكتور: **هارون الشرباتي**، وفضيلة الدكتور: **يونس ياسين**، اللّذيْن استدركا عليّ ما فاتني، وأفاداني بالملحوظات الرشيدة، والآراء السديدة، فجزاهما الله عني أحسن الجزاء.

والشكر موصول لهذا الصرح الشامخ جامعة الخليل، ممثلة برئاستها وإدارتها وأساتذتها، وأخصّ كلية الشريعة، ممثلة بعميدها وأساتذتها الذين أفادوني بعلمهم وتوجيهاتهم.

ولهؤلاء جميعا أقول: جزاكم الله عني كلّ خير، وأدامكم ذخرا للإسلام والمسلمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس الموضوعات	ت
ملخص البحث	خ
ملخص البحث باللغة الإنجليزية	د
المقدمة	١
الفصل الأول: مفهوم الهمّ الدعوي وبيان فضله وأهميته	٧
***المبحث الأول: تعريف الهمّ الدعوي**	٨
- المطلب الأول: تعريف الهمّ	٨
- المطلب الثاني: تعريف الدعوة	١٠
- المطلب الثالث: ألفاظ ذات صلة بمفهوم الهمّ ومفهوم الدعوة	١٣
***المبحث الثاني: فضل الدعوة وبيان أهميتها.**	٢١
- المطلب الأول: فضل الدعوة	٢١
- المطلب الثاني: الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم ومسلمة	٣٣
- المطلب الثالث: آثار الدعوة إلى الله	٣٥
- المطلب الرابع: أساليب الدعوة إلى الله	٤١

الفصل الثاني: الهمّ الدعوي عند الأنبياء - عليهم السلام -	٥٧
***تمهيد**	٥٨
***المبحث الأول: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أسرهم**	٥٩
- المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه	٦١
- المطلب الثاني: دعوة سيدنا نوح عليه السلام لابنه	٦٥
- المطلب الثالث: دعوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأسرته وعشيرته	٧١
***المبحث الثاني: الهمّ الدعوي عند الانبياء مع أصحابهم**	٧٥
- المطلب الأول: دعوة سيدنا يوسف عليه السلام لصاحبي السجن	٧٧
- المطلب الثاني: دعوة سيدنا عيسى عليه السلام للحواريي ن	٨٥
***المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أصحاب النفوذ والحكم**	٩٠
- المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمرود	٩٣
- المطلب الثاني: دعوة سيدنا موسى عليه السلام لفرعون	٩٧
***المبحث الرابع: الهمّ الدعوي عند الأنبياء لأقوامهم**	١٠٨
- المطلب الأول: دعوة سيدنا نوح - علي السلام - لقومه	١١٠
- المطلب الثاني: دعوة سيدنا هود - عليه السلام - لقومه	١١٤
- المطلب الثالث: دعوة سيدنا صالح - عليه السلام - لقومه	١١٩

- المطلب الرابع: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لقومه	١٢٤
- المطلب الخامس: دعوة سيدنا لوط - عليه السلام- لقومه	١٢٩
- المطلب السادس: دعوة سيدنا شعيب - عليه السلام - لقومه	١٣٤
- المطلب السابع: دعوة سيدنا يونس - عليه السلام – لقومه	١٤١

الفصل الثالث: الهمّ الدعوي عند غير الأنبياء	**١٤٧**
***تمهيد**	**١٤٨**
***المبحث الأول: الهمّ الدعوي عند الرجال**	**١٥٠**
- المطلب الأول: الهمّ الدعوي لرجلين من بني إسرائيل	**١٥١**
- المطلب الثاني: الهمّ الدعوي في قصة ابني آدم	**١٥٤**
- المطلب الثالث: الهمّ الدعوي في قصة أصحاب السبت	**١٥٧**
- المطلب الرابع: الهمّ الدعوي في قصة صاحب الجنتين	**١٦٠**
- المطلب الخامس: الهمّ الدعوي من خلال قصة سحرة فرعون	**١٦٥**
- المطلب السادس: الهمّ الدعوي في قصة أصحاب القرية (صاحب ياسين)	**١٧٠**
- المطلب السابع: الهمّ الدعوي عند مؤمن آل فرعون	**١٧٦**
***المبحث الثاني: الهمّ الدعوي عند الشباب**	**١٨٢**
- المطلب الأول: الهمّ الدعوي عند أصحاب الكهف	**١٨٥**
- المطلب الثاني: الهمّ الدعوي عند الغلام في قصة أصحاب الأخدود	**١٩٠**
***المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الملوك**	**١٩٥**

- المطلب : الهمّ الدعوي عند ذي القرنين	١٩٨
***المبحث الرابع: الهمّ الدعوي عند العلماء**	٢٠٣
- المطلب : الهمّ الدعوي عند العلماء في قصة قارون	٢٠٦
***المبحث الخامس: الهمّ الدعوي عند الوالِدَين**	٢١٣
- المطلب الأول: الهمّ الدعوي عند لقمان الحكيم	٢١٤
- المطلب الثاني: الهمّ الدعوي عند الوالدين في سورة الأحقاف	٢٢٠
***المبحث السادس: الهمّ الدعوي عند النملة والهدهد والجنّ**	٢٢٢
- المطلب الأول: الهمّ الدعوي في قصة النملة مع سليمان -عليه السلام-	٢٢٤
- المطلب الثاني: الهمّ الدعوي من خلال قصة هدهد سليمان -عليه السلام-	٢٢٦
- المطلب الثالث: الهمّ الدعوي عند الجنّ	٢٣٠

الخاتمة	٢٣٥
التوصيات	٢٣٧
قائمة المصادر والمراجع	٢٣٨

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الهمّ الدعوي في ظل آيات الكتاب الكريم، (دراسة موضوعية)، وهو دراسة تأصيليّة وتحليليّة واستنباطية، لمفهوم الهمّ الدعوي وما يتصل بهذا المفهوم من ألفاظ، وسلط البحث الضوء على فضائل الهمّ الدعوي، ثم بيان أهمية تحقق هذا الهمّ في الفرد والمجتمع، وقد تم التفصيل في وسائل الدعوة وآلياتها، وإبراز أهم الفروق بين مفهوم الدعوة وغيرها من المفهومات التي تشترك معه في الواقع العملي للدعوة.

وقد تناول البحث في دراسة الهمّ الدعوي، القصص القرآنية المتعلقة بالدعوة إلى الله تعالى وذلك من جانبين:

الأول: الهمّ الدعوي في قصص الأنبياء- عليهم السلام - .

الثاني: الهمّ الدعوي عند غير الأنبياء - عليهم السلام - .

ومن ثم تقديم باقة من التأملات في نهاية كل قصة تحت عنوان (استنباط الهمّ الدعوي).

وخُتِمَ البحث بجملة من النتائج والتوصيات.

الباحث

محمد علي جميل الأطرش

Research Summary

Title: The da'wa (call to Islam)concern in the great Qur'an (objective study).

Prepared by: Mohammed Ali Jamil Al Atrash.

Supervised by: Dr. Mohsen Samih Khalidi

This research deals with the da’wa concern according to the verses of the Holy Qur’an (objective study). It is an analytical and a deductive study of the concept of the da'wa concern and the terms related.

The researcher highlighted the virtues of the da’wa concern and clarified the significance of achieving this concern at the level of both the individual and society, elaborated the means of da’wa, highlighted the most important differences between the concept of da’wa and other relating concepts of the practical side.

The research dealt with the Qur'anic stories related to the call to Islam on two sides:

First: The concern of da’wa in the stories of the prophets -peace be upon them-

Second: The concern of da’wa of non-prophets

Then he presented a number of meditations at the end of each story titled (eliciting the da’wa concern).

The research concluded with a number of conclusions and recommendations.

Researcher: Mohammed Ali Jamil Al Atrash

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مُكَوِر الليل على النّهار، والصلاة والسلام على الرسول المُختار، أرسله الرحيم الغفار؛ لإنقاذ البشر من النّار، مَن اقتفى أثره فقد رشد وأحسن الاختيار، ومَن تنكب وحاد عن الهدى فمآله الهلاك والبَوار.

والصلاة والسلام على آل البيت الأطهار، والصحابة الأخيار، من المهاجرين والأنصار، ومَن تبعهم بإحسان إلى فناء هذه الدار.

وبعد:

فقد خلق الله تعالى الإنسان وجعله أكرم المخلوقات، وجعل له مقصدا يحققه، وهو توحيد الله وعبادته، وحتى يستقيم العبد على هذا المقصد- فلا يضل ولا يشقى في هذه الأرض- جعل الله تعالى له فطرة سليمة ترشده إلى ربه، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب، فإن أطاع الإنسان مراد ربه وهَدْيَ رُسُله فقد رشد، وإن عاند واتبع هوى نفسه، فقد وقع في الضلال والنَكد.

ومن فضل الله تعالى أنه أرسل الأنبياء لأقوامهم حتى يرشدوهم إلى مقصد حياتهم، فكان النبي يموت فيخلفه نبي بعده، إلى أن أرسل الله تعالى صاحب الهمّ الدعوي الأعظم محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فلقد بُعِثَ للناس كافة، وجُعِلت أمته خير الأمم؛ لأنها كُلِفت بإكمال دعوة نبيها - صلوات ربي عليه وسلامه - فاقْتَبَست هَمّها من همّ نبيها في الدعوة وصلاح الناس، وهذا الهمّ في الدعوة إلى الله تعالى ما زال حيا في أنفاس العلماء والفقهاء، ونفوس ا لأمهات والآباء، ليُنِيروا عقولا أظلمت، ويُحْيوا قلوبا ماتت، وهذا الاستمرار في الدعوة لا يزال إلى يومنا هذا بفضل الله وكرمه.

موضوع البحث

تتناول هذه الدراسة مفهوم الهمّ الدعوي وما يتعلق بهذا المفهوم من تتمات، مع تطبيقات من قصص القرآن على هذا المفهوم.

أسباب اختيار البحث.

كان الدافع لهذه الدراسة الأسباب الآتية:

أ- تعلق الدراسة بالقرآن وقصصه الجليل، فَشَرَفُ الدراسة من شَرَفِ المدروس، وذلك حتى أنال هذا الشرف الذي لا يُنال إلا بالعلم بالقرآن وعلومه.

ب-أردت من هذا البحث أن يكون مرجعا للدّعاة والوُعاظ بطرح مفهوم الهمّ الدعوي مُدَعَّما بتجميع قصص الدّعاة في القرآن الكريم، واستنباط الهمّ الدعوي من طيّاتها.

ج- أن هذا الموضوع هو سبب من أسباب صلاح الفرد والمجتمع والأمة.

د- إحياء مفهوم الدعوة بثوب جديد.

أهداف البحث.

يهدف البحث لتحقيق ما يأتي:

أولا: الكشف عن مفهوم الهمّ الدعوي وما يتعلق به من ألفاظ.

ثانيا: بيان فضائل الهمّ الدعوي وأهميته ووسائله.

ثالثا: طرح قصص الأنبياء - عليهم السلام - بشكل يُبرز همّهم في مسيرتهم الدعوية.

رابعا: إبراز القصص القرآني الدعوي عند غير الأنبياء - عليهم السلام-، واستخراج أهم مظاهر الهمّ في دعوتهم.

أهمية البحث.

تظهر أهمية البحث فيما يأتي:

١- تحقيق الأهداف المذكورة.

٢- إعطاء القرآن الكم الكبير من الآيات المتعلقة بالدعوة، وهنا تكمن أهمية هذا الموضوع.

٣- يستمد هذا الموضوع أهميته من واقع الأمة الصعب؛ والحاجة إلى تغييره وإصلاحه.

حدود البحث.

قامت هذه الدراسة على إماطة الثام عن مفهوم الهمّ الدعوي، وتفصيل في قصص الأنبياء، وقصص غير الأنبياء، واستنباط الهمّ الدعوي من تلك القصص، مع إرشادات دعوية يشمل عليها الاستنباط.

الدراسات السابقة.

ثمة دراسات سابقة عدة حول موضوع الدعوة، منها:

١- كتاب (المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة)، للشيخ عبد الكريم زيدان، ذكر الشيخ - رحمه الله - قصص الأنبياء- عليهم السلام - مع تفصيلٍ في الآيات، ثم ذكر بعضا من قصص غير الأنبياء، وفي نهاية كل قصة يذكر عنوانا:(المستفاد من القصة للدعوة والدعاة)، وختم كتابه بالسيرة المحمدية - صلوات ربي وسلامه عليه.

٢- كتاب (أصول الدعوة)، للشيخ عبد الكريم زيدان، تحدث الكتاب عن الإسلام وأركانه وخصائصه بالتفصيل والشمول، ثم تحدث عن أنظمة الإسلام، كنظام الأخلاق، ونظام الأسرة، ونظام الحِسبة، ثم تحدث عن الداعي، والمدعو، ووسائل الدعوة.

٣- كتاب (فقه الدعوة إلى الله تعالى)، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، - رحمه الله - اشتمل الكتاب على عدة أبواب وفصول، وهي:

أ- الباب الأول: مقدمات عامة، كالتعريف بالدعوة، ومسؤولية الأمة.

ب-الباب الثاني: الصفات التي يجب أن يتحلى بها حملة الرسالة.

ج -الباب الثالث: بيان آفات حملة الرسالة.

د-الباب الرابع: مناهج توصيل الرسالة وسُبُلها.

هـ - الباب الخامس: نماذج تطبيقية من حياة الرسل -عليهم السلام -في الدعوة إلى الله تعالى.

٤-كتاب (مراعاة أحوال المخاطبين)، للشيخ فضل إلهي، تَخَصص الكتاب بإيضاح منهج الأنبياء- عليهم السلام - في مراعاة أحوال المَدعوِّين، ثم اشتمل الكتاب بعد تأصيل هذا المنهج، على ذكر التطبيقات العملية من حياة وسيرة المصطفى- صلى الله عليه وسلم - في مراعاة أحوال المخاطبين، من الصحابة، والوافدين، والخواص من الناس، وغير ذلك من أصناف الناس، ثم الشواهد العملية للسلف الصالح في مراعاة أحوال المخاطبين.

٥- كتاب (هموم داعية)، للشيخ محمد الغزالي، وهذا الكتاب وعظي ومباحثه لا تفي المقصود من هذا الب حث.

وتميزت رسالة (الهمّ الدعوي) عمّا سبقها من الدراسات السابقة بما يأتي:

أولا: أنها دراسة قرآنية بحتة.

ثانيا: تقسيم الدراسة إلى ثلاثة أقسام: قسم ذُكِرَ فيه المقدمات، وقسم أفرده للأنبياء - عليهم السلام - مع بيان شمولية دعوتهم، والقسم الأخير أفرده لدعوة غير الأنبياء.

ثالثا: تميزت هذه الدراسة بطرح الدعوة بمفهوم جديد، يتبين فيها بعضُ الفروق بين مفهوم الدعوة وما يشتبك معها من مفاهيم، وعرض بعض الوسائل التي لم تُذكر في غالبية الكتب.

رابعا: أبرزت هذه الدراسة مواقف وكلمات ولطائف تثير عاطفة الهمّ الدعوي في النفس، وليس مجرد تفسير للآيات الكريمة.

خامسا: الشمولية في استقراء جميع القصص المتعلقة بالهم الدعوي، واستيفاء طرح غالبية مجالات الدعوة.

منهج البحث.

لتحقيق أهداف البحث المنشودة، سلك الباحث المنهج الاستقرائي، وذلك بتتبع النصوص القرآنية، ثم الاستعانة بالمنهج التحليلي والاستنباطي.

خطوات البحث.

١- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، مع ذكر رقم الجزء، ورقم الآية.

٢- يتم عزو الآيات في بداية كل مقطع من القصة، ولا يُعاد غالبا عزوها مرة أخرى أثناء تفسير الآيات.

٣- في تفسير الآيات تأتي بعض الآيات دون تشكيل.

٤- ضبط الأحاديث وتخريجها من مصادرها، ونقل الحكم عليها إن لم تكن في الصحيحين، وقد تم نقل الحكم عليها من أقوال القُدامى من العلماء ذوي الاختصاص كالترمذي، والمُحدثين كالألبانيّ وشعيب الأرناؤوط رحمهم الله جميعا.

٥- الاستشهاد ببعض الأحاديث النبوية؛ لتوضيح الكلام على قدر الحاجة.

٦- الابتعاد عن الأحاديث الضعيفة جدا أو المنكرة، أما بعض الأحاديث الضعيفة التي ذُكرت في البحث فضعفها لا يوجد فيه نكارة، وقد تم التنبيه على درجتها.

٧- تم الاعتماد في هذه الدراسة على كتب التفسير من المأثور والرأي، القديمة والمعاصرة.

٨-عَزْوُ الأقوال ونسبتها إلى قائليها، بحيث إن تم اقتباس النص دون تصرف فإنه يتم وضع القول بين علامتي تنصيص، وإن تم التصرف في النص؛ فإنه يشار في الهامش بـ (انظر).

٩- عند التوثيق للمرة الأولى تعرض بيانات النشر كاملة، وفي المرة الثانية يُكْتَفى باسم الشهرة للمؤلف، واسم الكتاب، والجزء والصفحة.

١٠- تخريج شواهد الشعر العربي من مظانها.

١١- ترجمة بعض الأعلام، على قدر الحاجة.

١٢- توضيح المعاني والمفردات المبهمة والغامضة.

محتوى البحث.

يحتوي البحث على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

المقدمة، وفيها: سبب اختيار البحث، وأهدافه، وأهميته، وحدوده، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطواته، ومحتواه.

الفصل الأول: مفهوم الهمّ الدعوي وبيان فضله وأهميته.

وفيه مبحثان: -

- المبحث الأول: تعريف الهمّ الدعوي.

المبحث الثاني: فضل الدعوة وبيان أهميتها.

الفصل الثاني: الهمّ الدعوي عند الأنبياء - عليهم السلام - .

وفيه أربعة مباحث: -

- المبحث الأول: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أُسَرِهم.
- المبحث الثاني: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أصحابهم.
- المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أصحاب النفوذ والحكم.
- المبحث الرابع: الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أقوامهم.

الفصل الثالث: الهمّ الدعوي عند غير الأنبياء - عليهم السلام -.

وفيه ستة مباحث : -

- المبحث الأول: الهمّ الدعوي عند الرجال.

- المبحث الثاني: الهمّ الدعوي عند الشباب.

- المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الملوك.

- المبحث الرابع: الهمّ الدعوي عند العلماء.

- المبحث الخامس: الهمّ الدعوي عند الوالِدَين.

- المبحث السادس: الهمّ الدعوي عند النملة والهدهد والجنّ.

الفصل الأول

مفهوم الهمّ الدعوي وبيان فضله وأهميته.

وفيه مبحثان: -

- **المبحث الأول: تعريف الهمّ الدعوي، وفيه ثلاثة مطالب:-**
- **المطلب الأول: تعريف الهمّ.**
- **المطلب الثاني: تعريف الدعوة.**
- **المطلب الثالث: ألفاظ ذات صلة بمفهوم الهمّ ومفهوم الدعوة.**

- المبحث الثاني: فضل الدعوة وبيان أهميتها.

وفيه أربعة مطالب:-

-المطلب الأول: فضل الدعوة.

-المطلب الثاني: الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم

-المطلب الثالث: آثار الدعوة وأهميتها.

-المطلب الرابع: آليات الدعوة ووسائلها.

المبحث الأول : تعريف الهمّ الدعوي.

في هذا المبحث لا بد من الوقوف على تعريف الهمّ في اللغة والاصطلاح، وبيان المقصود بالدعوة وعرض ما يتعلق بها من ألفاظ ذات صلة، ويمكن عرض هذه الأمور في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: تعريف الهمّ .

الهمّ في اللغة يأتي على عدة معانٍ، ومن ذلك:

أولا: الذوبان. قال ابن فارس: "همّ، الهاء والميم: أصل صحيح يدل على ذوب وجريان ودبيب وما أشبه ذلك، ثم يقاس عليه، منه قول العرب: همَّني الشيء: أذابني" [١].

ثانيا: الحزن والقلق. قال ابن منظور: (هَمَم، الهَمُّ الحُزْن وجمعه هُمومٌ، وهَمَّه الأمرُ هَمّاً ومَهَمَّةٌ، وأَهَمَّه فاهْتَمَّ واهْتَمَّ به... وأَهَمَّني الأَمرُ إِذا أَقْلَقَك وحَزَنَك، والاهتمام الاغتمامُ واهْتَمِّ له بأَمرِه... وهَمَّ بالشيء: إِذا نواه وأَرادَه وعزَم عليه... وجاء في الحديث، " تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ "[٢]، وهو فَعَّال من هَمَّ بالأمر يَهُمّ: إِذا عزَم عليه، وإِنما كان أَصدَقها؛ لأَنه ما من أَحد إِلا وهو يَهُمّ بأَمرٍ، رَشَدَ أَم غَوِيَ.)[٣].

وهذه المعاني تجتمع على أن صاحب الهمّ لديه اهتمام وعزم يشغله ويشغل فكره، ويفني وقته ليحقق مأربه ومبتغاه .

١- ابن فارس، أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ)، **مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، دار اتحاد العرب، ط ٢٠٠١،ج ٦ ص ٩.

٢- أخرجه أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني،(ت ٢٧٥هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق : مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف - الرياض ، ط ٢- ١٤٢٧هـ ، كتاب الأدب، باب: تغيير الأسماء، حديث (٤٩٥٠)،ج١، ص ٨٩٥ ، وأورده الألباني، محمد ناصر الدين،(ت١٤٢٠ هـ) في **السلسلة الصحيحة**: ٩٠٤و ١٠٤٠ وصححه.

٣- انظر: ابن منظور، محمد مكرم الأفريقي، (ت ٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، ط ١، ج ١٢ ص ٦١٩. وذكره الزبيدي نحوه ، - وانظر: الزبيدي، محمد بن محمد ابو الفيض (ت١٢٠٥هـ) ، **تاج العروس**، دار الهداية ،ج ٣٤،ص ١١٨.

الهمّ في الاصطلاح .

أولا: قال الراغب الأصفهاني:" الهَمُّ: الحَزَنُ الذي يذيب الإنسان، يقال: هَمَمْتُ الشّحم فانْهم، والهَمُّ : ما هممت به في نفسك، وهو الأصل ... قال تعالى:﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ﴾ [1]قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [2]،قال تعالى:﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ ﴾ [3]،قال تعالى:﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾. [4]" [5]

ثانيا: قال الجرجاني: " الهمّ: هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يُفْعل، من خير كان أو شر". [6]

ثالثا: قال المناوي: " الهمّ : بالكسر، الشيخ الفاني، وبالفتح أول العزيمة، وعقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر، والحزن والقلق ". [7]

رابعا: قال أبو البقاء الكفوي: " الهمّ: بالفتح الحزن والقلق،... والهمّ: أيضاً دواعي الإنسان إلى الفعل من خير أو شر، والدواعي على مراتب: السانح، ثمّ الخاطر، ثمّ الفكر، ثمّ الإرادة، ثمّ الهمّ، ثمّ العزم، فالهَمّ اجتماع النفس على الأمر والعزم عليه، والعزم هو القصد على امضائه، فالهمّ فوق الإرادة دون العزم، وأول العزيمة. والهمّ همّان : همٌّ ثابت: وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضا، مثل هَمِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمٌّ عارض: وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همّ يوسف- عليه لسلام -، والعبد غير مؤاخذ به ما لم يتكلم أو لم يعمل... والهُمام: هو الذي إذا همّ بشيء أمضاه". [8] ويمكن الجمع بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في كون الهمّ قلقا وعزيمة وعقد القلب على فعل شيء، وفي هذه الدراسة هو همّ القلب على فعل الخيرات وترك المنكرات ودعوة النّاس لذلك.

١- سورة المائدة، ج ٦، الآية (١١).
٢- . سورة يوسف، ج ١٢، الآية (٢٤).
٣- سورة آل عمران، ج ٤، الآية(١٢٢).
٤- سورة التوبة، ج ١٠، الآية(٧٤).
٥- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، (ت٥٠٢هـ) ، **مفردات ألفاظ القران**، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم – دمشق، ط ١ – ١٤١٢ هـ ، ص ٨٥٤ .
٦- الجرجاني، علي بن محمد، (ت٨١٧هـ)، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط- ١- ١٤٠٥ هـ ، ص ٣٢٠.

٧- المناوي ، محمد عبد الرؤوف، (ت١٠٣١هـ) ، **التوقيف على مهمات التعاريف** ، تحقيق د . محمد الداية، دار الفكر - بيروت، ص ٧٤٣

٨- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، (ت ١٠٩٤هـ) ، **الكليات(معجم الاصطلاحات والفروق اللغوية)**، تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، ط ١٤١٩هـ ، ص ١٥٣٩ – ١٥٤٠ .

المطلب الثاني : تعريف الدعوة .

تأتي الدعوة في اللغة على معان متعددة، ومنها:

أولا: الادعاء، وصريخ الخيل. قال الفراهيدي:" دعو: ... والادّعاء أن تدّعيَ حقاً لك ولغيركِ، يُقَالُ: ادّعَى حقّاً أو باطلاً، والدّاعيةُ: صريخ الخَيْلِ في الحروب، أجيبوا داعية الخيل" [١].

ثانيا: إمالة الشيء بالصوت. قال ابن فارس: " دعو: الدال والعين والحرف المعتل أصلٌ واحد، وهو أن تميل الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، ... وداعِية اللَّبن: ما يُترَك في الضَّرع ليدعُو ماَ بعدَه، وهذا تمثيلٌ وتشبيه، وفي الحديث أنّه قال للحالِب: "دَعْ داعِيَة اللبن"[٢]"[٣].

ثالثا: الاستغاثة و النداء. قال ابن منظور: " دعا: ... فالدعاء ههنا بمعنى الاستغاثة، وقد يكون الدُّعاءُ عِبادةً، ودَعا الرجلَ دَعْواً ودُعاءً: ناداه، والاسم الدعْوة، ودَعَوْت فلاناً، أي: صِحْت به واسْتَدْعَيْته ، والدُّعاةُ: قومٌ يَدْعُونَ إلى بيعة هُدىً أو ضلالة، واحدُهم داعٍ، ورجل داعِيةٌ: إذا كان يَدْعُو الناس إلى بِدْعة أو دينٍ، أُدْخِلَت الهاءُ فيه للمبالغة، والنبي - صلى الله عليه وسلم- داعي الله تعالى، وكذلك المُؤَذِّنُ " [٤].

رابعا: الابتهال والمناجاة. قال الزبيدي: "(دعو) والدُّعاءُ: الرَّغْبَةُ إلى اللَّهِ تعالى فيمَا عنْدَه مِن الخيْر ، والابْتِهال إليه بالسُّؤَال، ومنه قوْله تعالى:﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [٥]، والنبيُّ - صلى الله عليه وسلم - داعِي اللَّهِ، وهي مِن قوْلِه تعالى:﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[٦]، أي : إلى تَوْحيدِهِ وما يُقَرِّبُ منه، ويُطْلَقُ الدَّاعِي على المُؤَذِّن أيْضاً، لأنَّه يَدْعُو إلى ما يُقَرِّبُ مِن اللَّهِ... ومنه الحدِيثُ:" والدَّعْوَة في الحَبَشَةِ " [٧]، أرادَ بالدَّعْوَةِ الأذانَ" [٨].

١- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت١٧٠هـ)،**كتاب العين** ، د. مهدي المخرومي، دار الهلال ،ج ٢، ص ٢٢١.
٢- أخرجه أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (ت ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: السيد أبي المعاطي النوري، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م، مسند ضرار بن الأزور رضي الله عنه- ج ٤، ص ٣٣٩، حديث(١٩١٨٩)، وذكره الألباني، محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، في **السلسلة الصحيحة** ٤ / ٤٧٤ وحسنّه.
٣- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٢٢٨.
٤- ابن منظور، **لسان العرب**،ج ٢ ، ص ٢٩٧ .
٥- سورة الأعراف، ج ٨ ، الآية (٥٥) .
٦- سورة الأحزاب، ج ٢٢، الآية (٤٦)
٧- أخرجه أحمد، **مسند الإمام أحمد**، حديث عتبة بن عبد السلمي - رضي الله عنه -، ج ٤، ص ١٨٥، (١٧٨٠٤)، وأورده الألباني في **السلسلة الصحيحة** ٤ / ٤٦٧.
٨- الزبيدي، **تاج العروس**، ج ٣٨، ص ٤٧.

ولعل أقرب هذه التعريفات إلى مراد البحث هو التعريف الثاني؛ لأن الداعي يستعمل صوته المصحوب باللطف والأدب؛ ليتمكن من إمالة قلوب الناس إلى الله تعالى، وإلى فعل الطاعات والبعد عن المحرمات.

تعريف الدعوة في الاصطلاح:

ذكر العلماء للدعوة عدة تعريفات منها :

أولا: ما ذكره الأصفهاني: " الدُّعَاء كالنِّداء،... والدُّعاءُ إلى الشيء :الحثّ على قصده، قالَ تعالى- على لسان سيدنا يوسف –عليه السلام-:﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[2]، وقال تعالى – على لسان مؤمن آل فرعون:﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾[3]."[4].

ثانيا: عرّفها ابن تيمية بقوله: "الدعوة إلى اللَّهِ هي: الدّعوة إلى الإيمانِ بِه وبِما جاءت به رسلُه، بِتصديقِهم فيما أخبروا بِه، وطَاعتهم فيما أمروا "[6] .

١- سورة يوسف، ج ١٢، الآية (٣٣).
٢- سورة يونس ، ج ١١ ، الآية (٢٥) .
٣- سورة غافر، ج ٢٤، الآية (٤١ – ٤٢).
٤- الأصفهاني، **المفردات في غريب القران**، ص ٣١٥.
٥ - أخرجه مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ،(ت ٢٦١هـ)، **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**، دار الجيل - بيروت، كتاب الإيمان، باب: معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، ج ١، ص ٢٨، حديث(١٠٢).
٦- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميه الحراني، (ت ٧٢٨هـ)، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء ، ط ٣ ،١٤٢٦هـ ، كتاب التفسير، سورة يوسف – عليه السلام – باب ما تتضمنه الدعوة إلى الله ، ج ١٥ ، ص ١٥٧ – ١٥٨ .

ثالثا: ذكر الرازي أنّ الدعوة إلى الله عبارة عن إقامة الدلائل اليقينية، والبراهين القطعية على عبادة الله وحده ونبذ الشرك والكفر، والترغيب بالقيام بالأوامر واجتناب النواهي [١].

رابعا: عرّفها حبنكة الميداني: " الدعوة إلى الإسلام : هي الطلب بشدة وحث على الدخول في دين الإسلام اعتقادا، قولا وعملا، ظاهرا وباطنا" [٢].

وبعد تعريف الهمّ والدعوة في اللغة والاصطلاح، يمكن تعريف مصطلح (**الهمّ الدعوي**) كالآتي :-

الهمّ الدعوي: توجه القلب المنعقد على الخير، إلى الاهتمام بإمالة قلوب العباد إلى توحيد الله وطاعته، والبعد عن معصيته، والانقياد لما يترتب على هذا الإيمان من آثار ومآلات.

فالداعي إلى دينه، والمهتم بإرشاد الخلق إلى الله، يكون قلبه مهموما بدعوة الناس، فيستنفد فكره ووقته، وينشغل قلبه وعقله، في سبيل تحقيق همّه الأكبر، وهو عبادة الحق وهداية الخلق.

وأسوة الداعي هو اللؤلؤة القمر، الذي سبّح بين يديه الحجر، وشَهِد على صدق رسالته الشجر، وانشق له القمر، هو دائم الفكرة، ليست له راحةٌ، طويل السكت، حسن السَمت، صاحب الهمّ الأكبر على أمته، هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الذي ذكره ربنا- تبارك وتعالى- واصفا همّه الدعوي في تبليغه للرسالة، قال تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[٣]، فمن شدة هذا الهمّ كأن النبي - صلوات ربي عليه وسلامه- ستذهب نفسه في سبيل إسلام الناس، وهو يراهم معرضين عنه، مكذبين له، فأوصاه الله تعالى رحمة به قائلا:﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [٤].

١- انظر: الرازي، فخر الدين محمد بن عمر ،(ت٦٠٦ هـ)، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١- ١٤٢١ هـ، ج٢٧،ص١٠٩.

٢- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، (ت ١٤٢٥هـ)، **فقه الدعوة إلى الله**، دار القلم- دمشق، ط٢- ١٤٣١هـ، ص١٦.

٣- سورة الكهف، ج١٥، آية(٦)

٤- سورة فاطر، ج٢٢، آية (٨)

إذن: نتعلم مفهوم الهمّ الدعوي عمليا من سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فهو التطبيق العملي والنموذج الحيّ للهمّ الدعوي في صبره، وتعليمه، وإنفاقه، ودعائه، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة، التي تؤهله لإقامة الناس على دينهم، ونجاتهم في الدارين، وبقي على هذه الحال إلى أن قال: " ليس على أبيك كرب بعد اليوم"[1].

" إنّ الرّسولَ لسيفٌ يستضاءُ بهِ

مهندٌ من سيوفِ الله مسلول"[2]

المطلب الثالث: ألفاظ ذات صلة بمفهوم الهمّ ومفهوم الدعوة:

هناك ألفاظ في القرآن لها علاقة متينة بموضوع الهمّ الدعوي، وحتى تكتمل الصورة عن الموضوع، سوف يتم عرض طائفة من هذه الألفاظ، على النحو الآتي:

أولاً: باخع نفسك.

قال تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[4]، قال شيخ المفسرين الطبري : "فلعلك يا محمد قاتلٌ نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴾ تمردا منهم على ربهم"[5]، وقال الزمخشري :" البخع : أن يبلغ بالذبح، البُخاع بالباء، وهو: عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذبح، ولعل: للإشفاق، يعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك (أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) "[6]، وكان ذلك منه عليه السلام حزنا وشفقة على قومه.

١- أخرجه البخاري ، محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، دار الشعب- القاهرة، ط ١- ١٤٠٧هـ، كتاب المغازي، باب مرض النبي – صلى الله عليه وسلم - ، حديث (٤٤١٩٣) ،ج ٤، ص ١٦١٩ .

٢- كعب بن زهير، كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، (ت ٢٦ غـ)، **ديوان كعب بن زهير**، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط - ١٤١٧هـ، ص ٦٧.

٣- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٦) .

٤- سورة الشعراء ، ج ١٩ ، اية (٣) .

٥ - الطبري ، محمد بن جرير ،(ت٣١٠هـ) ، **جامع البيان في تأويل آي القران**، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ، ط ١ – ١٤٢٠ هـ ، ج ١٧ ، ص ٥٩٧ .

٦- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، (ت ٥٣٨هـ) ، **الكشاف عن غوامض التنزيل** ، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١٤٠٧هـ ، ج ٣، ص ٢٩٨ .

ثانيا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [2]، والمعروف: كل ما أمر الشارع فعله على وجه الإلزام أو الترغيب، وهو ما يستحسن من منطلق العقول السليمة الرشيدة مع ما يتوافق مع الإسلام، وأما المنكر: فهو ما نهى الشارع عن فعله تحريما أو كراهية، وهو ما استقبحه الإسلام، واستقبحته العقول الرشيدة [3]، قال القرطبي: " قوله تعالى: (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)، أي: قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف، وقال في المنافقين (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)، لأن قلوبهم مختلفة، وقوله تعالى: (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)، أي: بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك، (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك ... وقوله تعالى: (وَيُطِيعُونَ اللَّهَ) في الفرائض، (وَرَسُولَهُ) فيما سن لهم" [4].

ثالثا: التبليغ.

قال تعالى- مناديا حبيبه محمدا- صلى الله عليه وسلم-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [5]، ويقول الله تعالى له﴿ فَإِنْ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [6]، وقال تعالى واصفا حال المرسلين: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [7] ، قال ابن عاشور: "و(الْبَلاغُ): اسم مصدر من أبلغ إذا أوصل خبرا ... و (الْمُبِينُ): وصف للبلاغ، أي: البلاغ الواضح دلالة، وهو الذي لا إيهام فيه ولا مواربة" [8]، وقال المظهري - في قوله تعالى:- ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ " يعني: إن لم تفعل تبليغ كل شيء وتركت بعضه، فكأنما ما بلغت شيئا من رسالاته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أدى منها، كترك بعض أركان الصلاة، وذلك لأن ترك تبليغ البعض يستلزم كفر الناس بذلك البعض وإنكارهم كونه من الله تعالى، والإيمان

١- سورة آل عمران، ج٤، الآية (١٠٤).
٢ – سورة التوبة، ج١٠، الآية (٧١) .
٣ - انظر: حبنكة الميداني، **فقه الدعوة إلى الله**، ج ١ ، ص ٢٠ – ٢١ .
٤ – القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري ، ت(٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ط ٢- ١٣٨٤هـ، ج ٨ ، ص ٢٠٣.
٥- سورة المائدة، ج٦ ، آية (٦٧) .
٦- سورة الشورى ، ج٢٤ ، آية (٤٨) .
٧- سورة يس، ج ٢٢ ، الآية (١٧) .
٨- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، (ت ١٣٩٣ هـ)، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي - لبنان ، ج ٢٢ ، ص ٢٠٩ .

ببعض الكتاب مع الكفر بالبعض لا يعد إيمانا، كقول اليهود ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[1]، أو لأن كتمان البعض يستجلب العقاب، مثل كتمان الكل، نظيره قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2]"[3]، فإذا أوصل الداعي الدين بتعاليمه ومفاهيمه الصحيحة إلى الناس، يعد هذا الداعي مبلغا عن الله ورسوله- عليه الصلاة والسلام-.

رابعا: التذكير.

قال تعالى:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[5]، والتذكير: استحضار الشيء من مطويات الذاكرة، وهو خلاف النسيان، بمعنى: إعادة ما سبق تبليغه وبيانه وشرحه، وأطلق الله تعالى على القرآن الكريم لفظ (تذكرة) في سورة الحاقة (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)[6]، وذلك لأن كثرة القراءة والتلاوة تُذكّر بمفهوم الدين وتعاليمه وسائر ما شرع الله تعالى، وبهذا يكون التذكير لمن بلغه الدين سابقا، لكنه بحاجة للإعادة مرة أخرى بسبب غفلة أو نسيان[7]، وقوله تعالى: (فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)، يحتمل وجوها: أولاها: أن يراد قوة يقينهم، كما قال تعالى: (لِيَزْدادُوا إيماناً)[8]، وقال تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[9] ، وقال تعالى: ﴿ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[10]، ثانيها: تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير، نُقِل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجيء بعدك من المؤمنين، ثالثها: هو أن الذكرى إن أفادت إيمان كافر فقد نفعت مؤمنا؛ لأنه صار مؤمنا، وإن لم تُفِد إيمان كافر، يزيد الله في حسنات المؤمنين فينتفعوا، لأن الذكرى قربة في حدّ ذاتها، وهذا هو الذي قيل في قوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا ﴾[11]"[12] .

---

١ - سورة النساء، ج ٦آية(١٥٠).
٢ - سورة المائدة، ج ٦، آية(٣٢).
٣ - المظهري ، محمد ثناء الله العثماني، (ت ١٢١٦هـ)، **التفسير المظهري**، تحقيق غلام تونسي، دار التراث العربي – بيروت، ط ٢٠٠٤ م ، ج ١، ص ١١١١ .
٤ - سورة الذاريات، ج ٢٧ ، الآية (٥٥) .
٥- سورة ق، ج ٢٦ ، الآية (٤٥) .
٦- سورة الحاقة، ج ٢٩، الآية (٤٨) .
٧- انظر: الميداني، **فقه الدعوة إلى الله**، ج ١، ص١٧ - ١٨.
٨ - سورة الفتح، ج ٢٦، آية (٤).
٩ - سورة التوبة، ج ١١، آية(١٤٢).
١٠ - سورة محمد، ج ٢٦، آية (١٧).
١١- سورة الزخرف، ج ٢٥، آية(٧٢).
١٢ – انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٨، ص ١٩.

خامسا: النصح.

قال تعالى - واصفا هودا- عليه السلام- في دعوته لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [1]، وقال تعالى - على لسان نوح -عليه السلام- ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [2]، ووصف الله حال صالح – عليه السلام –﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [3] ، وأصل النصح: الخلو من الشوائب، تقول: عسل ناصح: أي: خالص من الشمع، وهو خلاف الغش والخديعة، قال الفخر الرازي: "الفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة: هو أن تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه، وأما النصيحة : فهو أنه يرغبه في الطاعة ويحذره عن المعصية، ويسعى في تقرير ذلك الترغيب والترهيب لأبلغ وجه... وحقيقة النصح : الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه " [4]، " والنصح أو النصيحة: كلمة جامعة، يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل، وفي الحديث: (الدين النصيحة)[5] " [6] .

سادسا: الإرشاد.

قال تعالى على لسان سيدنا لوط - عليه السلام- زاجرا قومه: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [7]. وقال تعالى:﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [8]، ووصف المولى الصحابة الكرام :﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [9]، :" (رشد) في أسماء الله تعالى الرشيدُ: هو الذي أرْشَد الخلق إلى مصالحهم، أي: هداهم ودلهم عليها، وهو نقيض الضلال"[10]، وجملة: (أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) معترضة للمدح، والإشارة ب {أولئك} إلى ضمير المخاطبين في قوله: {إليكم} مرتين، وفي قوله: {قلوبكم} أي: الذين أحبوا الإيمان وزيّن في قلوبكم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي: هم المستقيمون على طريق الحق. [11].

١- سورة الأعراف، ج ٨، آية(٦٨).
٢- سورة الأعراف، ج٨، آية(٦٢).
٣- سورة الأعراف، ج٨، آية(٧٩).
٤ - الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٢٩٧.
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان ، باب الدين النصيحة، حديث(٢٠٥)، ج ١، ص ٥٣.
٦ - ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص١٤٩.
٧- سورة هود، ج١٢، آية(٧٨).
٨- سورة الأعراف، ج ٩، آية(١٤٦).
٩- سورة الحجرات، ج ٢٦، آية(٧).
١٠- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٣، ص ١٧٥.
١١- - انظر:ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ١٩٨.

وقال تعالى﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾[1]، والمعنى: (مِنْهُمْ رُشْدا)، أي: اهتداء إلى ضبط الأموال وحسن التصرف فيها، وقيل: صلاحا في دينهم وحفظا لأموالهم ...، وقيل: الرشد بالضم، في أمور الدنيا والأخرة، وبالفتح في الآخرة لا غير[2].

والإرشاد: سلوك فكري ونفسي وعملي يوافق الحق والصواب، لذلك مدح الله تعالى الصحابة – رضي الله عنهم - الذين ثبتوا على طريق الحق، وأحبوا الإيمان، وكرهوا الفسوق والعصيان، أنهم راشدون، فبرشدهم أرشدوا الناس إلى طريق الرشاد[3].

سابعا: الوعظ.

قال المولى الكريم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[4]، ونهى الله تعالى رسوله نوحا – عليه السلام – بأسلوب الوعظ ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[5]، وأمر الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يَعِظ المنافقين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[6]، قال القرطبي: " (عِظْهُمْ) أي: خوفهم "[7].

"لا معنى للوعظ إلا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان اللّه تعالى، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير اللّه ... فالحاصل: أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي "[8]، وعُرِّف الوعظ بأنه "الأمر بفعل الخير، وترك الشر، بطريقة فيها تخويف وترقيق، يحملان على الامتثال"[9].

١- سورة النساء، ج ٤، آية ٦.
٢- الألوسي، شهاب الدين، محمود بن عبد الله الحسيني، (ت ١٢٧٠هـ)، **روح المعاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١٤١٥ هـ، ج ١٢، ص ٤١٥.
٣- انظر: الميداني، **فقه الدعوة إلى الله**، ج ١، ص ٢٠.
٤- سورة النحل، ج ١٤، آية (١٢٥).
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (٤٦).
٦- سورة النساء، ج ٥، آية (٦٣).
٧- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٥، ص ٢٦٥.
٨- الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٢٦٨- ٢٦٩.
٩- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٤، ص ١٧٥.

ثامنا: الإصلاح.

قال الله تعالى على لسان سيدنا موسى- عليه السلام - آمرا سيدنا هارون- عليه السلام - عندما ذهب للمناجاة:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1]، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [2]، " ومعنى {اخْلُفْنِي} كن خَلَفًا عني والخليفة: هو الذي يتولى عمل غيره عند فقده، فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلِف، فالخلافة: وكالة، وفعل (خَلَفَ) مشتق من (الخَلْف) بسكون اللام، وهو ضد الأمام؛ لأن الخليفة يقوم بعمل مَن خَلْفَه عند غَيبته، والغائب يجعل مكانه وراءه، وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة، بقوله: { وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره"[3].

قال الزُحيّلي: " بيّن تعالى عدله وسنّته في المصلحين، فقال تعالى: (وَما كانَ رَبُّكَ) أي: ليس من شأن اللّه تعالى أن يهلك أهل القرى ظالما لها، وأهلها قوم مصلحون، تنزيها لذاته تعالى عن الظّلم، وإيذانا بأن إهلاك المصلحين من الظّلم، وقيل الظّلم: الشّرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم، أو في أمورهم الاجتماعية، يتعاطون الحقّ فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فسادا آخر، أي: لا ينزل عذاب الاستئصال لأجل كون القوم مجرّد كونهم معتقدين للشّرك والكفر، بل إنما ينزل العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظّلم، كما فعل قوم شعيب، وقوم هود، وقوم فرعون، وقوم لوط، ويؤيده أنّ الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظّلم " [4].

تاسعا: الدلالة.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [5] ، "الدلالة: الإرشاد إلى شيء مطلوب غير ظاهر لطالبه "[6].

١- سورة الأعراف، ج ٩، اية (١٤٢) .
٢- سورة هود، ج ١٢، اية (١١٧) .
٣ - انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨ ، ص ٢٧١.
٤- الزحيلي، وهبة بن مصطفى،(ت ١٤٣٦هـ)، **التفسيرالمنير**، دار الفكر – دمشق، ط ٢ – ١٤١٨ هـ ، ج ١٢ ، ص ١٧٨.
٥ - سورة الصف، ج ٢٨ ، اية (١٠) .
٦ – ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٦، ص ١٩٦ .

" أي: يا أيها الذين صدّقوا بالله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ألا أرشدكم إلى تجارة نافعة رابحة، تحققون بها النجاح والنجاة من العذاب الشديد المؤلم يوم القيامة، وهذا أسلوب فيه ترغيب وتشويق، وقد جعل العمل الصالح لنيل الثواب العظيم بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار"[1].

وعن أنس بن مالك قال:" أتى النّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - رجلٌ يستحمله فلم يجد عنده ما يتحمله، فدلّه على آخر فحمله، فأتى النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فأخبره، فقال: (الدال على الخير كفاعله)"[2]، ومعنى الحديث: (إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ) لإعانته عليه، فإن حصل ذلك الخير فله مثل ثوابه، وإلا فله ثواب دلالته[3] .

عاشرا: البيان.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4]، وقال تعالى:﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ٥ ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [6] ، قال الجرجاني: "البيان: عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع"[7]، قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ): " قيل لهم : بالله لتُبيِّنُنه { لِلنَّاسِ } وتُظْهِرُنّ جميعَ ما فيه من الأحكام والأخبارِ التي من جملتها أمرُ نبوتِه- عليه الصلاة والسلام وهو المقصودُ بالحكاية[8].

---

١ - الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٢٨، ص ١٧٦ .

٢- الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ، (ت٢٧٩هـ)، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، تحقيق احمد شاكر، دار احياء التراث العربي – بيروت، كتاب العلم ، باب: الدال على الخير كفاعله ، حديث (٢٦٧٠)، ج ٥، ص ٤١، قال الترمذي : حديث غريب، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ٢١٦، وقال:" حديث حسن صحيح".

٣ - انظر، المناوي، زين الدين عبد الرؤوف،(ت١٠٣١ هـ)، **التيسير شرح الجامع الصغير**، دار الامام الشافعي - الرياض، ط ٢ – ١٤٠٨ هـ ، ج ٢، ص ١٨ .

٤- سورة البقرة، ج ٢، آية (١٦٠).

٥ - سورة آل عمران ، ج٣ ، آية (١٣٨) .

٦ - سورة آل عمران، ج ٤، آية (١٨٧).

٧- الجرجاني، **التعريفات**، ج ١، ص ٦٧ .

٨ - أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، (ت ٩٨٢ هـ)، **إرشاد العقل السليم** ، تحقيق: محمد الحلاق دار الفكر - بيروت، ط ١ - ١٤٢١هـ ، ج ٣، ص ١٩٥.

فالمسلم يبين لإخوانه ما خُفيَ عليهم في أمور دينهم، دون أن يكتم منه شيئا، وحتى إن كان السؤال ممن آذاه ،كما فعل سيدنا يوسف – عليه السلام – عندما سئل عن رؤيا الملك ، فإنه لم يتردد ولم يسألهم أن يخرجوه من السجن بل قَالَ للسائل: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]، فقد عبّر وفسّر ودبّر، فالداعي لا يكتم لأجل أشياء دنيوية، بل يبين الشرع محتسبا محسنا يبتغي الأجر من الله عز وجل.

١- سورة يوسف ، ج ١٢، الآيات (٤٧ - ٤٩) .

المبحث الثاني: فضل الدعوة وبيان أهميتها.

المطلب الأول: فضل الدعوة إلى الله.

عندما يعرف الإنسان ما له من الأجر والثواب يسهل عليه دفع الثمن، وإن كان باهظا، فالدعوة إلى الله فضائلها كثيرة جمّة، وأدلتها مبثوثة في كتاب الله والسنة، وهذا دليل على عظمتها وأهميتها.

فالعلم بالفضائل يُعِين الدّعاة، والمصلحين، والمعلمين، على شحذ الهمم، والعطاء والإصلاح والتعليم؛ للوصول لأعلى المراتب، وليرتقوا بهذه الأمة، شبابها وفتياتها، رجالها ونساؤها، كبارها وصغارها إلى أعلى القمم.

وقد أشار الشيخ سلطان بن عبد الله العَمْري في بعض كتاباته إلى أدلة فضل الدعوة[1] ، وزاد الباحث ما تيسر له، وهذه جملة من الأدلة على فضل الدعوة إلى الله تعالى:

الفضيلة الأولى: أنها مَهَمة الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2]
وقال تعالى لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم- بعد أن ذكر الله تعالى تسعة عشر نبيا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[3]، قال ابن كثير: "ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - :{ أُولَئِكَ } يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه {الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرا للرسول - صلى الله عليه وسلم- فأمته تَبَعٌ له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به " [3].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[5] ، "يقول الله تعالى لعبده ورسوله آمرًا له أن يخبر الناس: إن هذه سبيله، أي : طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكلُّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي " [6].

١- موقع على الشبكة العنكبوتية، قناة **(معرفة الله)** ، **(knowingallah.com).**
٢- سورة الأنبياء، ج١٧، اية (٢٥)
٣- سورة الأنعام، ج٧، آية (٩٠)
٤- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي، (ت ٧٧٤ هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢- ١٤٢٠ هـ، ج٣، ص٢٩٩.
٥- سورة يوسف، ج١٣، آية (١٠٨).
٦- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٤٢٢.

فهذه الآية تدل على أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- مأمور من الله تعالى أن يقتدي بهؤلاء الرسل العِظام في دعوتهم وطريقهم ومنهجهم، وبالتالي فهذه الأمة مأمورة باتباع نبيها- صلى الله عليه وسلم- في دعوته ومنهجه وطريقته وسننه، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [1].

الفضيلة الثانية: إن الدعوة إلى الله تعالى سبب لنيل رحمة الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [2]، وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم - "لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ" [3]

الفضيلة الثالثة: إن الدعوة إلى الله تعالى سبب للفوز بخيرية الأمة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [4]، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: "أنتُم تُتِمّونَ سَبعِينَ أُمّة، أنتُم خَيرُها وأكرَمُها على الله " [5]، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ : خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ "[6]، والتقدير على هذا: "كنتم للناس خير أمة" [7]، وفي قوله تعالى: (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)، " مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على

١- سورة الأحزاب، ج٢١ ، اية (٢١).
٢- سورة التوبة، ج ١٠، آية(٧١).
٣- البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب (التوحيد)، باب قوله تعالى (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ). حديث (٧٣٧٦) ، ج ٩ ، ص ١٤١.
٤- سورة آل عمران، ج ٤، آية(١١٠).
٥- الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب (تفسير القران) باب: ومن سورة آل عمران . حديث (٣٠٠١)، ج ٥ ، ص ٢٢٦، قال الترمذي: حديث حسن ، وحكم عليه الألباني بأنه حسن، انظر، التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، (ت ٧٤١ هـ)، **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤٠٥ هـ ، المكتب الإسلامي - بيروت، ج٣، ص ٣٧٣، حديث رقم: (٦٢٨٥).
٦- البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب (التفسير)، باب (كنتم خير امة أخرجت للناس)، حديث (٤٥٥٧) ، ج ٦، ص ٤٧.
٧- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج(٨)، ص٣٢٥.

المنكر، زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم"[1].

الفضيلة الرابعة: أنها سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]. فالدّعاة إلى الخيرات وترك المنكرات، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم أصحاب الفلاح والنجاح والفوز في جمع أمور دنياهم وآخرتهم، فالآية لم تحدد نوع الفلاح، فدل هذا على تعميم الفلاح في كل الامور، فهنيئا لِمَن دعا وأمر ونهى.

الفضيلة الخامسة: الدعوة إلى الله تعالى تكون سببا في الثبات على الدين.

ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[3]، فالدعوة إلى الله تعالى هي نصرة للدين والإيمان، وثمرة هذه النصرة، الثبات على الدين في كل المواقف التي تواجه الداعي، جزاء له على جهوده الدعوية.

ومما يستأنس به في هذا المقام، قصص الدّعاة والعلماء الذين ثبّتهم الله تعالى في مواقف كثيرة، ومن هذه المواقف ، موقف سيدنا يوسف - عليه السلام - في ثباته من الوقوع في الزلل عندما دعته امرأة العزيز للفاحشة، قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[4]، والجدير في هذا المقام، ذكر بعض المواقف للعلماء الأجلاء، الذين وقفوا في وجه الفتن دعاةً إلى الله تعالى، حافظين للدين وهيبته، ويكتفي الباحث بذكر موقفَين عظيمين:

الموقف الأول: ثبات الإمام أحمد بن حنبل في زمن فتنة القول خلق القرآن[5].

الموقف الثاني: ثبات الإمام العز بن عبد السلام مع الحاكم إسماعيل في دمشق، وذلك عندما أراد الصالح إسماعيل قتال ابن أخيه نجم الدين أيوب، وكان الأخير حاكما بمصر، وقد كان إسماعيل تحالف مع الفرنجة لقتال ابن أخيه وسلمهم بعض الحصون كحمص، فقام الشيخ العز وأنكر عليه وحرّض الناس عليه، فقام إسماعيل - وكان حاكما في دمشق - بعزله وسجنه.

---

١ - القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج(٤)، ص١٧٣.
٢ - سورة آل عمران، ج ٤، الآية (١٠٤) .
٣ - سورة محمد –صلى الله عليه وسلم- ج(٢٦)، اية(٧) .
٤- سورة يوسف ، ج ١٢، آية (٢٤).
٥ - أبو الفضل، صالح أحمد بن حنبل أبو الفضل،(ت ٢٦٥هـ) ، **سيرة الإمام ابن حنبل** ، تحقيق : الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد دار الدعوة - الاسكندرية ، ط - ١٤٠٤هـ ، ج ١، ص ٥١ - ١٢١.

وبعد إطلاق سراحه، انتقل العز إلى بيت المقدس وأقام فيه مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية، فأرسل الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ، وقال له : تلطف به غاية التلطف، وأخبره بالرجوع إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك دخلت به عليّ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مراودته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال له: والله يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا أن أقبل يده، يا قوم: أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له: قد رسم لي إن لم توافق على ما يُطلب منك، وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان .

وكان الشيخ يقرأ القرآن، والسلطان يسمعه، فقال يوما لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن، قالوا: نعم، قال: هذا أكبر قساوسة المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، فعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم، فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها[1].

ولله در المتنبي حيث قال:

" ومن يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام "[2].

فهذه ثمرة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعا إلى دين الله وطاعته، ولم يخش في الله لومة لائم، ولم يحسب حسابا للعواقب الدنيوية، بل جُلُّ همّه مصروف في إرضاء ربه، وإقامة الحق والخير لأمته.

---

١ – انظر: السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، (ت٧٧١ هـ)، **طبقات الشافعية**، تحقيق د. محمود الطناجي ، دار هجر، ج(٨)، ص٢٤٣ .

٢ - المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي (٣٥٤ هـ) ، **ديوان أبي الطيب المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص١٦٤.

الفضيلة السادسة: الدعوة إلى الله طريق التزكية والتهذيب للنفوس.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، من تمام منّة الله تعالى أنه بعث إلينا محمدا- صلى الله عليه وسلم -؛ يعلم القرآن والسنة، ويطهر النفوس من كل رذيلة وخطيئة، قال أبو السعود: " { لَقَدْ مَنَّ الله } جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: والله لقد منّ الله، أي: أنعم { عَلَى المؤمنين }، أي: من قومه -عليه السلام - { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْ أَنفُسِهِمْ }، أي: من نسبَهم، أو من جنسهم، عربياً مثلَهم؛ ليفقهوا كلامَه بسهولة؛ ليكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانةِ، مفتخرين به، وفي ذلك شرف لهم عظيم... وقوله تعالى: { يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته}، صفةٌ أخرى، أي: يتلو عليهم القرآنَ بعد ما كانوا أهلَ جاهليةٍ لم يطرُق أسماعَهم شيءٌ من الوحي، { وَيُزَكّيهِمْ } عطفٌ على يتلو، أي: يطهرهم من دنس الطبائع وسوءِ العقائدِ وأوضار[2] الأوزار، { وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة }، أي: القرآنَ والسنة، وهي صفةٌ أخرى للرسول، مترتبةٌ في الوجود على التلاوة، وإنما وُسِّط بينهما التزكيةُ التي هي عبارةٌ عن تكميل النفس بحسَب القوةِ العلميةِ، وتهذيبها المتفرِّعَ على تكميلها بحسَب القوةِ النظريةِ، الحاصلِ بالتعليم المترتبِ على التلاوة، للإيذان بأن كلَّ واحدٍ من الأمور المترتبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالها، مستوجبةٌ للشكر"[3].

إذن: فالدعوة إلى الله تعالى هي طريقة تزكية النفوس من العيوب والنقائص والرذائل الدسيسة؛ لأن الداعي لا يدعو بكلامه وحسب، بل يدعو بلسان حاله، ودعوة لسان الحال أقوى من دعوة لسان المقال، فهذا الأمر يدفع الداعي أن يكون محافظا على أخلاقه، وتزكيته لنفسه، فتزكية النفس بحد ذاتها دعوة.

الفضيلة السابعة: الدعوة إلى الله أفضل الأعمال وأحسن الاقوال.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4]، قال السعدي: "هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسن قولا، أي: كلامًا وطريقة، وحالة { مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ } بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه.

---

١ - سورة آل عمران ، ج ٤، الآية (١٦٤) .
٢ - **الأوضار**: الوضر هو الدرن الدسم والوسخ . انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٥، ص ٢٨٤.
٣ – أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج ٢، ص ١٧١ .
٤- سورة فصلت، ج(٢٤)، آية (٣٣)

ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

وقوله تعالى: { وَعَمِلَ صَالِحًا } أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه. { وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصّدّيقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، فحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل"[1].

الفضيلة الثامنة : الدعوة إلى الله تُنْجي من الخسارة التي ذكرها الله تعالى في سورة العصر.

قال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [2].

قال ابن القيم :" فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: (وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)، أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كَمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة

---

١ - السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت١٣٧٦هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١- ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ج١ ، ص٧٤٩.

٢- سورة العصر، ج ٣٠، الآيات (١- ٣).

والطريقة والأذواق الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته " [1].

الفضيلة التاسعة: الدعوة إلى الله سبب لزيادة الحسنات ورفع الدرجات.

قال تعالى:﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[2]، "عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم " [3]، قال عليه الصلاة والسلام " سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ"[4].

إن تعليم العلم والدعوة إليه، ينفع العبد في قبره، وقد يحتاج الإنسان إلى حسنة واحدة تنجيه وترفع درجاته في أعالي الجنان، فلعل هذه الحسنة تكون من علم يعلمه، أو كلمة يبلغها، أو نصيحة يتكلم بها،﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ ﴾[5].

الفضيلة العاشرة: الدعوة إلى الله تعالى نوع من الإحسان.

قال تعالى: ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[6]، فليس الإحسان مقتصرا على إطعام الطعام وشراء اللباس، بل أيضا إطعام القلوب وكسوة النفوس بالتزكية والإيمان من تمام الإحسان.

١- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت٧٥١ هـ)، **مدارج السالكين**، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م ، ج ١، ص ٦ - ٧ .

٢- سورة المجادلة، ج ٢٨، آية (١١).

٣ - السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١ هـ)، **الدر المنثور في تفسير بالمأثور**، المحقق: مركز هجر للبحوث ، الناشر: دار هجر - مصر ط - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ج ١٤ ، ص ٣٢٣.

٤ - البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو، (ت ٢٩٢هـ) ، **البحر الزخار**، تحقيق محفوظ زين الله، مكتبة العلوم والحكم، ط(١)، ٢٠٠٩م، حديث(٧٢٨٩) ج(١٣)، ص٤٨٣.أورده الألباني في كتاب **صحيح وضعيف الجامع الصغير**، وقال:" حديث حسن"، حديث(٥٩١٥) ج ١٣، ص ٢٨٧.

٥- سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - ج ٢٦، آية (٣٨).

٦ - سورة البقرة، ج ٢، آية (١٩٥).

الفضيلة الحادية عشر: ثناء الله تعالى على الداعي معلم الخير، واستغفار الملائكة والمخلوقات له، وارتقاء شرف معلم الخير إلى شرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم- من أجّل فضائل الدعوة.

قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٦]، "ومعنى الدعاء إلى الخير: الدعاء إلى الإسلام، وبث دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإن الخير: اسم يجمع خصال الإسلام"[١].

فعن أبي أمامة الباهلي- رضي الله عنه - قال: "ذُكِرَ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ"[٢].

فالآية أمرت بالدعوة إلى الخير، وأثنى الحديث على من حمل لواء الخير وأعلى رايته خفاقة على الشر وأعوانه.

قال الزحيلي: " (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ)، أي: بالرحمة، (وَمَلَائِكَتُهُ)، بالاستغفار لكم، والاهتمام بما يصلحكم، والمراد بالصلاة المشتركة بين الله وملائكته: هو العناية بصلاح أمركم، وظهور شرفكم ورفعة شأنكم " [٤].

وقال المبارك فوري: (فَضْلُ الْعَالِمِ) بالعلوم الشرعية مع القيام بفرائض العبودية، (عَلَى الْعَابِدِ) أي: على المتجرد للعبادة بعد تحصيل قدر الفرض من العلوم، (كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، أي: نسبة شرف العالم إلى العابد، كنسبة شرف الرسول إلى أدنى شرف الصحابة [٤].

الفضيلة الثانية عشر: مَن دعا إلى الله تعالى، أصابته دعوة النبي – عليه الصلاة والسلام - بنضارة الوجه وحسنه يوم القيامة.

قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [٥]،

١- سورة آل عمران، ج ٤، آية (١٠٤).
٢ - ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣، ص ١٨١.
٣- الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب (العلم)، باب (الفقه أفضل من العبادة)، حديث (٢٦٨٥)، ج٥ ، ص٥٠، قال الترمذي: حديث غريب، وقد حسنه الألباني في **مشكاة المصابيح**، ج ١، ص ٤٦، حديث رقم (٢١٣).
٣- الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٢٢ ، ص٤٠ .
٤- انظر : المبارك فوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم أبو العلا، (ت ١٣٥٢هـ)، **تحفة الاحوزي**، دار مصطفى الباز، ط(١)، (٢٠٠٤)م،ج ٩ ، ص ٢٩٨٩ .
٥- سورة الأحزاب، ج ٢٢، آية(٣٩) .

فمن تبليغ رسالة الله تبليغ حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه"[1]، " نضّر الله وجهه: حسنه ونوّره " [2].

الفضيلة الثالثة عشر: مَن مات وهو يعمل في الدعوة إلى الله مات شهيدا، وارتقى إلى منازل الشهداء.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [3]، أي: جاهدوا الكفار فينا، أي: في طلب مرضاتنا، وليس الجهاد هو قتال الكفار فحسب، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر[4]، فالذي يدعو إلى الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون هذا ديدنه وميدانه، فحياته ومماته في سبيل الله، حياته جهاد، ومماته شهادة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- "مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ :مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ " [5].

الفضيلة الرابعة عشر: الدعوة سبب لكتابة الأعمال في صحيفة العبد حسنة أو سيئة.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ [6]، وقال تعالى:﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [7]، والتقدير: ويحملوا أوزارا ناشئة عن أوزار الذين يضلونهم، أي: ناشئة لهم عن تسببهم في ضلال المضللين، فتسببهم في الضلال يقتضي مساواة المُضِل للضال في جريمة الضلال [8].

١- الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب (العلم)، باب (ما جاء في تبليغ السماع)، حديث (٢٦٥٦)، ج(٥)، ص٣٣ ، قال الترمذي: حديث حسن، و صححه الألباني ، **السلسلة الصحيحة**، ١ / ٦٨٩.
٢- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج(٥)، ص٣٥٢.
٣ - سورة العنكبوت، ج ٢١، آية (٦٩).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القران**، ج ١٣، ص ٣٦٤ - ٣٦٥
٥ - أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب: بيان الشهداء، حديث (٥٠٥٠)،ج ٦، ص٥١.
٦ - سورة سبأ، ج ٢٢، آية (٣٣).
٧ - سورة النحل، ج ١٤، آية(٢٥).
٨ - انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٢، ص ١٠٧.

وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" [1]، قال النووي:" قوله - صلى الله عليه وسلم -:(مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَام سُنَّة حَسَنَة...) إلى آخِره، وفيه: الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات "[2].

الفضيلة الخامسة عشر: إن الدعوة إلى الله نوع من الجهاد في سبيل الله تعالى.

فالداعي كالمجاهد في سبيل الله الذي ينشر الإسلام بسيفه، يقول تعالى:﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[3] ، قال التهانوي: " الجهاد : غلب في عرف الشرع على جهاد الكفار: و هو دعوتهم إلى الدين الحقّ، وقتالهم إن لم يقبلوا "[4]، وقال ابن عاشور: النهي مستعمل في التحذير والتذكير، وفعل {تُطِعِ} في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة، والطاعة: عمل المرء بما يطلب منه، أي: فلا تهن في الدعوة رَعْيا لرغبتهم أن تلين لهم، وبعد أن حذره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها، وعبّر عن ذلك بالجهاد، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة، والوصف بالجهاد الكبير؛ لأنه جامع لكل مجاهدة،.... وضمير {بِهِ} عائد إلى غير مذكور: فإما أن يعود إلى القرآن؛ لأنه مفهوم من مقام النذارة، وإما أن يعود إلى المفهوم من {لا تُطِعِ} وهو الثبات على دعوته بأن يعصيهم، فإن النهي عن الشيء أمر بضده "[5].

قال ابن القيم: إن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم- أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمَن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله، وهو على بصيرة، وهو من اتباعه، ومَن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو على بصيرة ولا هو من اتباعه، فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين واتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ ما أُنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المُبَلِّغون عنه من

---

١ - أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة، ج ٣، ص ٨٦، حديث(٢٣٩٨).

٢- النووي، يحيى بن شرف ابو زكريا، (ت٦٧٦هـ)، **المنهاج في شرح، صحيح مسلم بن الحجاج**، دار التراث العربي، لبنان، ط(٢)، ١٣٩٢هـ ، ج(٣)، ص٤٦١.

٣- سورة الفرقان، ج ١٩، اية (٥٢) .

٤- التهانوي، محمد علي، (ت ١١٥٨ هـ)، **كشاف اصلاحات الفنون والعلوم** ، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦ م ، ج ١ ، ص ١٠١٣ .

٥- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩ ، ص ٧٤ – ٧٥ .

أمته، لهم من حفظ الله وعصمته اياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لِمَن بلّغ عنه ولو حديثا، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم [١] .

وعلى هذا فالجهاد لا يقتصر على محاربة الأعداء، بل الجهاد أعم وأشمل، فالذي ينفق ماله لنشر الدين، مجاهد، والذي يُحْيّ السنن المهجورة في زمن الغربة، مجاهد، وما شُرع القتال إلا لحماية الدعوة، فالنبي - عليه أفضل الصلاة والتسليم – قَبِلَ أن يُوقِف القتال عشر سنوات في صلح الحديبية [٢]، ولكن ما رَضِيَ أن تقف الدعوة دقيقة واحدة عندما راوده أهل مكة على ترك دعوته [٣]، فالدعوة أصل والقتال فرع.

الفضيلة السادسة عشر: الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر المتمثل في الدعوة إلى الله في هذا الزمان له أجر خمسين صحابيا.

وذلك لقوله تعالى:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [٤] ،" يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم " [٥] ويشهد لذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما سُئل عن تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [٦]، قال: " بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ - يَعْنِي بِنَفْسِكَ - وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ ، وفي رواية، قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ" [٧] .

---

١ – انظر: ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت٧٥١ هـ)، **جلاء الافهام في فضل الصلاة على محمد خير الانام**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار العروبة – الكويت، ١٤٠٧هـ ، ج ١، ص ٤١٥ .

٢ - (وكان الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين)، انظر: الحلبي، علي بن برهان الدين الحلبي ، (ت١٠٤٤ هـ)، **السيرة الحلبية**، دار المعرفة - بيروت، ط ١٤٠٠هـ ، ج ٢، ص ٧٠٨.

٣- (فقال له يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى، أو أهلك فيه، ما تركته.) **المرجع السابق**، ج ١، ص ٤٦٢. تعليق الألباني: (ضعيف)، السلسلة الضعيفة، ج٢، ص٤١٠.

٤- سورة التوبة، ج ١١، آية (١٠٠).

٥- ابن كثير، **تفسير القران العظيم**، ج ٤، ص ٢٠٣.

٦- سورة المائدة، ج ٧، آية (١٠٥).

٧ - أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب (الملاحم)، باب (الأمر والنهي)، حديث (٤٣٤١)، ج ١، ص ٧٧٧، ضعفه الألباني في تحقيق كتاب (**سنن أبي داود**)، وقال: ولبعض فقره شواهد، لكن فقرة أيام الصبر ثابتة ، ج ٩، ص٣٤١ .

تدل هذه الآية الكريمة والحديث الشريف على فضل الأمر بالمعروف والثبات عليه، والنهي عن المنكر والبعد عنه، فمع غربة هذا الزمان، وقلة المُعِينين على الدّين والبيان، كما حدث مع الصحابة في بداية الإسلام، حدث مع هؤلاء في آخر الزمان، فنالوا هذا الأجر العظيم، والجزاء الجزيل؛ لعملهم كعمل الصحابة الكرام، مع بقاء مكانة الصحابة التي لا يصلها أحد من الخلق، يقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- : "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ" [١].

ولكن فضل الثبات في زمن الغربة، هو الذي أوصلهم لهذه الدرجة، يقول النبي – صلى الله عليه وسلم - :" بَدَأَ الإِسْلاَم غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبى لِلْغُرَبَاءِ" [٢].

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب (فضائل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم-)، باب (مناقب أبي بكر –رضي الله عنه-)، حديث(٣٦٧٣)، ج(٥)، ص١٠.
٢ - أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب: (بيان أن الإسلام دبأ غريبا وسيعود غريبا)، حديث (٣٨٩)، ج(١)، ص٩٠.

المطلب الثاني : الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم.

اتفق العلماء أن الدعوة إلى الله تعالى من الفرائض الواجبة على المسلمين، وذلك لأدلة اعتمدوا عليها من الكتاب والسنة، منها:

أ- قوله تعالى:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1]. قال ابن كثير- رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) " أي: منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة" [2].

ب- عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه- قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقولُ: "مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ " [3]. ووجه الاستدلال أن لفظ (مَن) مِن ألفاظ العموم عند أهل الأصول [4].

ج- من الناحية العقلية، أن هذا الدين نُقِلَ إلينا بالتواتر من جيل إلى جيل، من الصحابة إلى التابعين، ومن التابعين إلى تابعيهم، حتى وصل إلينا - والحمد لله-، فكيف يصل إلى الجيل الذي بعدنا إذا توقفت الدعوة؟ إذن: فالدعوة واجبة على كل من اعتنق الدين، وقال: إنني من المسلمين.

وقد اختلف العلماء في نوعية الفرض الدعوي، إذ إنهم اتفقوا على أن الدعوة إلى الله من واجبات المسلم، ولكن اختلفوا في نوعية هذا الفرض، هل هو من فروض الكفاية، أم من الفروض العينية؟

ينبني هذا الخلاف على الحال الذي تعيشه الأمة، فإن كانت في قوة ومنعة، والدين قائم مستقيم، حكمنا على الدعوة أنها فرض كفاية، وإن كانت على غير ذلك ، تعلق فرض الدعوة في ذمة كل مسلم قادر على أداء هذا الفرض، فإن عجز وجب عليه حث القادر، فإن تقاعس القادر، وتخاذل العاجز، أثم الجميع [5] .

١- سورة آل عمران، ج٤، الآية (١٠٤).
٢- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص٩١.
٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب (الايمان)، باب (كون النهي عن المنكر من الإيمان) حديث (١٨٦)، ج(١)، ص ٥٠.
٤- انظر: أبا يعلى(القاضي)، محمد بن الحسين (ابن الفداء)، (ت ٤٥٨هـ)، **العدة في أصول الفقه**، تحقيق د. أحمد المباركي، ط(٢)، ١٤١٠هـ، ج(٢)، ص٥٢٢. ينظر: زيدان، عبد الكريم زيدان، (ت ١٤٣٥ هـ)، **الوجيز في أصول الفقه**، مؤسسة الرسالة، ط ١ - ١٤٣١ هـ ، ص٢٤٣.
٥ - انظر: زيدان، **الوجيز في أصول الفقه**، ص ٣٢.

قال الشافعي بعد أن ذكر طائفة من آيات الجهاد في سبيل الله، قال: "وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به المسلمون مَن فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم، ولو ضيعوه معا خفت أن لا يخرج واحد منهم مُطيق فيه من المأثم "[1].

والناظر في الخلاف بين القائلين بفرض العين أو بفرض الكفاية، يجد قواسم مشتركة بين الفريقين، تُقرب وجهات النظر، وهي على النحو الاتي:

١- اتفاق الفريقين على أصل الوجوب.

٢- القائلون بالفرض العيني، قيّدوا أمر الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاستطاعة، فإن لم يستطع فِعْل هذا الفرض بسبب أعذار شرعية مقبولة، فلا أثم عليه [2].

٣ - القائلون بفرض الكفاية، قالوا: إن لم تتحقق الكفاية ويتم شأنها، فإن فرض الكفاية يرتقي لدرجة الفرض العيني، ومن ثمّ إن لم يقم المستطيعون بهذا الفرض الكفائي، سيأثم الجميع؛ لأنه أصبح في حقهم فرض عين [3].

الخلاصة: إن الدعوة إلى الله تعالى من أوامر الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ووظيفة كل من وحّد الله تعالى، وصدّق بالكتاب والمرسلين، حتى يكون سببا في نشر وتعليم ما يعتقد ويَعْبد، ولأن أصناف الناس يزدادون وينتشرون، فمن الصعب أن يصل حكم الدعوة إلى الكفاية بسبب الأعداد الهائلة من المدعوّين، سواء كان المدعو كافرا فيُسلم، أو مسلما فيُعَلّم، وأيضا حال الأمة المرير، وسيطرة الكفر على أراضي المسلمين وعقولهم بشكل يدمي القلب ويحزنه، فهم لا يَرْقُبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة ولا شيئا من قطمير.

---

١ - الشافعي، محمد بن ادريس،(ت٢٠٤هـ)، **الرسالة**، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية - لبنان، ص ٣٦٦.

٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٤، ص ٤٨. قال: (أجمع المسلمون على أن تغيير المنكر واجب على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فيقلبه ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. والأحاديث عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في تأكيد الامر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة).

٣ - قال ابن الصلاح: (وأما تعليم الزوج ما يجب عليها تعلمه من الفرائض فهو واجب عليه وعلى غيره ممن يتمكن من تعليمها فرضا على الكفاية، فإذا لم يقم به غيره ولم يقم هو به أثم وأثموا، ويتعين عليه الوجوب في تعليمها الواجبات التي يحتاج تعليمها إلى سماع صوتها كالفاتحة وغيرها إذا لم يوجد لها مَحْرم ولا امرأة تتمكن من تعليمها فذلك يخصه الوجود منه ذهابا إلى أن غير المَحْرم والمرأة لا يجوز لها تعليمها والوجهان فيما إذا أصدقها تعليم سورة ثم طلقها قبل التعليم). ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوي، أبو عمرو، (ت ٦٤٣هـ)، **أدب المفتي والمستفتي**، تحقيق : د. موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤٠٧هـ ، ج ١، ص ١٤٥.

لهذا فالدعوة على كل: العلماء، والخطباء، والأئمة، والمعلمين، والعاملين، والآباء، والأمهات، والطلاب، والرجال والنساء، القادر والعاجز، الغني والفقير، الكبير والصغير، ويجب أن تحمل كل طبقات المجتمع مسؤولية دينها وتبليغه، وإقامته وتطبيقه، حتى تنهض الأمة، ويعود مجدها، ويحفظ تاريخها بإذن الله.

المطلب الثالث : آثار الدعوة إلى الله:

الأعمال الصالحة لها أثر في الدنيا والآخرة، فصلاة الجماعة لها أثر في اجتماع الناس في المسجد، ولها أثرها في الآخرة برفع الدرجات في الجنة، والصيام له أثر في تطهير النفس وتزكيتها، وكذلك بدخول الجنة من باب الريان، وهكذا...

وكلما زاد أثر العمل وثمرته، ازداد شرفه وقدره، فالدعوة إلى الله تعالى آثارها متعددة، ومتعدية إلى الداعي والمدعو، فأثرها في الداعي بالترسيخ والتمكين، وفي المدعو في التطهير والترفيع، وعلى هذا فإن البحث سيتطرق إلى أثر الدعوة من ثلاثة جوانب على النحو الآتي:

الأثر الأول: أثر الدعوة على الداعي.

الأثر الثاني: أثر الدعوة على المدعو.

الأثر الثالث: أثر الدعوة على الأمة.

الأثر الأول: أثر الدعوة على الداعي.

١ - الداعي أكثر الناس إيمانا بالله تعالى؛ لأن من عادة البشر أن لا يتكلم أحد منهم عن شيء إلا وهو مؤمن ومصدق بما يدعو إليه، فالذي يدعو إلى الله هو أكثر الناس إيمانا بالله، وقد نفى الله تعالى عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - أدنى درجات الشرك، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، وكذلك مَن اتبع الرسول الكريم في دعوته

١– سورة يوسف، ج١٣، اية (١٠٨) .

يكون أبعد الناس عن الشرك، وقد وصف الله الداعي أنه على بصيرة، أي: علم ويقين، فيتضح أثر الدعوة على الدعاة بقوة الإيمان ورسوخ اليقين [1].

٢- تزكية نفس الداعي من الرذائل والنقائص، لأن الداعي قدوة، فكيف يدعو إلى ما لا يملك؟ فالدعوة تحمله على تزكية نفسه والارتقاء بها في كل مجالات حياته، ولأن الدعوة ليست بالمقال وحسب، بل هي أيضا بالحال، ودعوة لسان الحال أرسخ من دعوة لسان المقال، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[2]، " كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير-، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على مَن قَصّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنتبهوا من رَقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم؟ "[3].

٣- وصوله إلى درجة المقربين المحسنين المتقين، وذلك لتحصيله على الأجور والفضائل المتعلقة بعمل الدعوة، وقد ذكر الباحث جملة من الأدلة في مطلب فضائل الدعوة.

الأثر الثاني: أثر الدعوة على المدعو.

١- للدعوة أثر على المدعو في تكوين نفسه، بحيث يصبح المدعو إذا استجاب لدعوة الداعي مصقولا حسب دعوته، فإذا دعاه للصلاة صار مصليا، وإلى الذكر أصبح ذاكرا، وإلى الصيام أصبح صائما، وإلى القيام أمسى قائما، وإلى الدعوة كان داعيا إلى دين الله تعالى .

إذن: فالمدعو يتغير حاله بحسب ما يسمع ويُدعَى اليه، إن كان خيرا فخير، وإن شرا فشر.

٢- الدعوة إلى الله تقيم الحجة على المدعو، فليس له عذر أمام الله تعالى، قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[4]، وتُخاطب الملائكة أهل النار وتقول لهم:﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾[5].قال الزحيلي في تفسير قوله تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾[6] ذكرتعالى

١- انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن** ، ج ١٦، ص ٢٩١.
٢- سورة البقرة، ج ١، آية(٤٤).
٣- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٢٤٦.
٤- سورة النساء ، ج ٤ ، اية (١٦٥)
٥- سورة الزمر ، ج ٢٤ ، اية (٧١) .
٦- سورة النساء، ج ٦، آية (١٦٥).

الحكمة من إرسال الرسل وهي إقامة الحجة على الناس، وتبيان طريق الهداية الأسلم، إذ لو لم يرسلوا لاحتج البشر بجهلهم ما يجب عليهم من الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[1]، وقال عز وجل:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، فكان إرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يبقى لمعتذر عذر، ومهمة الرسل: أنهم يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب، وكان الله عزيزا لا يغلبه أحد، حكيما في صنعه وجميع أفعاله، فلا يبقى لأحد اعتراض"[3].

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ "[4].

٢- بالدعوة إلى الله تعالى يَظْهَرُ للداعي في أي صنف المدعو، وذلك لمعرفة نوع الكلام الذي يناسبه، فالكلام يختلف بأصناف المدعوّين، فالكافر الذي ليس عنده علم عن كفره، ليس كالكافر المُلحد المتشبع بالشبهات والشهوات، ودعوة المسلم العاصي الجاهل بربه ودينه، ليس كالمسلم المُصر على الكبائر والصغائر، ويؤثر أيضا قرب المدعو من الداعي أو بعده، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[5].

الأثر الثالث: أثر الدعوة على الأمة الإسلامية:

١- الدعوة إلى الله ظاهرة تعاونية.

جعل الله تعالى الترابط بين المسلمين برابط الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[6]. وقد أمرهم الله تعالى أن يتعاونوا على البر والتقوى ويبتعدوا عن الإعانة

١- سورة طه، ج ١٦، آية(١٣٤).
٢- سورة الإسراء، ج ١٥، آية(١٥).
٣- الزحيلي، **تفسير المنير**، ج ٦، ص٣٦.
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب التوبة، باب (غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش)، حديث (٧١٧٠)، ج ٨، ص ١٠٠.
٥- سورة المائدة ، ج٧، اية (٨٢) .
٦- سورة الحجرات، ج٢٥، آية (١٠) .

على الإثم والعدوان، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [1]. إذن: فالدعوة إلى الدين وإلى نشره وتطبيقه، يحتاج أولاً إلى الاستعانة بالله تعالى، ثم بتنفيذ أمره بالتعاون على إقامة الدين ونشره، فالفرد المسلم لا بد له من إخوة يعلمونه ويعينونه وبحفزونه على طاعة الله تعالى، والمسلم ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، وبخاصته إذا كانت نفسه تتبع هواها، والشيطان قد قيده بأحبله ووساوسه، فالدعوة إلى الله تجعل الأمة مجتمعة غير متفرقة، متحابة غير متنافرة، متعاونة غير منفردة، وهذا من أجمل آثار الدعوة على الأمة المسلمة[2].

٢- فوز الأمة بالشهادة على الأمم يوم القيامة.

فالأمة المحمدية الفاضلة جعلها الله خير الأمم، ومصباح الظُلم ،ونشر الخُلق والشيم، وهذه الفضيلة نالتها الأمة الإسلامية؛ لإنها الآمرة بالخير الناهية عن الشر، يقول المولى عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[3]، والمعنى "إنما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم- عليه السلام- واخترناها لكم؛ لنجعلكم خيار الأمم، ولتكونوا يوم القيامة شُهَداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوَسْط هاهنا: الخيار والأجود "[4].

ويشهد لهذا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ - صلى الله عليه وسلم- وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهْوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)[5].

٣- الدعوة إلى الله وقاية للأمة من الكفر وشروره.

وذلك لأن أهل الكفر ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ [6]، وهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فبقاء الكفر سيؤثر عاجلا أو آجلا في المسلمين، وبخاصته في هذا الزمان المرير، فالوقاية بدعوة المشركين والكافرين، إما لهدايتهم أو للوقاية من

١- سورة المائدة، ج٦ اية (٢)
٢- الميداني، **فقه الدعوة إلى الله**، ج(١)، ص٨٥.
٣- سورة البقرة، ج(٢)، اية (١٤٣).
٤- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج(١)، ص٤٥٤.
٥- البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب (أحاديث الأنبياء)، باب (الأرواح جنود مجندة)، حديث (٣٣٣٩)، ج(٤)، ص١٦٣.
٦- سورة الصف، ج ٢٨، آية(٨).

شرهم، وهذا واجب على بني الإسلام حتى لا تستباح بيضتهم، وتكسر شوكتهم، وتُحفظ أعراضهم وأموالهم [١].

٤- دفع الهلاك والعذاب عن الأمة.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينجي من عقاب الله تعالى ولعنه؛ لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " [٢].

وقد أخبرنا النبي - صلى الله عليه وسلم- عن أنباء بني إسرائيل، فقال: " إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) إِلَى قَوْلِهِ (فَاسِقُونَ)[٣]، ثُمَّ قَالَ :كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا " [٤]، وزاد في رواية" أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" [٥].

فهذا حديث هامّ فيه تحذير شديد، وتهديد ووعيد، لمَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو دعا ثم ترك وشارك العاصي في معصيته، فلا بد من إنكار المنكرات في الحياة التي تحيط بنا، وحياة الناس من حولنا، وإحياء المعروف، وعدم الرضا بأي معصية، قال رسول الله – عليه الصلاة والسلام – " إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِى الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا، وَقَالَ مَرَّةً (أَنْكَرَهَا)، كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا "[٦].

١- انظر: زيدان، عبد الكريم زيدان، (ت ١٤٣٥ هـ)، **أصول الدعوة إلى الله**، مؤسسة الرسالة، ط ١- ٢٠٠٨م، ص٣٠٥.

٢- أخرجه البخاري، **صحيح بخاري**، كتاب (التفسير)، باب (ما ذكر عن بني اسرائيل)، حديث (٣٤٦١)، ج ٤، ص٢٠٧.

٣- سورة المائدة، ج٧، الآيات٧٨-٨١.

٤- أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب (الملاحم)، باب (الأمر والنهي)، حديث (٣٣٣٨)، ج (١)، ص ٧٧٦. وضعفه الألباني: (**صحيح وضعيف أبي داود**)، حديث (٤٣٣٦)، ج ٩، ص ٣٣٦.

٥- أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث (٤٣٣٧)، ج(١)، ص ٧٧٧. وضعفه الألباني في (**صحيح وضعيف أبي داود**)، حديث(٤٣٣٧)، ج ٩، ص ٣٣٧.

٦- أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب (الأمر والنهي)، حديث (٤٣٤٥)، ج ١، ص ٧٧٨. وحسنه الألباني في (مشكاة المصابيح) حديث(٥١٤١).

وحديث آخر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا" [1].

إذن: فلا نجاة إلا بالدعوة، ولا عذر أمام الله إلا بالتبليغ، ألم يقل الله تعالى:﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [2] ، " والمعنى : ولن أجد من دونه ملجأ إلا بلاغا، أي: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به" [3].

١- أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود** ، كتاب الملاحم ،باب (الأمر والنهي)، حديث (٤٣٣٩)، ج ١، ص ٧٧٧ ، وحسنه الألباني، (**صحيح وضعيف أبي داود**)، حديث(٤٣٣٩)، ج ٩، ص ٣٣٩.
٢- سورة الجنّ، ج ٢٩، آية(٢٢ - ٢٣).
٣- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٣٠ ، ص ٦٥٧.
٤

المطلب الرابع: أساليب الدعوة إلى الله تعالى .

تتميز الدعوة إلى الله بأنها مرنة، وتتماشى مع جميع الأشخاص وفي جميع الأوقات، فهي صالحة لكل زمان ومكان؛ لهذا فإن وسائلها كثيرة وأساليبها متعددة.

ويمكن تقسيم هذه الوسائل إلى قسمين، على النحو الآتي:

أولا: الوسائل العملية، منها:

١- السيرة الحسنة.
٢- الجهاد.
٣- الخروج في سبيل الله للدعوة.

ثانيا: الوسائل القولية، منها:
١- الخُطبة.
٢- الدرس.
٣- المناظرة .
٤- الدعوة الفردية.

للدعوة إلى الله تعالى وسائل متعددة، منها:

أولا: الوسائل العملية.

الدعوة إلى الله بالعمل، إما أن تكون لإزالة منكر، كحمل تارك الصلاة على أدائها، أو إحياء معروف، كبناء مسجد، أو نحوه، مما يشجع على الخير ويدفع إليه، وهي الدعوة الصامتة التي تدعو الناس إلى الإسلام وأخلاقه بالعمل والقدوة.

ويمكن تقسيم هذه الدعوة العملية بمجموعة من الوسائل، كالآتي:

١- السيرة الحسنة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [١]، الأسوة: القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي : يُتعزى به، فيُقْتدى به في جميع أفعاله، ويُتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكُسِرت رباعيته، وقتل عمّه حمزة، وماتت زوجه، وجاع بطنه، ولم يكن إلا صابرا محتسبا، وشاكرا راضيا [٢].

عن أبي ذر- رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه و سلم -: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[٣]، فالدعوة العملية بالأخلاق والسلوك الحسن أقوى من دعوة الكلام؛ لأن النفس البشرية جُبلت على التّأثر من الصفات والمعاملة الطيبة، وجُبلت على النفور من صاحب الخُلُق السيء والمعاملة الغليظة، مصداقا لقوله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٤]، أي : (لِنْتَ لَهُمْ) أي: سَهُلتْ لهم أخلاقُك، وكثرةُ احتمالك ولم تسرع إليهم فيما كان منهم يوم أُحد، (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا) يعني: جافيًا سيّء الخلق قليل الاحتمال، (غَلِيظَ الْقَلْبِ) فظًّا في القول غليظ القلب في الفعل، (لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) أي: لنفروا وتفرقوا عنك، (فَاعْفُ عَنْهُمْ) تجاوز عنهم ما أتوا يوم أُحد، (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) حتى أشفعك فيهم، (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْر) أي: استخرج آراءهم وأعلم ما عندهم [٥].

١- سورة الأحزاب، ج ٢١، آية (٢١).

٢- انظر: القرطبي، **جامع لأحكام القرآن**، ١٤، ص ١٥٥.

٣- أخرجه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب البر والصلة ، باب معاشرة الناس، حديث (١٩٨٧)، ج ٤، ص ٣٥٥، وحسنه الألباني في **السلسلة الصحيحة**، ٣ / ٣٦١ .

٤- سورة آل عمران، ج ٤، آية (١٥٩).

٥- البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت٥١٠هـ)، **معالم التنزيل**، تحقيق : محمد عبد الله النمر، دار طيبة ط ٤ - ١٤١٧ هـ، ج ٢ ، ص١٢٤.

وللسيرة الحسنة أصلان أساسيان [1] :

أ- الّا يخالف الداعي قوله فعله.

ب- الأخلاق الحسنة.

فالأصل الأول: مصداقه قوله تعالى:﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[2]، فهذه الآية جاءت تذم من يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينسى نفسه من الخيرات، وقد قال سيدنا شعيب – عليه السلام – عندما دعا قومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [3]، أي: أن النبي شعيبا – عليه السلام – قال لقومه إنه لا يأمرهم بأمر فيعمل بخلافه، فبهذا الأصل تكون دعوة الداعي مؤثرة ومتينة، فمن أخطر الأمور في الدعوة أن يرى المدعو الداعي على خلاف ما يدعوه إليه، قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - : " مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت مَن هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون" [4].

أما الأصل الثاني: وهو الأخلاق وجمالها، فإن الأخلاق لها الحظ الأوفر في هداية الناس، فقد تجلت هذه الأخلاق في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – و حياة أصحابه الكرام، ومن ذلك عندما فتح الرسول – عليه السلام – مكة المكرمة، وبعد أن فعل أهلها ما فعلوا به وأصحابه، من إيذاء، وإخراج، وطرد، وضرب، وقتل، وغير ذلك، قال - عليه الصلاة والسلام - :"ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا: نقول: ابن أخ، وابن عم حليم رحيم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : أقول كما قال يوسف:﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، قال أبو هريرة: فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام" [5].

فالدين قائم على عبادة الحق والإحسان إلى الخلق، فإظهار الدين بأجمل صورة وأحلى حلة هي الدعوة الصامتة التي تفضي إلى هداية الناس.

١- انظر: زيدان، **أصول الدعوة**، ص ٣٦١ – ٣٦٣ .

٢- سورة البقرة، ج ١، آية (٤٤) .

٣- سورة هود، ج ١٢، آية (٨٨) .

٤- أخرجه أحمد، مسند أحمد، باب مسند أنس بن مالك - رضي الله عنه - حديث (١٢٢٣٤).، ج ٣، ص ١٢٠، أورده الألباني في السلسلة الصحيحة ١ / ٥٢٢ .

٥- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، (ت ٤٥٨ هـ) ، دلائل النبوة ، تحقيق د . عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، ط ١ - ١٤٠٨ هـ ، باب فتح مكة ، ج ٥ ، ص ٥٨ . قال العراقي في (تخريج الإحياء) (فيه ضعف) : ج٣ ، ص ١٤٩ .

والقرآن العظيم ذكر قصص الأنبياء التي برزت فيها أخلاقهم مع أقوامهم، ولم يذكر القرآن عبادتهم وشرائعهم؛ لأن الأنبياء- عليهم السلام - دعوتهم واحدة وشرائعهم مختلفة[1].

فأمة محمد – عليه الصلاة السلام – دعوتها كدعوة الأنبياء، لذلك أصّلَ لنا القرآن الكريم أخلاقهم، قال تعالى:﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[2]، " أي: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة، وهذه الأسوة إنما تكون لمَن يطمع في الخير والثواب من الله في الدنيا والآخرة، ويتأمل النجاة في اليوم الآخر، وهذا تهييج إلى الإيمان لكل مؤمن بالله وبالمعاد " [3].

٢- الجهاد.

الجهاد : بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ولإقامة المجتمع الإسلامي الآمن، و يسود شرع الله في الأرض[4] .

ويأتي الجهاد على عدة أنواع، منها [5]:

النوع الأول: جهاد النفس والهوى: قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [6] ، وقال- صلى الله عليه وسلم-:" المجاهد من جاهد نفسه في الله "[7]؛ لأن جهاد النفس وشهواتها هو الأساس في بناء المجاهد، فإذا هُزِمَ أمام نفسه سَيُهزم أمام عدوه.

١- انظر: زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ص ٢٠٩.
٢- سورة الممتحنة ، ج ٢٨، آية (٦) .
٣- الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ٢٨، ص ١٣٠.
٤- انظر: الحصكفي، محمد علاء الدين بن علي، (ت ١٠٨٨هـ) ، **الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، دار الفكر – بيروت ، ١٣٨٦ هـ ، ج ٤ ، ص ١٢١. انظر: القرافي ،شهاب الدين أحمد بن إدريس، (ت ٦٨٤ هـ) ، **الذخيرة**، تحقيق محمد حجي، دار الغرب – بيروت، ط ١٩٩٤ م ، ج ٣، ص ٣٨٣.
٥- انظر: الماوردي ، العلامة أبو الحسن بن إبراهيم بن محرومة، (ت ٤٥٠ هـ) ، **الحاوي في فقه الشافعي**، دار الكتب العلمية، ط ١- ١٤١٤هـ ، ج ١٤، ص ١١١- ص ١١٢، وانظر: د .مصطفى الخن و مصطفى البغا والشيخ علي الشربجي، **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي**، دار المصطفى- دمشق، ط ١- ١٤٢٩هـ، ص ٩٨٢- ٩٩٢ .
٦- سورة النازعات، ج ٣٠، اية (٤٠ -٤١) .
٧- ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، (ت٣٥٤هـ) ، **صحيح ابن حبان**، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ ، باب ما يجب على المرء من مجاهدة الشياطين ، حديث (٤٧٠٦) ، ج ١١، ص ٥. الكتاب مذيل بأحكام شعيب الأرناؤوط، قال: (إسناده صحيح).

النوع الثاني: جهاد طلب العلم: قال تعالى:﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[1]، أي: جاهدهم بالقرآن وما فيه من مواعظ، وزواجر، وأخبار الأمم السابقة، وجاهدهم بالدعوة إلى ذلك والثبات عليه، ومن الأدلة على أن المقصود من الجهاد، هو جهاد الدعوة، أن هذه الآية جاءت في سورة مكية، وهي سورة الفرقان، وأن جهاد القتال لم يفرض إلا في المدينة [2].

وحتى يتحقق الجهاد بالدعوة لا بد من تعلم القرآن وما فيه من مواعظ وأوامر ونواهي، إذن: فتعلم العلم وتعليمه من أبواب الجهاد الواسعة.

ومن الأحاديث التي تحث على طلب العلم قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " [3]، فالعلم في سبيل الله من الجهاد، بل هو نوع من أنواع الجهاد، فقد - قال صلى الله عليه وسلم- : "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " [4]، قال ابن تيمية " والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة فيجب بغاية ما يمكنه "[5].

والعلم هو أداة الجهاد باللسان فلا قيام للجهاد باللسان إلا بالعلم، وقد قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾[6]، فالكتاب والميزان هو العلم والعدل، والحديد هو أداة الجهاد في سبيل الله باليد [7]، فالعلم نصرة لله والجهاد في سبيله، وهو الجهاد الذي قام به النبي - صلى الله عليه وسلم - في أكثر عمره بمكة، فقد أقام ثلاث عشرة سنة يجاهد بالعلم والقرآن، الذي وصفه الله جهادا كبيرا .

١- سورة الفرقان، ج ١٩، آية (٥٢).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٤، ص ٤٧٤.
٣- أخرجه ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٣هـ)، **سنن ابن ماجة** ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث (٢٢٤) ، ج ١، ص ٨١. (الكتاب مذيل بأحكام الألباني) قال الألباني:" صحيح"، **مشكاة المصابيح**، حديث (٢١٨).
٤- أخرجه أبو داود ، **سنن أبي داود** ،كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، حديث (٢٥٠٤) ، ج ١، ص ٤٤٠ قال الألباني:" صحيح"، **مشكاة المصابيح** ، حديث (٣٨٢١)، ج ٢، ص ٣٦٩.
٥- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت ٧٢٨هـ)، **الفتاوى الكبرى**، المحقق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٠٨هـ ، ج ٥، ص ٥٨٣.
٦- سورة الحديد، ج ٢٧، آية (٢٥) .
٧- ابن كثير، **القرآن العظيم**، ج ٨، ص ٢٧.

وقد ذكر الشيخ نعمان أبو الليل فروقا بين العالم والداعي، والتي أستنبطت من حياة الرسول – عليه الصلاة والسلام –، فتمايزت شخصيته الدعوية عن شخصيته المُعَلِمة، ومن هذه الفروق [1] :

١- العلم للطالبين، أما الدعوة فللمعرضين.

فالنبي – صلى الله عليه وسلم – كان يعلم أصحابه الصلاة وسائر الأحكام، لوجود الرغبة عندهم، ولكن لم يفعل ذلك مع أبي جهل أو غيره من المشركين؛ لأعراضهم عن الحق، فالدعوة أولا ثم تعليم العلم .

٢- العلم يؤتى ولا يأتي، أما الداعي يذهب للناس ولا ينتظر الناس حتى يأتوا إليه.
قال تعالى:﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [2]، فالعلم لا بد له من تحريك القلم، والدعوة لا بد لها من تحريك القدم

.

٣- المعلم دائما في حال العزة والاحترام؛ أما الداعي يمر في جميع الأحوال.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [3]، فالداعي اذا لم يعرف المدعو له حقه، فليعرف هو له حقه.

٤- جهد العلم على العقل، أما جهد الدعوة على القلب.

فحاجة العقل تختلف من شخص لآخر، لذلك لا بد من تجديده وتطويره، أما القلوب فحاجتها واحدة للإيمان والمعرفة الإلهية، وهذا ملاحظ في حياة الأنبياء من زمن نوح – عليه السلام – إلى زمن رسولنا – صلى الله عليه وسلم – فقد قالت الرسل لأقوامهم الكلام نفسه، وكرّرَوه؛ ليتحقق المقصد الذي بُعثوا من أجله، قال تعالى :

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [4]، ومن الجدير بالذكر أن كلمات الدعوة التامة لا تتغير وتتكرر في اليوم خمس مرات؛ لتحقيق مقصد الأذان.

٥- العلم لتوضيح الغامضات كأحكام الصلاة والطلاق والبيع وغير ذلك، **أما الدعوة فلتوضيح الواضحات،** كأركان الإسلام والإيمان.

١- الشيخ نعمان، نعمان أبو الليل، **الأنوار النعمانية في الدعوة الربانية**، إعداد: محمد علي إمام ، ص ١٢٠ – ص ١٣٧ .
٢- سورة الفرقان، ج ١٨ ، آية (٧) .
٣- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٦) .
٤- سورة الشعراء ، ج١٩ ، اية (١٠٦ – ١١٠) .

٦- جهد التعليم جهد خاص، أما جهد الدعوة فجهد عام.

فإن جهد العلم لا يقدر عليه كل الناس، فالمفتي والمفسر والمُحَدِّث أقلة بين الناس، أما جهد الدعوة فكل الناس يستطيعون الدعوة إلى الله بأخلاقهم وصفاتهم، كما أن نصاب الدعوة آية واحدة، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (بَلِّغوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...)[١]، وأيضا أهل الفتوى من الصحابة كانوا معدودين معروفين[٢]، ولكن الصحابة كلهم دعاة.

٧- جهد العِلم جُهْد كسبي، أما جهد الدعوة فجهد فطري.

إذ لا بد لطالب العلم أن يثني الرُكَب عند العلماء حتى يكتسب العلم ، أما الدعوة إلى الخير وتحذير الناس من الشر، فأمر فطري مجبولة عليه النفس، فلو أن شخصا من خلفه أفعى، لا يحتاج من أراد تحذيره إلى تعلم آلية التحذير، وهكذا أمر الدعوة إلى الخير هو أمر فطري.

٨- يجوز للمعلم أن يأخذ أجرا على تعليمه العلم، قال رسول اللَّه - صَلّى اللَّه عليه وسلم " إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ" [٣]، **أما الداعي فلسان حاله:**﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [٤]، فهذا قول جميع الأنبياء من نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ومحمد - صلوات ربي وسلامه عليهم سلاما كثيرا-، فلسان حالهم، وحال من اقتفى أثرهم: " إني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرًا، ولا عوضًا أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثوابًا ولا جزاءً " [٥].

النوع الثالث: جهاد المال (الجهاد البنائي).

قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [٦] ، وقال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - **"مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غازيا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا"** [٧].

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث (٣٤٦١)، ج ٤، ص ٢٠٧.

٢- ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت٧٥١ هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: عصام الصبابطي، دار الحديث - القاهرة، ط ١٤٢٧هـ، ج ١، ص ١٨- ص ٢٠.

٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب: الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب، حديث (٥٧٣٧)، ج ٧، ص ١٧١.

٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (١٠٩) .

٥- الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، ج ١٥، ص ١٥٢.

٦- سورة التوبة، ج ١٠، آية(٤١).

٧ – أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد، باب: من جهز غازيا أو خلفه بخير، حديث (٢٨٤٣) ، ج ٤، ص ٣٢.

فالمال الذي ينفقه المسلم في سبيل إحياء بلده بما ينفع المسلمين ويخدم مصالحهم، هو مال في سبيل الله، فإنفاق المال لبناء المدارس ودور القران، وبناء المستشفيات والمخابز والمصانع وغير ذلك من مصالح الناس هو من الجهاد في سبيل الله .

فكيف إذا كان انفاق المال لإقامة الناس على التوحيد والصلاة والقرآن؛ فقوله أحسن الأقوال، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1]، وكذلك ماله أحسن المال الذي ينفق في سبيل الدعوة إلى الإيمان واليقين.

النوع الرابع : جهاد القتال .

ينقسم هذا النوع من الجهاد إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: جهاد الصائل.

الثاني: الجهاد الهجومي.

الثالث: جهاد النفير العام .

القسم الأول: جهاد الصائل [2]:

كل من قصد مسلما بأذى في جسمه أو عرضه أو ماله.

القسم الثاني : القتال الهجومي [3].

هو خروج المسلمين إلى بلاد الكفار ليدعوهم إلى الإسلام، فيصدهم حكام أهل تلك البلاد، فيحاربهم المسلمون؛ لصدهم عن سبيل الله.

القسم الثالث : جهاد النفير العام [4].

في حالة اعتداء الكفار على بلد من بلاد المسلمين، وجب قتال هؤلاء الكفرة، وهذا الوجوب على كل مسلم مستطيع.

١- سورة فصلت، ج ٢٤، آية (٣٣).

٢- انظر: الحصكفي، **الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، ج ٦، ص ٥٤٦، والقرافي، **الذخيرة**، ج ١٢، ص ٢٦٢. وانظر: الماوردي، **الحاوي الكبير**، ج ١٢، ص ٩٥٤.

٣- انظر: البغوي، الحسين بن مسعود البغوي ، (ت ٥١٦ هـ)، **شرح السنة** ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، المكتب الإسلامي – دمشق ، ط ٢ ، (١٤٠٣) ، ج ١١ ، ص ٨ – ١٢ . و انظر: المباركفوري ، **تحفة الاحوذي** ، ج ٤ ، ص٤١ .

٤- انظر: الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي، (ت ٦٨٣هـ)، **الاختيار لتعليل المختار**، تحقيق: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣ - ١٤٢٦ هـ ، ج ٤، ص ١٢٥. وانظر: العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الشهير بـ (ابن حجر)، (ت ٨٥٢هـ)، **فتح الباري**، دار المعرفة - بيروت، ط- ١٣٧٩هـ ، ج ٦، ص ٣٧ - ٣٩.

وقد جاء قتال الكفار لحل مشكلة تواجه الدّعاة، فالكافر الذي يقاتله المسلمون لا يمنع الرحمة عن نفسه وحسب، بل يمنع الخير والرحمة عن غيره، فهو كالعضو الذي وُجِب بثره، وإلّا فسد الجسد كله، وحتى يتجلى الفهم الصحيح، والرؤية الواضحة، وينقشع غبار الاختلاط بين مفهومي (الدعوة والقتال)، يمكن ذكر بعض الفروق بينهما، ومن أهم هذه الميزات [1] :

١ـ الدعوة استخدام القوة الخُلقية، قال تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [2]، **أما القتال فاستخدام القوة الغضبية،** وذلك لمقاتلة مانعي الدعوة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[3].

٢ـ القتال يحتاج إلى أسباب مادية، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [4] ، **أما الدعوة فلا تحتاج لأسباب مادية،** بل تحتاج إلى الصدق والأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [5].

٣ـ جهد الدعوة جهد عام، قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [6] ، ليس فيه أعذار، كالضعيف أو الأعمى أو الأعرج، **أما جهد القتال فهو جهد خاص؛ لأن فيه أعذار،** قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ [7].

٤ـ الدعوة فعل دائم مع وجود عاطفة الهداية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [8]، أما القتال فهو فعل طارئ مع وجود عاطفة الهداية، فالله أمر الرسول- عليه الصلاة والسلام - بقوله﴿ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [9]، لكن لا يقال: الرسول - عليه الصلاة والسلام - غليظ؛ لأنها صفة طارئة، بل حقيقة القول رسول الله - عليه الصلاة والسلام - رؤوف رحيم مع كل الناس؛ لأنها صفة دائمة فيه - عليه الصلاة والسلام - .

١- الشيخ نعمان، نعمان أبو الليل، **الأنوار النعمانية في الدعوة الربانية،** إعداد: محمد علي إمام ، ص ١٨- ص ٤٦.
٢- سورة المزمل، ج ٢٩، اية (١٠) .
٣- سورة التحريم، ج ٢٨، اية (٩) .
٤- سورة الأنفال، ج ١٠، اية (٦٠) .
٥- سورة فصلت، ج ٢٤، اية (٣٤) .
٦- سورة يوسف، ج ١٣، اية (١٠٨) .
٧- سورة التوبة، ج ١٠، اية (٩١) .
٨- سورة الأنبياء، ج ١٧، اية (١٠٧).
٩- سورة التوبة، ج٧، آية (٧٣).

٥ - **القتال يكون التحريض فيه بذكر المساوئ،** قال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١]، **أما الدعوة تكون بذكر المحاسن،** قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[٢].

٦- **في القتال ننظر للنتائج،** قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[٣]، **أما في الدعوة فلا نحكم بالنتائج؛** لأن أنبياء أجلاء دعوا إلى الله ولم يؤمن معهم أحد، ولكن جهدهم كامل محمود، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَد "[٤].

٧ - **الدعوة ليس فيها هدنة أو تأجيل،** وهذا ظاهر عندما توجه كفار قريش إلى أبي طالب، حتى يتراجع النبي - عليه السلام - عن دعوته،"... فظن رسول الله أن قد بدا لعمه فيه، وأنه خَاذُله ومُسْلِمُه، وضَعُفَ عن القيام معه ، فقال رسول الله يا عم : لو وضعتَ الشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه "[٥]، **أما القتال ففيه الهدنة والتأجيل،** فقد أوقفه النبي - عليه الصلاة والسلام - عشر سنين في صلح الحديبية، ذكر ابن هشام في سيرته:

(هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله ، سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض)[٦].

إذن: فالدعوة أصل والقتال فرع .

١- سورة التوبة، ج ١٠، آية (١٣).
٢- سورة الإسراء، ج ١ ، آية (٧٠) .
٣- سورة التوبة ، ج ١٠، الآيات (١٤ – ١٥) .
٤- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو ، حديث (٥٧٠٤)، ج ٧ ، ص ١٦٢.
٥- البيهقي، **دلائل النبوة** ، كتاب جماع أبواب المبعث، ج ٢ ، ص ١٨٧. وضعفه الألباني في **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، دار المعارف - الرياض - ط ١- ١٤١٢ هـ ، حديث ٩٠٩، ج ٢، ص ٣١٠.
٦- انظر: ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري أبو محمد، (ت٢١٣ هـ)، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق: طه سعد، دار الجيل – بيروت، ط ١ – (١٤١١ هـ)، ج ٤، ص ٢٨٥، تعليق شعيب الأرنؤوط ،سناده حسن، ج٤، ص٣٢٣.

٨ - الدعوة مقصدها في ذاتها وهو هداية الخَلْق، أما القتال فمقصود لغيره، إما الإسلام، أو الجزية، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[٢].

٩ - في الدعوة الشفقة والرحمة على الجميع، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يشفق على المؤمنين كبلال وصهيب بزيادة الإيمان والثبات، وعلى الكافرين كأبي جهل وأمية بن خلف بالإسلام، كلهم في دائرة الشفقة والرحمة النبوية، قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، وأوصى الله تعالى سيدنا موسى وسيدناهارون - عليهما السلام - عند ذهابهما إلى من ادّعى الربوبية أن يخاطباه باللطف واللين، قال تعالى:﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾[٤]، **أما في القتال فالغلظة على المعتدين،** قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٥] ، "وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه جُبِل على الرحمة، فأُمِر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل ... والغلظة: بكسر الغين: الشدة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة، والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين " [٦].

ثالثا : الخروج في سبيل الله (للدعوة).

الخروج في سبيل الله: عمل دعوي ضمن مُدد زمنية تخرج فيها الجماعات إلى بلاد المعمورة؛ لتحقيق مقاصد الدعوة، وقد وضع له علماؤه ترتيبا معينا، حتى يستطيع الدعاة الاستقامة عليه.

والدعوة إلى الله كما سبق [٧] واجبة على المسلمين، ولتحقيق هذا الواجب لا بد له من وسائل تعين على تحقيقه، والقاعدة المشهورة عند العلماء والتي تقول:

١- سورة التوبة، ج ١٠، آية (١١).
٢- سورة التوبة، ج ١٠، آية(٢٩).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية(١٠٧).
٤- سورة طه، ج ١٦، الآيات(٤٣ - ٤٤).
٥ - سورة التوبة، ج١٠، آية(٧٣).
٦- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٠، ص ١٥٥.
٧- الفصل الأول، المبحث الرابع، المطلب الثاني، ص ٣٣.

(الوسائل لها أحكام المقاصد)[1]، فوسائل المأمورات مأمور بها، كالسفر للحج، ووسائل المنهيات منهي عنها، كالاختلاط المؤدي للزنا، وكلما ازدادت الوسيلة مشقة، وكان نفعها متعديًا أكثر من غيرها، كانت هي الأعظم أجرا، كمثل القائم بفرض الكفاية له مزية على العين؛ لأنه أسقط الحرج عن الأمة، ففضل الطاعات على قدر المصالح الناشئة عنها [2].

فإذن الخروج في سبيل الله له من المصالح على النفس والغير أكثر من باقي الوسائل الدعوية المستخدمة اليوم، مع التقدير لكل الوسائل الدعوية الأخرى.

وبذلك يمكن القول: إن كل الآيات الدالة على وجوب الدعوة، يجوز الاستدلال بها على مشروعية الخروج في سبيل الله.

ومن الأدلة على ذلك:

١- قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾[3]. أي : خَوِّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) أي : سيّدك ومالكك ومُصلِح أمرك، عظمه ومجّده، ونَزْهُ أن يكون له صاحبة أو ولد [4].

٢- قال تعالى:﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [5].

قوله تعالى: (فَلَوْلا كانَ) أي: فهلا كان (مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ) أي: من الأمم التي قبلكم. (أُولُوا بَقِيَّةٍ)، أي: أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر (يَنْهَوْنَ) قومهم (عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ) لِما أعطاهم الله تعالى من العقول، والإمعان في الآيات، وهذا توبيخ للكفار، وقيل: (ولولا) في محل النفي، أي: ما كان من قبلكم، كقوله: (فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) أي : ما كانت،(إِلَّا قَلِيلًا)، أي : لكن قليلا، (مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ) نهوا عن الفساد في الأرض، وهم أتباع الأنبياء، وأهل الحق [6].

١- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (ت ١٤٣٦هـ)، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر - دمشق، ط ٣- ٢٠١٣م، ج٣، ص ٦٨٥.
٢- انظر: جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤٠٣هـ ، ج ١ ، ص ١٤٥.
٣- سورة المدثر، ج ٢٩، الآيات (١-٣).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٩، ص ٦١.
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (١١٦).
٦- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ١١٣.

الوسائل القولية:

أمر الله نبيه- صلى الله عليه وسلم - بالقَول- (قُلْ، فَقُلْ، وَقُلْ)- قرابة مائة وثمانين موضعا في كتاب الله تعالى، فالوسائل والأساليب القولية كثيرة ومتنوعة، يحكمها الحال، وقوة اللسان، ومن أهم هذه الوسائل:

الوسيلة الأولى: الخُطبة.

الخُطبة: كلام منتظم بين اثنين أو أكثر يتناول يه المُخاطِب أمرا عظيما [١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [٢]، أمر الله عباده المؤمنين أن يسعَوا إلى الصلاة في يوم الجمعة، وتدل كلمة (السعي) على المبادرة والاهتمام بشأنها، وقد حرّم الله تعالى في هذا الوقت المبارك ما أحله في غيره، فحَرّم البيع والشراء، وهو أكثر ما يُلهي، وكذلك حرّم كل ما يقاس على البيع من كسبٍ للمال، فإن اكتسب أثم [٣]، و ماله - عند بعض العلماء [٤] - يعدُّ مالا حراما [٥].

ويدل هذا الأمر الإلهي[٦] العظيم على أهمية يوم الجمعة التي تقوم قائمته على سماع الخُطبة والإنصات للإمام، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ " [٦]، وقال - عليه الصلاة والسلام - في فضل الجمعة، والمشي إلى الصلاة، والاستماع إلى الخطبة، قال: "مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا " [٧]، قال المبارك فوري: "قال بعض الائمة لم يسمع في الشريعة حديثا صحيحا مشتملا على مثل هذا الثواب" [٨].

١- التعاريف، المناوي، ج ١، ص ٣١٨.
٢- سورة الجمعة، ج ٢٨، آية(٩).
٣- انظر: الإحسائي، أبو بكر بن الشيخ محمد المُلّا، (ت ١٢٧٠هـ)، **منهاج الراغب إلى إتحاف الطالب**، حققه: يحيى بن محمد بن أبي بكر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٢- ٢٠١٣ م، ص ٢١٢.
٤- انظر: الماوردي، **الحاوي في فقه الشافعي**، ج ٢، ص ٤٢٨.
٥- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٨، ص ١١٧ – ١٢٠.
٦- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، حديث (٩٣٤)، ج ٢، ص ١٦.
٧- أخرجه ابن ماجة، **سنن ابن ماجة**، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في الغُسل يوم الجمعة)، حديث (١٠٧٨)، ص ١٩٥، وقال الألباني:" صحيح".
٨- المبارك فوري، **تحفة الأحوذي**، ج ٣، ص ٨٣٧.

إذن: فالخطيب مهمته مَهيبة جليلة؛ لأن الذي أمر الناس أن يأتوا حتى يسمعوا، وأمرهم ألا يتكلموا وينصتوا للخطيب، هو الله العلي الكبير.

ولهذا يجب على الخطيب أن يُحْسن اختيار العنوان، وأن يعيش مع واقع الناس، وأن يكون أمينا في نقله للآيات والأحاديث والقصص، وأن يراعي جميع طبقات المجتمع من رجال ونساء وأطفال، فهو الداعي الذي يسمعه الجميع، ويقود الأمة بكلامه، وقوة إخلاصه، ورصانة ألفاظه.

الوسيلة الثانية : الدّرس.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [1] ، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – أمرهم أن يكونوا ربانيين، أي : علماء فقهاء، وذلك لا يكون إلا بتعلم القرآن ودراسته [2] .

فالدرس: عبارة عن تفسير آية، أو مجموعة آيات، أو عرض لبعض أحاديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم-، أو مسألة فقهية، والهدف من الدرس: تعليم الناس وحثهم على الخير، وتحذيرهم من الشر، ولهذا على المُدرس أن يكون أسلوبه شيّقا وممتعا، ويحذر التطويل حتى لا يمل الناس [3] .

وهذه الدروس ممكن إقامتهافي المساجد، والجامعات، والمدارس، وأيضا في البيوت، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : " جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ: ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ: اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ : مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاَثَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ: اثْنَيْنِ، قَالَ : فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : وَاثْنَيْنِ واثنتين وَاثْنَيْنِ" [4] ، فإذن: هذه الدروس ليست مقتصرة على المساجد أو على الشيوخ، بل يجب على الأب أن يُدَرس أولاده، والأم كذلك، وعدم إقامة هذه الدروس في البيوت جعلت الجهل ينتشر بين الرجال والشباب، وبين النساء والفتيات، وبإقامة هذه الدروس ينتشر العلم والدين، ويعرف كل واحد ما له وما عليه.

١- سورة آل عمران، ج ٤، آية (٧٩).
٢- انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٦، ص ٥٣٨.
٣- زيدان، **أصول الدعوة**، ص ٤٥٣.
٤- أخرجه البخاري ، **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام بالكتاب، باب: تعليم النبي - عليه السلام - أمته من الرجال والنساء، حديث (٧٣١٠)، ج ٩، ص ١٢٤.

الوسيلة الثالثة: المناظرة .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾ [1] .

أوضح الله تعالى ما رآه إبراهيم من ملكوت السموات والأرض، فقال: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً) أي: لما أظلم عليه الليل، رأى كوكبا عظيما، قال: هذا ربي، قاله في مقام المناظرة والحِجاج لقومه؛ تمهيدا للإنكار عليهم ولإقامة الحجة عليهم، فأوهمهم أولا أنه موافق لهم على زعمهم، ثم نقضه بالحس والعقل، فلما غَرُبَ هذا الكوكب، قال إبراهيم: ما هذا بإله، ولا أحب ما يغيب ويختفي ! فالكوكب ليس إلها يُعْبد؛ لأنه يغيب، والذي يغيب لا يدرك الأشياء، فلا يستحق العبادة، وكذلك القمر والشمس، أما الله تعالى فسميع بصير لا يغيب عنه شيء، فهو مستحق للعبادة؛ لجلال صفاته وكمال قدرته [2] .

فالمناظرة: كلام قائم على الأدلة والبراهين والحِجج، حتى يُثبت كلُ واحد منهم صحة وجْهَته ونظرته لصاحبه [3] .

والداعي يستخدم المناظرة إذا احتاج إليها، وعرف أن خصمه يريد معرفة الحق، وليس مراده الجدال وحسب، فقد قال رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم- : " أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا " [4]، قال مالك بن أنس: " المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل " [5]، فإذا أراد كلٌ منهما الإذعان للحق، فليناظر كلا الطرفين بأدب وحكمة وخُلُق، فكسب القلوب أولى من كسب المواقف .

١- سورة الأنعام، ج ٧، الآيات (٧٥ – ٨٠) .
٢- انظر: الزحيلي، **تفسير المنير**، ج ٧، ص ٢٦٢ .
٣- انظر: الميداني، **فقه الدعوة إلى الله**، ج ١، ص ٦٣٦ – ٦٦٢.
٤- أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق، حديث (٤٨٠٠)، ج ١، ص ٨٧١، قال الألباني في **السلسلة الصحيحة**(٢٧٣)،" حديث حسن".
٥- ابن حجر العسقلاني ، **فتح الباري** ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .

الوسيلة الرابعة: الدعوة الفردية.

قال تعالى مخبرا عن شكوى سيدنا نوح - صلى الله عليه وسلم - لربه واعتذاره له لعدم استجابة قومه له: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾[1]، ذكر نبي الله نوح - عليه السلام - في مناجاته لربه تعالى، فذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار؛ لأن الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة، وأقوم من إفراد إحداهما، وأنه توخى ما يظنه أوغل إلى قلوبهم من صفات الدعوة، فجهر حينما يكون الجهر أجدى مثل مجامع العامة، وأسر للذين يظنهم متجنبين لوم قومهم عليهم في سماع دعوته [2]، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عند فتح خيبر: " انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ "[3].

١- سورة نوح، ج ٢٩، آية(٩).
٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ١٨٣.
٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب/ فضل من أسلم على يديه رجل، حديث(٣٠٠٩)، ج ٤، ص ٧٣.

الفصل الثاني

الهمّ الدعوي عند الأنبياء

وفيه أربعة مباحث : -

المبحث الأول: الهم الدعوي عند الأنبياء مع أسرهم.

المبحث الثاني : الهم الدعوي عند الأنبياء مع أصحابهم.

المبحث الثالث: الهم الدعوي عند الأنبياء مع اصحاب النفوذ والحكم.

المبحث الرابع: الهم الدعوي عند الأنبياء مع أقوامهم.

تمهيد:

خلق الله تعالى البشر بكرمه، وابتلاهم بوجودهم في الأرض بحكمته، وأرسل إليهم الأنبياء والمرسلين بفضله، فمَن استجاب لهم فبهدايته، ومَن ضل فبعدله.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [1] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود - رضي الله عنه - قَال: " كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَحْكِى نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاء، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ "[2].

فالأنبياء هم خير البشر، وأحسن الناس خُلُقا، وأكملهم إيمانا بالله تعالى، أرجحهم عقلا، وأشدّهم عزيمة، وأجْلَدَهم صبرا، وكل هذه الصفات تميز بها الأنبياء - عليهم السلام -؛ لأنهم أُمَناء على رسالة الله تعالى في خلقه.

وكانت دعوة الأنبياء - عليهم السلام - شاملة كاملة، تطرقت إلى جميع الطبقات والفئات، في المجتمعات التي عاشوا فيها، فدعوتهم شَمِلت أُسَرهم من الآباء والأبناء، كدعوة نوح وإبراهيم - عليهما السلام -، وشَمِلت الأصحاب والرفقاء، مثل دعوة يوسف وعيسى - عليهما السلام - ،وشَمِلت الحكّام والوزراء، كدعوة موسى - عليه السلام - وشَمِلت جميع الناس من عامة القوم وخاصتهم، فلم يتركوا أحدا إلا وأوصلوا له الرسالة على أتم وجه.

قال تعالى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[3]
، أي: سَيسأل الله تعالى الأمم يوم القيامة، عن استجابتهم للرسل، وماذا عَمِلوا بما أُخبروا، وهو سؤال توبيخ وعتاب وإفضاح، وسَيسأل الله تعالى المرسلين عن إبلاغهم الرسالة [4].

وفي هذا الفصل - إن شاء الله تعالى - سيتم عرض بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - التي يستبين فيها هَمّهُم الدعوي في تبليغ الرسالة، و تعليم التوحيد.

١- سورة إبراهيم، ج ١٣، آية (٤).
٢- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب (الجهاد والسِيَر)، باب : غزوة أحد، حديث (٤٧٤٧)، ج ٥، ص ١٧٩.
٣- سورة الأعراف، ج ٨، آية (٦).
٤- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٣، ص ٢١٤ .

المبحث الأول

الهم الدعوي عند الأنبياء مع أسرهم.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لأبيه.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - لابنه.

المطلب الثالث: دعوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأسرته وعشيرته.

المبحث الأول : الهمّ الدعوي عند الأنبياء مع أسرهم .

تمهيد .

جعل الله تعالى بين الناس روابط رصينة حصينة، تربطهم على المحبة والإخاء والتعاون، ومن أعظمها الزواج وإنسال الأنسال، فخرجت هذه العلاقة برابطة بين الزوج وزوجه، والأب وابنه، والأخ مع أخيه، فكل هذه العلاقات تندرج تحت مسمى (الأُسَرة).

فالأسرة لغة: "الدرع الحصينة "[1].

واصطلاحا: " الجماعة التي ارتبطت أركانها بالزواج الشرعي، وعرفت ما عليها من حقوق وواجبات بين طرفيها، وما نتج من ذرية، وما اتصل بها من أقارب" [2].

فالأسرة درع حصين للرجل من الفتن والمحرمات، وهي استقرار المشاعر الجيّاشة، وسكن لكل هائجة من الخواطر والمشكلات، فلقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3]، أي: من دلائل قدرته وكمال عزته أن خلق للرجال نساء من جنسهم، وذلك بخلق حواء من ضلع آدم، وجعل بينهم مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة والشفقة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمت له فيها، بأن يكون له منها ولد، أو لحاجتهما إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما [4].
وقد أوصت المحجة البيضاء على المحافظة على كل أفراد الأسرة، وذلك بتوضيح الحقوق والواجبات، وتربية الأبناء على الطاعات، وإقامة الأسرة على المعروف وإزالة المنكرات، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهْيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْه، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه)[5].

١- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٩.
٢- أبو عمرو، جاسر بركات ، **فقه الأسرة المسلمة**، مكتبة الصفا - القاهرة، ط ١ - ٢٠١١م،، ص ١٠.
٣- سورة الروم، ج ٢١، آية(٢١).
٤- انظر : ابن كثير، **تفسير القران العظيم**، ج ٦، ص ٣٠٩.
٥- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، حديث (٢٥٥٤)، ج ٣، ص ١٩٦.

وجاءت آيات الذكر الحكيم تضرب لنا أروع الأمثلة في الدعوة الأسرية للأنبياء، لتبين الهمّ الدعوي في قلوب أفراد الأسرة على بعضهم البعض، والعطف واللين في كلامهم؛ لينكشف للمؤمن أهمية اللبنة الأساس في قيام دولة الإسلام.

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لأبيه.

لمّا كان إبراهيم - عليه السلام - أبا الأنبياء، وأول من أعلن التوحيد إعلانا باقيا، لبنائه قبلة التوحيد وهي الكعبة المشرفة، ونبذ الشرك والدعوة إلى التوحيد في كل الأمم، وكانت دعوته منهاجا في الرحمة والفطنة لمَن بعده من الأنبياء والدعاة، فنال الصفات الكريمة، والأخلاق العِظيمة، أن يكون أمة في قيام التوحيد والدين، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] ، وهذه الآيات تبين همّ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على هداية أبيه ودعوته [2].

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[3] .

تفسير الآيات:

(واذكر في الكتاب): المراد بالذكر: التلاوة، أي: اتْلُ على الناس خبر إبراهيم - عليه السلام - كقوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[4]؛ لأنهم ينتسبون إليه،" فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[5]، ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرا هو إبراهيم -

---

١- سورة النحل، ج ١٤، آية (١٢٠).
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٦، ص ٤٣.
٣- سورة مريم، ج ١٦، آية(٤١ - ٤٧).
٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٦٩).
٥- سورة الزخرف، ج ٢٥، آية(٢٣).

عليه السلام - فقلدوه في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم - عليه السلام - لتعرفوا فساد عبادة الأوثان [1].

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)، صدّيقا: مبالغة في التصديق بالغيوب التي أخبره الله بها، أو التصديق بما أمره، فقدّم بدنه للنيران، وطعامه للضيفان، وابنه للقربان، فأصبح بذلك خليل الرحمن، وتقدمت الصدّيقية على النبوة؛ لئلا يتوهم خصوصيتها بالنبوة، (إذ قال لأبيه) آزر، متلطفا بالدعوة مستعطفا قلبه، (يا أبتِ) والتاء يدل من ياء الإضافة، أي: يا أبي، (لمَ تعبد ما لا يسمع) ثناءك عليه حين تعبده، ولا دعاءك حين تدعوه، (ولا يبصر) خشوعك وخضوعك بين يديه، (ولا يغني عنك شيئا) في إرادة خير لك أو دفع ضر عنك [2].واستمر - عليه السلام- بالاستعطاف والاستمالة في قمة الأدب وحسن الخلق، فلم يصف أباه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان في أعلاه، فقال:(يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا) أي : اتبع الصراط المنقذ من الضلال إلى النجاة بالوصول إلى أسمى المطالب، ثم ثبطه عن عبادة الأصنام فقال:(يا أبت لا تعبد الشيطان)؛ لأن عبادة الأصنام في الحقيقة عبادة للشيطان، فهو الداعي لعبادتها، والمُسَوّل للخضوع لها، قال استجابة لدعوته دليل على طاعته، ثم ذكر التعليل الموجب للنهي(إن الشيطان كان للرحمن عصيا) بعدم سجوده لآدم - عليه السلام - ، فكيف تعبد مَن عصى الرحمن؟! [3].

ثم حذره من سوء العاقبة فقال: (إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) عبّر عن الجلالة بوصف الرحمن؛ للإشارة إلى أن حلول العذاب مِمَن شأنه أن يرحم، إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته، مع مَنْ شأنُه سعة الرحمة:(فتكون للشيطان وليا) أي: تابعا له بعبادة الأصنام، مصاحبا له في الذل والهوان والعذاب ، وجاء الرد من المعاند المكابر: (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم)، أمعرض ومنصرف عن عبادتها؟، كأن عدم عبادتها لا يكون من شخص عاقل!، وإضافة الآلهة إلى ضمير نفسه إضافة ولاية، ثم هدده، فقال: (لئن لم تنته) عن وعظك، (لأرجمنك) بالحجارة، (واهجرني مليا)أي: ابتعد عني واتركني مدة طويلة من الزمن، وفيه إضمار للتحذير والتهديد، والإنكار على أقواله ودعوته- عليه السلام - [4].

١- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢١، ص ٥٤٣.
٢- انظر: ابن عجيبة، الإمام أحمد بن محمد المهدي ، (ت ١٢٢٤ هـ) ، **البحر المديد في تفسير القران المجيد**، تحقيق عمر الراوي، دار الكتب العلمية - لبنان، ط ٣ - ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٢٢٤.
٣- انظر: **المرجع السابق**، ج ٤، ص ٢٢٥.
٤- انظر: **المرجع السابق**، ج ٤، ص ٢٢٦.

فكان جواب النبي الصدّيق:(سلام عليك) أي: لا أصيبك بمكروه، وهي من مقام مقابلة السيئة بالحسنة:(سأستغفر لك ربي) ووفّى إبراهيم - عليه السلام - بوعده، قال تعالى مخبرا عنه - عليه السلام-:﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [1]، أي: أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديك الله إلى التوحيد فيغفر لك الشرك الماضي، وعلل هذا الاستغفار(إنه كان بي حفيّا) أي: عوّدني أن يستجيب دعائي [2].

استنباط الهمّ الدعوي:

يظهر الهمّ الدعوي في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه في الأمور الآتية:

١- استخدامه - عليه السلام - أسلوب النداء أربع مرات، وفي ذلك مزيد من الاستعطاف وإمالة قلب أبيه للحق، ولم يناديه باسمه (آزر)بل بأرقى الألفاظ وأحسنها(يا أبت).

٢- تواضعه- عليه السلام - في دعوته لأبيه، فلم يظهر نفسه أنه أعلم منه، ولم يخاطبه ب (يا جاهل، يا ضال)، بل أبرز نفسه رفيقا رحيما، وجاء هذا التواضع في سبيل إيصال رسالته، وهدايته.

٣- تكرار لفظ الجلالة (الرحمن) حتى ينشأ في قلبه أمل الرحمة الربانية مع كل شركه وكفره، وهذا دليل على شدة همّه على هداية أبيه.

٤- بيان شعور الخوف [3] (إني أخاف أن يمسك...)، فالإنسان لا يخاف على أحد إلا أن يكون مهتما به، حريصا عليه.

٥- يتبين الهمّ الدعوي في أسلوبه -عليه السلام -، فلم يخاطبه أنك إذا لم تؤمن سيصيبك عذاب شديد، بل قال:(يمسك عذاب)، وكذلك تميز أسلوبه بقوة المحاورة والإقناع، فابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحس، فقال له:(لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) فذلك حجة محسوسة، ثم انتقل إلى دفع ما يخالط عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله:﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ،فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أن ما فيه، أثر من وساوس الشيطان.

٦- ظهر همّ الداعي عندما يقابل الأذى بالعفو والمسامحة، فلقد ظهر ذلك جليا عند تهديد آزر له، فكان جوابه: (سلام عليك)، والجدير بالذكر في هذا المقام حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، فيما رواه عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه -

---

١- سورة الشعراء، ج ١٩، آية(٨٦).
٢- انظر: ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٤، ص ٢٢٧.

٣- **الخوف:** توقع حلول مكروه أو فوات محبوب، انظر: الجرجاني، **التعريفات**، ج ١، ص ١٣٧.

قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهْوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون) [1].

٧- لا يقتصر همّ الداعي في كلامه فحسب، وإنما حقيقية الهمّ الدعوي تتمثل في ركنين أساسين:

أولا: الدعوة.

ثانيا: الدعاء.

أما الدعوة فتجلت فيما سبق، وأما الدعاء فيظهر في قوله - عليه السلام -:﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾، فَمِن همّه - عليه السلام - على أبيه أنه لم يكتفِ بدعوته والكلام معه ومحاورته، بل وعده بالدعاء له بالإيمان والهداية والمغفرة؛ رجاء إسلامه، "﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾[2] لموته على الكفر،(تَبَرَّأَ مِنْهُ)[3] "[4]، فإذا أراد الداعي أن تكون دعوته لها أصل ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها، فعليه بطرق أبواب الهداية والرشاد، من الله العزيز الوهاب، فالداعي يدعو بالنهار، ويقوم في الليل؛ حتى يدعو لِمَن دعاهم في النهار، ولحديث الهادي البشير، المحفز والمرغب لهذا الشأن، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (دُعَاءُ الأخ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لاَ يُرَدُّ) [5].

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف و الرقيم)، حديث (٣٢٩٠).

٢- سورة التوبة، ج ١١، آية (١١٤).

٣- **المرجع الأسبق**، ج ١١، آية (١١٤).

٤- البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٤، ص ١٠٢.

٥- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ، (٢٩٢ هـ)، **البحر الزخار**، المحقق : محفوظ الرحمن زين الله مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط ١- ٢٠٠٩م ، حديث (٣٥٧٧)، ج ٩، ص ٥٢. تحقيق الألباني: (صحيح) ، **صحيح وضعيف الجامع الصغير**، حديث (٥٦٩١)، ج ١، ص ٥٧٠.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - لابنه.

ومن دعوة الابن لأبيه، إلى دعوة الأب لابنه، فهذا سيدنا نوح- عليه السلام - لبث يدعو قومه تسعمائة و خمسين سنة، وذكر اللهُ سبحانه ذلك في كتابه قائلا: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾[1]، فلما أعرضوا وكفروا، أمره الله تعالى أن يصنع سفينة ويأخذ من كل زوجين اثنين من قبل أن يأتي العذاب، قال الله - عز وجل- : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾[2]، وجاء عقاب المتكبرين، ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾[3] ، وفي بداية هذا الطوفان، نادى الأب الحزين الابن العنيد حتى يركب معه وينجو، ولكنه ظن أن الأسباب التي يرى قوتها وعظمتها، ستحميه من أمر الله إذا حلَّ به، ولم يعلم أن الله تعالى هو خالق الأسباب فصارفها.

وقد قص الله تعالى خبر هذه القصة المباركة بشيء من التفصيل في موضع آخر في كتابه الكريم، فال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[4] .

١- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (١٤).
٢- سورة هود، ج ١٢، آية (٤٠).
٣- سورة القمر، ج ٢٧، الآيات (١٠ - ١٣).
٤- سورة هود، ج ١٢، الآيات (٤١ - ٤٧).

تفسير الآيات:

ذكر الله العزيز العظيم إغراقه قوم نوح - عليه السلام - بالطوفان، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾[1]، وكانت بداية حصول هذا الأمر العظيم فوران الماء من أحد التنانير، وأنه علامة جعلها الله لنوح - عليه السلام - إذ فار الماء من تنوره [2]، فعلم أن ذلك مبدأ الطوفان، فركب الفُلك ومن معه، (وقال اركبوا فيها بسم الله) أي: اركبوا السفينة، وعَلَّمَهم- عليه السلام - أن يقولوا: بسم الله عند جَرْيانها وعندما ترسو، قال الرازي: لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاة، بل الواجب تعليق القلب باللَّه تعالى، وأخبرهم أنه تعالى هو المُجري والمُرْسي للسفينة، فإياكم أن تُعَوِلوا على السفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل اللَّه، فإنه هو المجري والمرسي لها [3] ، فالبداية والنهاية بذكر اسم الله،(إن ربي لغفور رحيم)، ومناسبة ذكر الرحمة مع العذاب، لكي لا يصيب أهل السفينة العُجب، فَذَكرهم أنهم نجوا بمغفرته لذنوبهم، ورحمته لهم بسبب إيمانهم به سبحانه [4].

(وهي تجري بهم في موج كالجبال) شبه الموج لضخامته كأنه جبل، وحجم الجبال يدل على اشتداد الرياح العاصفة، وعلى كثرة الماء النازل من السماء والمتفجر من العيون التي جعلت من الماء أمواجا كالجبال، وفيه وصف لعظيم ذلك اليوم، وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم، (ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) أي : وقبل جريان السفينة نادى نوح- عليه السلام - ابنه الذي عانده وكفر، وناداه مناداة الشفيق الحزين، نداء مَن أراد بولده الخير والصلاح، وأراد به النجاة في الدنيا والآخرة، نادى ولده الذي انتظر ولادته، ورآه يكبَر بين يديه، وتَربّى في أحضانه، ويأمل منه الآمال الكثيرة في إعانته في دينه ودنياه، ففي هذا الموقف وصلت شفقة الأب في أعلى ذروتها، وكلماته مليئة بالأمل والتمني، رجاء إيمانه وإسلامه، قال (يا بني) و "{بني} تصغير {ابن} مضافا إلى ياء المتكلم، وتصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعله كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة"[5]،(اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير [6].

١- سورة هود، ج١٢، آية (٤٠).
٢- **التنور**: مكان تشعل فيه النار لخبز العجين. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ص٩٥.
٣- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٧، ص٢٤٩.
٤-انظر: **المرجع السايق**، ج١٧، ص٣٥٠.
٥-ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١١، ص٢٦٣.
٦-انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٣٢٣.

أجاب قاسي القلب: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) اعتقد أن الطوفان لن يصل إلى أعالي الجبال، وهكذا يقين الكافر على الأسباب التي بين يديه، أما المؤمن فيقينه على الله، وإن كانت معه الأسباب، كقول نوح - عليه السلام - (بسم الله مجريها ومرساها) فالاعتماد على الله في كل الأحوال، ثم نفى نوح -عليه السلام - اليقين الفاسد من قلب ابنه لعله يؤمن فينجو، وأخبره بأن أمر الله إذا جاء لا يمنعه أيُ سبب مهما قَوي أو ضَعُف، وأن السبب العاصم من عذاب الله هو الفرار إلى الله من الكفر إلى الإيمان، ومن الذنوب إلى التوبة، وهذه هي الرحمة المنجية، قال: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم)، ولكن رفض ابن نوح - عليه السلام - الرحمة التي دعاه إليها النبي الكريم (فكان من المغرقين) [١].

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجودي) قال الله للأرض بعد هلاك قوم نوح - عليه السلام - :(يا أرض ابلعي ماءك)، أي: تشرَّبي، و في كلمة (البلع) تشبيه على سرعة ذهاب الماء كسرعة ذهاب اللقمة لبالعها، (و يا سماء أقلعي)، أقلعي عن المطر، أي: أمسكي (وغيض الماء) نقص و ذهبت به الأرض،(وقُضِي الأمر) قضى أمره تعالى ونفذ في إهلاك قوم نوح - عليه السلام - (واستوت على الجوديّ) يعني : استقرت السفينة على جبل يسمى الجودي [٢]، ولا بد في هذه الآية من إعمال العقل في التفكر في عظيم خلق الأرض والسماء، فأسلوب النداء يُوحي أن السماء والأرض من ذوات الأرواح يسمعون ويجيبون، " فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها فإذا شعر العقل بواجب الوجود قاهر لهذه الأجسام، مستولٍ عليها، متصرف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال اللّه تعالى، وعلو قهره، وكمال قدرته" [٣].

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين)، والنداء بمعنى الدعاء، وهذا النداء دعاه إليه داعي الشفقة، فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا، لأن الله أعلمه أنه لا نجاة إلا للذين يركبون السفينة، والتعبير عن لفظ الجلالة بوصف (الرب) مضافا إلى نوح - عليه السلام - (ونادى نوح ربه) تشريف لنوح، وإشارة إلى رأفة الله به [٤].

١- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٥، ص ٣٣١- ٣٣٢.
٢- انظر: **المرجع السابق**، ج ١٥، ص ٣٣٤.
٣- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٧، ص ٣٥٣.
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٢٦٩

(إن ابني من أهلي) ابتدأ سيدنا نوح - عليه السلام - كلامه بالاعتذار والتمهيد للسؤال؛ لأنه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله، ولكنه اقتحمه؛ لأن المسؤول له من أهله، وهو لا يجهل - عليه السلام - أنه مات على الكفر، ولكن هذا السؤال له عذر من عدة وجوه [١] :

١- عذر الشفقة التي غلبته - عليه السلام -.

٢- كان السؤال من باب تخصيص العموم، بحيث يستثني الله تعالى من جملة الذين غَرِقوا، الذين قال الله فيهم: ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [٢]، فيَستثني ابن نوح - عليه السلام - بسبب القرابة.

٣- كان نوح - عليه السلام - غير منهي عن سؤال المغفرة للكافر، ولم يكن تقرر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح - عليه السلام - كحال النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قال لأبي طالب "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" [٣]، قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [٤].

(وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) يعلم نوح - عليه السلام - أن وعد الله حق، وهو قوله تعالى: ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [٥]، إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنه لا يركب السفينة، ودل النهي في قوله: (وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا)،أي: على عدم طلب الشفاعة لهم، "ولعل هذا توطئة لنوح - عليه السلام - لنهيه تعالى عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح - عليه السلام- سؤال نجاته، حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف "[٦]، وقول نوح -عليه السلام - : (وأنت أحكم الحاكمين) أنه لا راد لِما حكم به وقضاه، الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا [٧].

فجاء الجواب من الله لنوح - عليه السلام -: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح - عليه السلام -: (إنَّ

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٢٦٩- ٢٧١.
٢- سورة نوح، ج ٢٩، آية (٢٥).
٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، متاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، ج ٢، ص ١١٩.
٤- سورة التوبة، ج ١١، آية(١١٣).
٥- سورة المؤمنون، ج ١٨، آية(٢٧).
٦- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٢٥٦.
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٤٥.

ابْنِي مِنْ أَهْلِي) ولكنه إعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة الحقيقية، وقوله: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) إجابة لسؤال قد يُسأل، كيف ابن نوح - عليه السلام- ليس من أهله، وقد قال إنّ ابني من أهلي؟، .وأطلق على الكفر عمل؛ لأنه عمل القلب، ولأنه يظهر أثره في أعمال صاحبه، كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان [1]، وجاء العتاب واللوم من الله تعالى (فلا تسألنِ ما ليس لك به علم)، وهذا النهي يُحمل على احتمالين [2]:

الاحتمال الأول: وهو محمول على ظاهر الآية، بحيث أنه لم يتبين جواز ذلك السؤال من الله تعالى.

الاحتمال الثاني: أن يكون كناية عن العلم بضده، أي: فلا تسألني ما علمت أنه لا يقع.

ثم قال الله تعالى:(إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين): موعظة على ترك التثبت قبل الإقدام، والجهل هنا ضد العلم، وهو المناسب لمقابلته بقوله: (ما ليس لك به علم)، ثم استدرك نوح - عليه السلام - قائلا :(قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) استعاذ بالله من عدم تثبته في جواز سؤاله، وطلب المغفرة ابتداء، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة، وتجنب الخسارة[3] .

استنباط الهمّ الدعوي:

١- يظهر الهمّ الدعوي في كون نوح - عليه السلام - لم ينسَ دعوة ابنه حتى في أشد الظروف، وأحلك المصاعب، وناداه بلفظ التحبب (يا بني)، والملاحظ: أن نوحا - عليه السلام - نادى ابنه مرة واحدة، أما سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنادى أباه عدة مرات (يا أبتِ)، وذلك لضيق الوقت مع نوح، وسعته مع إبراهيم - عليهما السلام - .

٢- يتبين همّه - عليه السلام- في نفيه اليقين الفاسد من قلب ابنه، وذلك لمّا قال: (سآوي إلى جبل)، لأن الذي يثبط الإنسان عن الإيمان بالغيب، يقينه على الأسباب واعتماده عليها، لذلك اجتهد نوح - عليه السلام - في تبديل هذا اليقين، وتحويله على

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٢٧١.
٢- **المرجع السابق**، ج ١١، ص ٢٧١.
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٤٨.

قوة الله تعالى ورحمته، وهكذا الداعي يجتهد على تبديل اليقين في قلوب الناس من المخلوق إلى الخالق، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الأسباب إلى الأعمال، ومن طريق الأغيار إلى سنة المصطفى المختار - صلى الله عليه وسلم.

٣- يتجلى همّ سيدنا نوح - عليه السلام - في سؤاله ربه تعالى المغفرة لابنه بعد اليأس منه في الدنيا، وهو لم يتبين جواز هذا السؤال، ولكن غلبته الشفقة والرحمة.

٤- لا يقتصر الهمّ الدعوي على الغير، بل أيضا من الهمّ الدعوي، الهمّ على النفس، فإذا ترك الأفضل، أو وقع في زلل أو أخطأ، استغفر وأناب وتاب ، ويظهر ذلك في قول سيدنا نوح - عليه السلام -، ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [١] ، مع أنه ترك الأكمل، إلا أنه عدّ نفسه قد أخطأ وأساء، فاستغفر ورجع، وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن باب فعل خلاف الأولى.

١- سورة هود، ج ١٢، آية (٤٧).

المطلب الثالث: دعوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأهله وعشيرته.

أرسل الله محمدا سيد الأولين والآخرين، رحمة للجن والإنس ولكل العالمين، ففتح الله به آذانًا صُمًّا، وأعينا عُميا، وقلوبا غلفًا، فجزاه الله خيرَ ما جزى نبيا عن قومه، و رسولا عن أمته.

وأول ما بدأ به النبي - صلى الله عليه وسلم - دعوته بعد بعثته لأهله وعشيرته،

وتجلت دعوته - صلى الله عليه وسلم - في أهله بدعوته الثُّلة المؤمنة المصطفاة المختارة؛ ليكونوا عونا له في دعوته، فهذه خديجة - رضي الله عنها - أول مَن أسلم، وكانت معينة له في دعوته وناصرة له - عليه السلام - فأصبحت هي وابنتها وسبطيها وصهرها أسياد أهل الجنة، وأضحت نساؤه كلهنّ أمهات للمؤمنين، قال تعالى:﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ٦ ﴾ [1]، وعمّاه فأنعم بهما وأكرم، فأحدهما أسد الله وأسد رسوله، والآخر هو العباس، فقد كان لعظم شأنه يستسقي به الفاروق [2] - رضي الله عنهما- ،وأما أولاد عمومته فقد كانوا له حصنا وسندا، فمنهم علي -رضي الله عنه- يحبه الله ورسوله، ولقد قال له يومًا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى "[3]، ومنهم جعفر الطائر بجناحيه في الجنة، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :" رأيت جعفرا يطير في الجنة مع الملائكة"[4]، وكل هذا الخير وغيره حصائد دعوته وصبره - عليه الصلاة والسلام - على دعوة أهله وعشيرته [5].
ولله در الشافعي حيث قال:

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له [6].

١- سورة الأحزاب، ج ٢١، آية (٦).
٢- (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بالعباس بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا قَالَ: فَيُسْقَوْنَ). أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجمعة، باب : سؤال الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث (١٠١٠)، ج ٢، ص ٣٤.
٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، باب: مناقب علي - رضي الله عنه -، حديث (٣٧٠٦)، ج ٨، ص ٢٤.
٤- أخرجه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب المناقب، باب : مناقب جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، حديث (٣٧٦٣)، ج ٥، ص ٦٥٤، قال الترمذي : حديث غريب، ذكره الألباني في(**السلسلة الصحيحة** " ٣ / ٢٢٦)، وقال : حديث صحيح .
٥- ابن عبد البَر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، ت (٤٦٣هـ)، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، تحقيق : شوقي ضيف، الناشر : وزارة الأوقاف المصرية - القاهرة، ط ١- ١٤١٥ هـ، ج ١، ص٤٠، و ص ٤٢، و ص ٢٨٦ .
٦- الشافعي، محمد بن إدريس، ت (٢٠٤ هـ)، **ديوان الشافعي**، جمع وتحقيق: د. محمد بهجت البيطار، دار القلم - دمشق، ط ٣- ٢٠١٩م، ص ١١٨.

وقال أيضا :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي [1].

ولقد أمره الله تعالى بدعوة الأهل للصلاة، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾ ﴾[2]، أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بأن يأمر أهله بالصلاة و يلازمها معهم، ويصطبر عليها، " وهذا الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم- ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص"[3] .
أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول الصلاة يا أهل البيت [4]

وواجب دعوة الأهل ظاهرة في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ ... ﴾ [5] ، أي : قوا أنفسكم بترك المعاصي وفعل الطاعات، وأهليكم بتربيتهم على الأدب والعلم، والقرآن والدين، فهم أحق بالشفقة من غيرهم، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ "[6] ، فهذا حال مَن يُضيّع أولاده مما يحتاجوا من طعام ولباس وغير ذلك، فكيف بمَن يُضيع دينهم وإيمانهم ![7] .
وقوله: (لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ) يعني :" إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب "[8]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [9]، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أصابه خصاصة نادى أهله: " يا أهلاه، صلوا، صلوا " [10] .

١- الشافعي، **ديوان الشافعي**، جمع وتحقيق: د. محمد بهجت، ص ١٠٢.
٢- سورة طه، ج ١٦، آية(١٣٢).
٣- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٢٦٣.
٤- أحرجه أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك، ج٣، ص٢٥٩، حديث (١٣٧٦٤) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.
٥- سورة التحريم، ج ٢٨، آية (٦).
٦- أخرجه الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري، (ت ٤٠٥ هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ - ١٤١١ هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، حديث (٨٥٢٦)، ج ٤، ص ٥٤٥. (الكتاب مع تعليقات الذهبي)، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.
٧- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٨، ص ١٦٩.
٨- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ٣٢٧.
٩- سورة الطلاق، ج ٢٩، الآيات (٢-٣).
١٠- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر ، (ت ٤٥٨هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد - الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية - ببومباي بالهند، ط ١- ١٤٢٣ هـ ، ج ٤، ص ٥١٨، قال الألباني: حديث ضعيف، (**السلسلة الضعيفة**)، ج ٦، ص ٢٨٠.

ومن الآيات التي فيها دعوة الأهل والعشيرة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1]، " ووجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه، و حتى لا يسبق إلى أذهانهم أن ما يخبرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهوال الوعيد لا يقع عليهم؛ لأنهم قرابة هذا المنذر" [2]، (والأقربون) تأكيد لمعنى العشيرة، وفي ذلك زيادة تأليف قلوبهم، وإجابتهم لدعوته، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِى كَعْبِ بْنِ لُؤَىٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِى مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِى عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِى هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِى نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا [3] "[4].

استنباط الهمّ الدعوي :

يستنبط الهمّ الدعوي لرسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - من حياته الشريفة، وسيرته العطرة، كما وصَفته السيدة عائشة - رضي الله عنها - "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَرْضَى لِرِضَاهُ وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ "[3]، فهو يُترجم الهمّ الدعوي قولا وفعلا من حياته - صلى الله عليه وسلم - لأن الآيات القرآنية يراها الناظر رأي العين في سيرته - صلى الله عليه وسلم - .

ومن الجوانب التي يظهر فيها همّه الدعوي- صلى الله عليه وسلم- ما يأتي:

١- يظهر همّه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان دائما يُعَلِّم أهله أمور دينهم، ويأمرهم بالصلاة كما أمره الله تعالى، فحملوا همّه ونهجه، وأصبحوا له عونا وظهيرا، ومثال ذلك، ما قالته له خديجة - رضي الله عنها - عند بداية البعثة :" كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ،

١- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٢١٤).
٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٢٠٤.
٣- **ببلالها :** صِلُوها بصِلاتِها، (حق صلة الرحم)، ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١١، ص ٦٣.
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب : في قوله تعالى: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)، حديث (٥٢٢)، ج ١، ص ١٣٣.
٥- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري(ت٣٢١هـ)، **مشكل الآثار**، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١ - ١٤١٥ هـ ، حديث (٤٤٣٤)، ج ١١، ص ٢٦٥. تحقيق الألباني: (صحيح لغيره)، **صحيح وضعيف الجامع الصغير**، حديث (٨٩٤٢)، ج ١، ص ٨٩٥.

وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ ..." [١]، فظهر عظيم همّه - عليه الصلاة والسلام - بحمل آل بيته لهمّه ونهجه - رضي الله عنهم أجمعين - .

٢- يتجلى همّه - صلى الله عليه وسلم - في صبره على دعوة عشيرته، فبعد أن ناداهم على الصفا، وأخبرهم أنه نذير من عند الله تعالى، بين يدي عذاب شديد، لم يلبث النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد كلامه معهم إلا قليلا، فإذا بهم مباشرة قد أعلنوا العِداء والتكذيب، فقال له أبو لهب: " تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [٢] "[٣]. فعادوه واتهموه وكذبوه، لكن صبر واحتسب امتثالا لأمر الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ ﴾ [٤] .

٣- من مظاهر اهتمامه بأهله -صلى الله عليه وسلم- أنه أوجب حبهم والاهتمام بهم، والتحذير من أذيتهم، فقال تعالى على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - :﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٥]، قال الفخر الرازي: " والحاصل: أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " [٦]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- : " إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّى يُؤْذِينِى مَا آذَاهَا " [٧]. وقد سنّ لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - ذكر آل البيت والصلاة عليهم في كل صلاة [٨]، ويدل هذا على تعظيم رسولنا الكريم لأهله وعترته، وكل هذا دلائل على حرصه على آل البيت - رضوان الله عليهم جميعا - .

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب: كيف بدء الوحي على رسول الله - صلى الله عليه السلام -، حديث (٣)، ج ١، ص ٢.

٢- سورة المسد، ج ٣٠، آية (١).

٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ...}، حديث (٤٧٧٠-) ، ج ٦، ص ١٤٠.

٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٢١٤).

٥- سورة الشورى، ج ٢٥، آية (٢٣).

٦- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٧، ص ٥٩٦ .

٧- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حديث (٣٤٣٧)، ج ١٢، ص ٨٢.

٨- الشربيني، الشيخ محمد محمود ، **مرشد الخلان على مذهب أبي حنيفة النعمان**، دار النور - الأردن، ط ١ - ٢٠١٦م، ص ٨٢.

المبحث الثاني

الهم الدعوي عند الأنبياء مع أصحابهم

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: دعوة سيدنا عيسى عليه السلام للحواريين.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا يوسف عليه السلام لأصحاب السجن.

المطلب الثالث: دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأبي بكر- رضي الله عنه- في الغار.

تمهيد

مدح الله تعالى الصحبة التي تعين على التقوى والإيمان وطاعة الرحمن، والتي تدوم في الدنيا والآخرة، قال الله - عز وجل- : ﴿ الأَخِلاَّء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [1]، وحذر المولى - عز وجل - من صاحب السوء، الذي يصد عن سبيل الله وطاعته، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [2]، نزلت هذه الآيات في عقبة بن أبي مُعيط، ومَن على شاكلته، الذين ارتدوا على أعقابهم بعد طاعتهم، قال الطبري: "وكان عُقْبَةُ خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً، فكفر وارتد لرضا أمية، فأنزل الله تعالى هذه الآية "[3].

وقد بشّر الله تعالى الطائعين أنهم رفقاء للأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ومن شواهد هذه البشرى، أن رجلا من الأنصار جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَوَلَدِي وَأَهْلِي وَمَالِي، وَلَوْلَا أَنِّي آتِيكَ فَأَرَاكَ لظننت أَنِّي سَأَمُوتُ، وَبَكَى الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَا أَبْكَاكَ ؟، قَالَ: ذَكَرْتُ أَنَّكَ سَتَمُوتُ وَنَمُوتُ فَتُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَنَحْنُ إِنْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ كُنَّا دُونَكَ، فَلَمْ يُخْبِرْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِشَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [4] فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَبْشِرْ " [5]، وهذه الرفقة المرجوة لأهل الإيمان والإحسان.

والصاحب: مَن كَثُرت ملازمته لشيء يحبه، يظهر فيه اهتمامه له وحرصه عليه[6]، ومن هنا أُطلِق على أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - (الصحابة)؛ لكثرة ملازمتهم للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وفي هذا المبحث ذكرٌ لمَن صاحبوا الأنبياء - عليهم السلام - وبيان جهدهم على من لازمهم.

١- سورة الزخرف، ج ٢٥، آية (٦٧).
٢- سورة الفرقان، ج ١٩، الآيات(٢٧ - ٢٩).
٣- الطبري، **جامع البيان**، ج ١٩، ص ٢٦٢.وقد صححه الألباني: **صحيح السيرة النبوية** ، ج ١ ، ص ٢٠٠.
٤- سورة النساء، ج ٥، الآيات (٦٩ - ٧٠).
٥- - البيهقي، **شعب الإيمان**، باب : حب النبي - صلى الله عليه وسلم - ج ٢، ص ٥٠٤، حديث (١٣١٧) . أورده الألباني في **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ج٦، ص١٠٤٤، حديث رقم (٢٩٣٣)، وقال:" صحيح بشواهده).
٦- انظر : المناوي، **التوقيف على مهمات التعاريف**، ج ١، ص ٤٤٥.

المطلب الأول: دعوة سيدنا يوسف- عليه السلام - لأصحابه في السجن.

إنه النبي الصدّيق يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -، رأى ذات يوم رؤيا فأخبر أباه بها، قال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [1]، فأجابه أبوه: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [2]، وفعلا، كادوا له وأرادوا به سوءا، فتشاوروا وكان القرار، ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [3]، هم أرادوه في البئر، والله أراده في القصر، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[4]، وبعد ما وضعوه في الجبّ، تأتي قافلة من تلك الطريق، فيرسلوا أحدهم ليأتيهم بالماء.

وكانت المفاجأة:﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ [5]، وبعد ذلك اشتراه عزيز مصر،﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ [6]، أي: " (عَسى أنْ يَنْفَعَنا) أي: يكفينا بعض المهمات إذا بلغ، (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً).

ومكث - عليه السلام - في قصر العزيز حتى أصبح شابا قويا أعطاه الله تعالى من الجمال ما أعطاه، فلقد رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أُسْرِيَ به، قال: " ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ- صلى الله عليه وسلم-، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ - صلى الله عليه وسلم- إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ"[7] ، وسنة الله تعالى في عباده الصالحين الابتلاء والتمحيص، فابتلاه الله بامرأة العزيز، بعد ابتلاء إخوته وبُعْده عن أبيه، وكانت امرأة العزيز هيأت له نفسها وفراشها حتى يقع بها، قال الله عز وجل :﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [8].

١- سورة يوسف، ج١٢، آية(٤).
٢- سورة يوسف، ج١٢، آية(٥).
٣- سورة يوسف، ج ١٢، آية(١٠).
٤- سورة يوسف، ج ١٢، آية(٢١).
٥- سورة يوسف، ج ١٢، آية(١٩).
٦- سورة يوسف، ج ١٢، آية(٢١).
٧- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم، حديث(٤٢٩)، ج ١، ص ٩٩.
٨- سورة يوسف، ج ١٢، آية(٣٢).

ودخل عليها العزيز ووجد يوسف - عليه السلام - عندها، فمن دهائها بادرت باتهامه بالفاحشة ،﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا﴾ [1]، وبدأ التحقيق في المسألة، وتبين أن يوسف - عليه السلام- بريء وهي الجانية، (إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)[2].

وانتشر نبأ امرأة العزيز في المدينة، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[3]، فلما سمعت بقولهن الذي كان الهدف منه المكر بها ليَرَين يوسف - عليه السلام -، دعتهن وأعَدت لهن طعاما، وأعطت كل واحدة منهن سكينا، ثم قالت ليوسف: أُخرج عليهن، فلما رأينه عظمّنه[4] حتى قلن:﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[5].

ولمّا تواطأت امرأة العزيز مع النسوة عليه، قال يوسف - عليه السلام -:﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[6]، فاستجاب الله تعالى له دعاءه وصرف كيد النسوة عنه[7].

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾[8].

١- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٢٥).
٢- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٢٨).
٣- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣٠).
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٢٨٥.
٥- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣١).
٦- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣٣).
٧- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٢٨٧.
٨- سورة يوسف، ج ١٢، الآيات (٣٥- ٤١).

تفسير الآيات:

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أي : ظهر للعزيز وأهل مشورته، أن يسجنوا يوسف- عليه السلام -، من بعد ما رأوا آيات براءته، من قدّ قميصه من دبر، (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُر)[١]، وشهادة الشاهد، (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا)[٢]، والإصرار منها على المعصية، (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ)[٣]، وبعد هذا كله سُجِن ظلما وزورا حتى لا تشيع قصة امرأة العزيز فيُفتضح أمرها في العامة، وحتى تهدأ الأمور وتُنسى الحادثة.

وكان قد أشتُهر في مصر كهنة [٤] يصدقهم الناس ويعظمونهم [٥]، وقد أيد الله تعالى يوسف - عليه السلام - بتعبير الرّؤى؛ لتكون من دلائل صدق رسالته، قال الله تعالى: (وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)[٦]، وقد رأى كِلا من الفتيَين رؤيا، (قال أحدهما)، وهو الساقي، (إني أراني أعصر خمرا) أي: رأيت في المنام أني أعصر الخمر، وسمّاه خمرا باعتبار ما سيكون؛ لأن الخمر لا يُعصر، (وقال الآخر) يعني: الخبّاز، (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه) أي: كأن العزيز أخرجني من السجن، وأعطاني خبزا، فوضعته على رأسي، فَجَعَلت الطير تأكل وتنهش من هذا الخبز ، (نبئنا بتأويله)، أي: أخبرنا بتعبير هذه الرؤيا، (إنا نراك من المحسنين)، في الأخلاق وحسن المعاملة، فأحْسِن لنا في تعبيرك لهذه الرؤيا [٧].

أراد يوسف- عليه السلام - لمّا رأى إقبالهما عليه لتعبير الرؤيا - اغتنام هذه الفرصة لدعوتهما إلى التوحيد والإيمان، فأظهر لهما من العلم فوق علم الكهنة، ومن ذلك علم المكاشفة للطعام من لون وصنف قبل أن يصل إليهما،(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)، وكأنه- عليه السلام - وقّت لهما تعبير الرؤيا قبل أن يأتي الطعام، لِمَا ذكره بعض أهل التفسير أن كلمة (بتأويله) معود إلى المنام لا إلى الطعام [٨].

١- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٢٥).
٢- سورة يوسف، ج١٢، آية (٢٦).
٣- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣٢).
٤- **الكاهن:** الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي مما هو كائن، وهذا مما يسترق الجن، ويكذبون عليه مئة كذبة . انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٣، ص ٣٦٢.
٥- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٢، ص ٦٠.
٦- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٢١).
٧- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٣، ص ٢٧٨.
٨- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٢، ص ٦١.

فاغتنم يوسف-عليه السلام- حاجتهم لتعبير رؤياهم قائلا لهم: اسمعوا عن الإسلام والتوحيد، فقال: (ذلكما مما علمني ربي) أي: أن علمي بتأويل الرّؤى، وما ترزقانه من طعام، هو من علم الغيب الذي علمني إياه ربي سبحانه وتعالى، وليس تكهنا مما عند البشر، وذلك أدْعى لازدياد رغبتهم في السماع، والوثوق به، ويثير في نفوسهم السؤال عن كيفية الحصول لهذا العلم فيجيبهم، وتكون الإجابة متضمنة للدعوة إلى الله، فقال- عليه السلام - موضحا ومبينا غاية البيان:(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) أي: هذا العلم سببه؛ لأني تركت دينَ وشريعة قوم كَفَروا بالله وأنكروا البعث، وكأنه أراد الكنعانيين خاصة، وهم الذين نشأ فيهم، وأراد التعريض بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك [1] .

ثم أكمل البيان في سبب حصوله على هذا العلم، قال: (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ "[2]، وذكر آباءه؛ للإشادة بفضلهم، وإظهارا لسابقية الصلاح فيه، وأنه متسلسل من آبائه، وقد عقله من أول نشأته ثم أُيّد بما علمه ربه، فنال بذلك الشرف العظيم [3]، وهذا من التمهيد لدعوتهم، (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) أي: ما صح في حقنا معشر الأنبياء أن نشرك أي شرك كان، (ذلك)، التوحيد، (من فضل الله علينا) بأن علمنا إياه بالوحي المُنْزَل على مَن يختاره الله من عباده؛ لحمل الرسالة، (وعلى الناس)أي: هذا الفضل واضح بتكليف الأنبياء إيصال الرسالة إلى جميع مَن أُرسلوا إليهم دون استثناء، وأن يتحملوا في هداية الناس الأعباء الثقيلة من اتهامات بالجنون، والسفه، والسحر، والكهانة، والضعف، وغير ذلك من الصعوبات [4].

(ولكن أكثر الناس لا يشكرون) نعمة بعثة الأنبياء لهم، وسماع النصائح والمواعظ والزواجر، حتى يهتدوا ويرشدوا، وهم عن هذه النعمة في غفلة عن شكرها.

وبدأ نور الدعوة يَقشع ظلام الشرك، فقال: (يا صاحبيِّ السجن).أي: يا صاحبيّ في السجن، وإنما أضاف الصحبة للسجن، للمدة القليلة في مرافقتهما [5]، ومن حكمته - عليه السلام - استخدم أسلوب النداء للملاطفة، والمقارنة للمفاضلة، ليقيم عليهما الحجة بالعقل والتأمل.

١- انظر: **المرجع السابق**، ص ٦٢.
٢- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ }، حديث (٤٣٢٠)، ج ١٤، ص ٢٧٢.
٣- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٢، ص ٦٣.
٤- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٣، ٢٧٨.
٥- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٢، ص ٤٧١.

فقال: (ءأرباب متفرقون)، والرّبُّ: " المُصْلِح للشّيء. والله جلّ ثناؤه الرَّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خَلْقه "[1]، متفرقون: بمعنى مختلفة كثيرة، أي: أهذه الآلهة الكثيرة في تصرفاتها في اعتقادكم الباطل، المختلفة في أشكالها، أفضل؟! أم أن تعبدوا إلها واحدا في أفعاله وتصرفاته، قاهر لخلقه بما يريد، فإن آلهتكم لا تعرف مصالكم مما ينفع ويضر، أو تُشَرع لكم حلالا وحراما، تَصْلحُ بها دنياكم وأُخراكم، كما قال عدي بن حاتم - رضي اله عنه - ، قال :" أتيت - النبي صلى الله عليه و سلم - وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّه)، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه"[2]، وهو كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [3].

(ما تعبدون) أنتم ومن على دينكم، وكان أهل مصر قد انتشر عندهم عبادة الأوثان، (من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و ءابآؤكم) أي: أنتم في الحقيقة لا تعبدون آلهة، أنتم تعبدون أشباء سمّيتموها آلهة، كالحجارة، والنجوم، والكواكب، والخشب، لأنه ليس هناك إله يستحق العبادة إلا الإله المتصف بصفات الألوهية والربوبية، من المُلك، والرزق، والنفع، وكشف الضر، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال .

(ما أنزل بها من سلطان) أي: لم ينزل الله على عبادة هذه الآلهة التي اتخذتموها من حجة ولا دليل ولا برهان، إن هو إلا من اتباع وساوس الشياطين، وهوى الأنفس، والاقتداء بضلال الآباء [4] .

(إن الحكم إلا لله) أي: أمْرُ استحقاق العبادة حُكمُه لله تعالى وحده، لا شريك له، ولا ند له، هو الله الأحد، الفرد الصمد، (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)[5]، وأن هذه الآلهة المزعومة لا حكم لها.

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه) بعبادته وحده، ولم يأمر بعبادة مَن سواه، وفيه انتقال من إثبات الألوهية عن طريق الحجة، إلى إثباتها عن طريق الانقياد لأوامره ونواهيه، لأن من مقتضيات الاعتقاد الانقياد [6].

١- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٣١٤.
٢- أخرجه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، باب : سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥)، ج ٥، ص ٢٧٥. قال الترمذي : "حديث غريب"، قال الألباني :" حديث حسن"، في (**صحيح وضعيف سنن الترمذي**)، ج ١، ص ٩٦، حديث (٣٢٩٣).
٣- سورة الزمر، ج ٢٤، آية (٢٩).
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٩٠.
٥- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٢٦).
٦- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٣، ص ٢٧٩.

(ذلك الدين القيم)، قَيِّم: مُسْتَقِيم حسَن، والدين القَيِّمُ: المستقيم الذي لا زَيْغ فيه ولا مَيْل عن الحق، وقوله تعالى : (كُتب قيِّمة)[1] أي: مستقيمة تُبيّن الحقّ من الباطل ... (دِين القَيِّمة) أي: دين الأمةِ القيّمة بالحق [2].

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) دلائل التوحيد، كقوله تعالى: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّه)[3]، فالضلال هو حال أكثر أهل الأرض من بني آدم [4]، وكما قال تعالى: (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ) [5].

ثم بعد أن دعاهم إلى التوحيد، عبّر لهم الرّؤيا، (يا صاحبي السجن) والنداء: للتلطف والاهتمام [6]، (أما أحدكما فيسقي ربه خمرا) أي: أن الساقي يخرج من السجن ويرجع إلى خدمة الملك، (وأما الآخر) الخبّاز، (فيصلب فتأكل الطير من رأسه)، والصلب: "وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودا على خشبة ثم قتله عليها طعنا بالرمح في موضع القتل" [7]، وتأتي الصقور والنسور تأكل من رأسه، وقوله: (وأما الآخر) ولم يعينه؛ كي لا يُحْزِنه.

ثم قال يوسف ليُنهيَ الأمر: (قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان) أي: أن تعبيري لِما رأيتما واقع لا محالة، كقول القاضي إذا قضى في مسألة وقع قوله، ولأن تعبيره مؤيدٌ بالوحي، (تستفتيان) " استفتَيت : إذا سألتَ عن الحكم"[8]، وهو: الإخبار بإزالة مُشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة، كأن الرّؤى علم مستقل تحتاج إلى مفتي متخصص، شأنها شأن المسائل الفقهية.

وهكذا فسّر يوسف - عليه السلام - الرّؤيا لصاحبيه بعد ما دعاهما إلى الإيمان والتوحيد، ولبث في السجن بضع سنين، قال تعالى :﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [9]، حتى ظهرت الحقيقة، وخرج من السجن، وأصبح بعد ذلك عزيز مصر.

١-سورة البينة، ج٣٠، اية(٣)
٢- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٢، ٤٩٦.
٣- سورة الأنعام، ج ٨، آية (١١٦).
٤- ينظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص٣٢٢.
٥- سورة الصافات، ج ٢٣، آية (٧١).
٦- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٢، ص ٦٦.
٧- **المرجع السابق**، ج ٥، ص ٩٣.
٨- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٤، ص ٣٧٧.
٩- سورة يوسف، ج ١٢، آية(٤٢).

استنباط الهمّ الدعوي:

١- مما يدل على همّه - عليه السلام - استعداده لتحمل مشاق السجن عن الوقوع في الفاحشة، وذلك حفاظا على سمعة مَن ينتسب إليهم من سلالة الأنبياء المبعوثين، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب - عليهم السلام -، وحفاظا على سمعته هو كمُرْسل وداعية إلى الله في مصر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [١]، فكيف يرضى أن يقع بالفاحشة بعد هذا التفضيل؟!، فشعوره بالخوف من الله أولا، وخوفه على دعوة آبائه ودعوته هو - عليه السلام - دفعه لترك الفاحشة، وكذلك الداعي الناجح الذي يبتعد عن أي شبهة تُسيء لسمعته؛ لأن السمعة الحسنة، والسيرة الطيبة من مقومات الدعوة القوية.

٢- ومن دلائل الهمّ الدعوي، إظهار العجز والضعف لله تعالى، وأن المرء مهما بلغت قوة إيمانه تبقى النفس البشرية ضعيفة، فلا نجاة لهذه النفس إلا باللجوء إلى التضرع والدعاء، والاحتماء بتوفيق الله وعصمته من شهوات الدنيا، وخاصة النساء؛ لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - قَالَ:" مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ "[٢]، وهذا ما دفع يوسف- عليه السلام - أن يدعو الله ويشكو حاله له سبحانه وتعالى؛ خوفا من أن يميل إليهن.

٣- ومن دلائل همّه على دعوته ونشر دينه، أنه دعا إلى الله في أصعب الظروف، وأحلك المصاعب، في ظلام السجون، وظُلمٍ ذي شجون، وهذا يدل أن توحيد الله، ونبذ الشرك والكفر كان منهاج حياة، وديدن قلب، ومجرى دم، فتكلم معهم في الدعوة رغم هذا كله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٤- ومما يدل على همّه في دخول الناس إلى الدين الصحيح، إحسانه وأخلاقه مع أصحاب السجن، وهذا بشهادةٍ منهم، (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)[٣]، فاطمأنت قلوبهم ونفوسهم إليه، فقصوا عليه الرؤيا، فالإحسان قبل البيان، والإكرام قبل الكلام، حتى يحب المدعو الداعي، فيستجيب لدعوته.

٥- من همّه أيضا، إظهار ما عنده من العلم ما ليس عند غيره من الكهنة والكفرة، حتى يسلب قلوبهم وسمعهم، فيكون أقرب لقبول كلامه، وذلك عندما قال لهما إنه يستطيع إخبارهما بما سيأتيهما من الطعام قبل أن يصل، وأيضا إظهار شرف نسبه وسلالته: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ)، من سبُل الترغيب

١- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٣٤).

٢- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، حديث(٥٠٩٦)، ج ٧، ص ١١.

٣- سورة يوسف، ج١٢، آية (٣٦).

لسماعه؛ فهو من نَسَبٍ عظيم، وهذا ليس تكبرا ولا فخرا، وإنما نعمة من الله تعالى، ولقد أحال الفضل لله تعالى، فلو أظهر الداعي للمدعو شيئا من علمه أو قدرته على فعل شيء يُرَغّب في استجابته لدعوته، فلا بأس بذلك، مع أهمية أن هذا الفضل هو بفضل الله وكرمه.

٦- استخدامه - عليه السلام - عدة أساليب في الدعوة، فمن أسلوب نفي الشرك والكفر، إلى أسلوب إثبات الألوهية والربوبية لله تعالى، ومن أسلوب مخاطبة العقل، إلى أسلوب مخاطبة القلب والوجدان، وفيه الحرص على إيصال الدّين بالأشكال والإمكانيات المتاحة كافة.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا عيسى - عليه السلام - للحواريين .

أرسل الله تعالى عيسى - عليه السلام - إلى بني إسرائيل ببينات ومعجزات كثيرة، وذلك حتى يؤمنوا بالله وحده وبرسوله - عليه أفضل الصلاة والتسليم -، وحتى يُصَحح ويبين ما وضع الأحبار في التوراة ما ليس منها، وليُحِل لهم بعض الذي حرمه الله عليهم؛ بسبب جرائمهم وجناياتهم [1]، قال تعالى مخبرا عن دعوة عيسى - عليه السلام - لقومه : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١ ﴾ [2]، ولكن كعادتهم كفروا وعاندوا، بل أرادوا قتله، فعصمه الله من مكرهم ورفعه إليه، قال الله - عز وجل -:﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ ﴾ [3].

وقد اصطفى الله تعالى لنبيه عيسى - عليه السلام - مَن ينصره ويؤيده، قال تعالى :﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١ ﴾ [4]، و قال تعالى:﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣ ﴾ [5].

وقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾ [6].

١- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٨، ص ٢٣١.
٢- سورة آل عمران، ج ٣، الآيات (٤٩ - ٥١).
٣ - سورة النساء، ج ٦، الآيات (١٥٧ - ١٥٨).
٤ - سورة المائدة، ج ٧، آية (١١١).
٥ - سورة آل عمران، ج ٣، آية (١٥٢).
٦- سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٤).

تفسير الآيات:

قال تعالى: (وإذ أوحيت إلى الحواريّين)، وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى : (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)[1]، وفيه إظهارٌ لنعمة الله تعالى على عيسى - عليه السلام - بحيث جعل له أتباعا يؤمنون به ويصدقونه، حتى يتجدد له الثواب باهتداء الناس من بعده، لِمَن اتبع دينه وشريعته [2].

والمراد بالوحي: إلهام الحواريّين الإيمان والتصديق عند سماع دعوة عيسى - عليه السلام - [3].

وذلك لمّا دعا عيسى - عليه السلام - بني إسرائيل كفر أكثرهم، (فلما أحس عيسى منهم الكفر)، والإحساس : حصول العلم اليقيني لإدراكه بالحاسة، أي : سمع عيسى من بني إسرائيل الكفر بأذنه، فتَيَقن كفرهم [4]، وعند ذلك طلب النصرة لدينه ودعوته، فقال: (مَن أنصاري إلى الله)، كما فعل ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما دعا قبائل العرب، قال: " مَن يؤويني مَن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة"[5]، ولعل عيسى - عليه السلام - قال ذلك في جمعٍ لبني إسرائيل إبلاغا للدعوة، وقطعا للمعذرة، "والنصر: يشمل إعلان الدين والدعوة إليه" [6]، إذ لا بد لحصول النصر من تحصيل أسبابه ، كما هي سنة الله تعالى، قال المولى - عز وجل-: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) [7]، و إضافة (إلى) مع لفظ الجلالة(الله) تفيد معنى (مع) أي : كأن سيدنا عيسى- عليه السلام - قال: مَن يضيف نصرته مع نصرة الله لي [8].

فجاءت الاجابة،(قال الحواريّون) وهم صفوة الأنبياء وخاصتهم، ويطلق على كل ناصر ومؤيد [9]، وهو لفظ أطلقه القرآن على أصحاب عيسى - عليه السلام - الذين أيدوه ونصروه، ويؤيد هذا الكلام قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ " [10] .

---

١ - سورة المائدة، ج ٧، آية (١١٠).
٢ - انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٥، ص ٢٦٢.
٣ - **المرجع السابق**، ص ٢٦٢.
٤ - انظر: الفرّاء، أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء، (ت ٢٠٧ هـ)، **معاني القرآن**، تحقيق: عماد الدين آل الدرويش، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤٢٣ هـ ، ج ١ ، ص ١٧٠.
٥ - الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الهجرة الأولى، حديث (٤٢٥١)، ج ٢، ص ٦٨. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.
٦ - ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣، ص ١٠٥.
٧ - سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ج ٢٦، آية (٧).
٨ - انظر: الفرّاء، **معاني القرآن**، ج ١، ص ١٧٠ - ١٧١.
٩- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ٢١٧.
١٠ - أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد، باب: فضل الطليعة، حديث (٢٨٤٦)، ج ٤، ص ٣٣.

(نحن أنصار الله) أي : أنصار دينه وأنبيائه وأوليائه، وحربا على أعدائه، وهذه النصرة من مقتضيات الإيمان، الذي شَهدوا به لله تعالى، أو أشهدوا عليه عيسى - عليه السلام -، (واشهد بأنّا مسلمون) وعبّر عن إيمانهم بالإسلام؛ لأنه كان تصديقا راسخا قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامة من آمن بالمسيح، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى - عليه السلام -، وهو إيمان الأنبياء والصدّيقين [١] .

ونادى الله تعالى أهل الإيمان من الصحابة ومَن تبعهم، وأمرهم أن يبصروا دين الله وشريعة رسوله محمد- صلى الله عليه وسلم -، قال الله عز وجل : (يا أيها الذين ءامنوا كونوا أنصار الله)، شبّه الله تعالى النصر الذي يريده من الصحابة - رضي الله عنهم - بالأسوة العظيمة من أحوال المُخلصين من المؤمنين السابقين، وهم (أصحاب عيسى - عليه السلام -) الذين نصروه مع قلة عددهم وضعفهم [٢].

فأمر الله المؤمنين بنصر الدين وهو نصر غير النصر الذي بالجهاد؛ لأن ذلك تقدم التحريض عليه في آية سبقت آية طلب النصرة، وهو قوله تعالى: ﴿... وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ ﴾ [٣]، ووعدهم بأن ينصرهم الله، قال تعالى : (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [٤] ، فهذا النصر المأمور به هنا نصر دين الله الذي آمنوا به، بأن ينشروه ويثبتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من الأذى والتعذيب، وهذا النصر تحقق للحواريين لذبهم عن دين الله وصبرهم عليه، فإن عيسى عليه السلام لم يجاهد مَن عاندوه، ولا كان الحواريون مِمَن جاهدوا، ولكنّه صبر وصبروا حتى أظهر الله دين النصرانية، وانتشر في الأرض [٥] .

وفرع على قول الحوارين (نحن أنصار الله) الإخْبار بأن بني إسرائيل افترقوا طائفتين، طائفة آمنت بعيسى - عليه السلام - وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك، قال تعالى : (فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ)[٦]، وهذا التفريع يقتضي كلاما مقدرا وهو: فنصروا الله بالدعوة والمصابرة عليها، فاستجاب بعض بني إسرائيل وكفر الآخرون، وإنما استجاب لهم من بني إسرائيل عدد قليل، قرابة السبعين [٧].

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٥، ص ٢٦٣.
٢ - القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٨، ص ٨٩.
٣ - سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٠).
٤- سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٣).
٥- انظر : ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ١٧٩.
٦- سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٤).
٧- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ١٨١.

(فأيدنا الذين ءامنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)، في الآية قولان :

١- أنّ الله تعالى جعل عاقبة النصر للحواريّين على اليهود الذين كفروا بعيسى - عليه السلام - وعذبوا الحواريّين، وذلك بأن مكنهم الله منهم ومزقوهم كل ممزق [١].

٢- أيدناهم ببعثة محمد- صلى الله عليه وسلم - بإظهار دينه على دين الكفار، فصار الإسلام مؤيدا لما ءامنوا به ومصدقا لهم، غالبا على مَن كذّب بعيسى - عليه السلام - ومَن معه، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال:

" لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً - مِنْ عين فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ : أَمَا إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ أَيُّكُمْ سَيُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ، فَقَالَ : أَنَا، فَقَالَ عِيسَى : اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ : أَنَا، فَقَالَ : نَعَمْ أَنْتَ ذَاكَ ، قَالَ : فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى.

قَالَ : وَرُفِعَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - مِنْ رَوْزَنَةٍ [٢] كَانَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ صَلَبُوهُ ، وَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، فَتَفَرَّقُوا ثَلاَثَ فِرَقٍ، قَالَ : فَقَالَت فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا اللَّهُ مَا شَاءَ ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهَؤُلاَءِ (الْيَعْقُوبِيَّةُ) ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللهِ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلاَءِ (النَّسْطُورِيَّةُ) ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : كَانَ فِينَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلاَءِ الْمُسْلِمُونَ.

فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ، فَقَاتَلُوهَا فَقَتَلُوهَا، فَلَمْ يَزَلَ الإِسْلاَمُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: (فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) يَعْنِي: الطَّائِفَةَ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى، (وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ) يَعْنِي: الطَّائِفَةَ الَّتِي كَفَرَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى، (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) فِي زَمَانِ عِيسَى (عَلَى عَدُوِّهِمْ) بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ (فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)" [٣].

١- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ١٨٢.

٢- **الرَّوْزَنَة :** الخَرْقُ فِي أعلى السَّقفِ . ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل ، (ت ٤٥٨ هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط - ٢٠٠٠م، ج ٩، ص ٢٦.

٣- الطبري، **جامع البيان**، ج ٢٣، ص ٣٦٧. وذكر نحوه، الحاكم، **المستدرك**، ج ٢، ص ٥٢٩، حديث (٣٨٠٧)، قال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

استنباط الهمّ الدعوي :

١- يظهر الهمّ الدعوي في قصة عيسى - عليه السلام - مع الحواريّين، عندما ظهر كفر قومه، فانتدب لنصرة دعوته الحواريّين، فعلّمَهم واجتهد على تربيتهم، حتى أصبح إيمانهم مماثلا لإيمان عيسى - عليه السلام -، ولذلك قالوا:﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [١]، ودليل صدقهم في نصرة دعوة عيسى - عليه السلام - أن الله تعالى ضربهم مثلا يحتذى به للصحابة - رضي الله عنهم - فقال تعالى: (كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ)[٢]، ويكفي لهم رفعة أن الله شهد لهم بالإيمان به وبرسوله، والنصرة لدين عيسى - عليه السلام - بأن أطلق عليهم في القرآن المجيد (الحواريّون)، فلو لم يكونوا على قدر هذه المنزلة، ما استحقوا أن يذكروا إلى يوم القيامة، وأن نعبُدَ الله بتلاوة أقوالهم.

٢- يتجلى همّ سيدنا عيسى - عليه السلام - على أصحابه، بالخوف عليهم، وسرعة نصحهم، واستعداده لفعل أي شيء مقابل ثباتهم على دينهم، والشاهد على هذا الكلام، قوله - عليه السلام - عندما سأل الحواريّون نزول المائدة، ليس شكّا في قدرة الله تعالى، ولا تكذيبا لعيسى - عليه السلام -، كيف ذاك؟! وقد قالوا : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [٣]، ولكنهم أرادوا أن ينتقلوا من إيمان الخبر والنظر إلى يقين المعاينة والمشاهدة، فيزدادوا طمأنينة ويقينا[٤] ، كما قال سيدنا إبراهيم - عليه السلام-﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [٥]، فظهر خوفه وهمّه - عليه السلام - فقال لهم : (اتَّقُواْ اللَّهَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أي : أمرهم أن يتقوا الله في هذا السؤال، وفي طلب هذه المعجزة؛ لأنهم قد حصل لهم الإيمان برؤيتهم للمعجزات السابقة من إحياء للموتى، وشفاء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من المعجزات، فلماذا تطلبون معجزة أخرى؟! (إن كنتم مؤمنين) بالله وما جئت به، ومع هذا قام سيدنا عيسى - عليه السلام - ودعا الله بما طلبوا،﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[٦]، وهذا دال على همّه - صلى الله عليه وسلم- على أصحابه في توحيدهم لله، والثبات على طاعته.

١- سورة آل عمران، ج ٣، آية (٥٣).
٢- سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٤).
٣- سورة آل عمران، ج ٣، آية (٥٣).
٤- انظر : القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٥.
٥- سورة البقرة، ج ٣، آية (٢٦٠).
٦- سورة المائدة، ج ٧، آية (١١٤).

المبحث الثالث

الهم الدعوي عند الأنبياء مع اصحاب النفوذ والحكم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمرود.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا موسى عليه السلام لفرعون.

تمهيد

أمَرَ الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة نبيه الكريم - صلى الله عليه وسلم - ، وأمر سبحانه أيضا بطاعة أصحاب الحُكم وأولياء الأمور؛ لأنهم هم أصحاب النفوذ في تنفيذ العدل ونشره بين العباد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [1]، وقال رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: " مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي" [2].

وأولو الأمر: هم أصحاب الأمر، والأمر: هو الشأن، أي: ما يهتم به من الأحوال والشؤون، فأولو الأمر من الأمة ومن القوم: هم الذين يَسند الناس إليهم تدبير شؤونهم، ويعتمدون في ذلك عليهم، فيصير الأمر كأنه من خصائصهم، فلذلك يقال لهم: ذوو الأمر، أو أولو الأمر [3].إذن: فالحاكم أو الوالي: هو المسؤول عن رعيته، فعليهم الطاعة له ما دام يأمرهم بالمعروف، فإن أمرهم بمعصية فلا طاعة له، فعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّ تُطِيعُونِي، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ: بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - فِرَارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا؟!، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا،ا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " [4].

لذلك توجهت جهود الدعاة إلى دعوة الملوك، والحكّام، والأمراء، والوُجهاء؛ لأن من عادة الناس اتباع عَلْيَة القوم والاجتماع حولهم، فإن أسلموا أسلم الناس، وإن كفروا كفر الناس، قال تعالى - مخبرا عن كبار القوم وأتباعهم مِمَن كفروا فأُدخِلوا النار- :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ [١].

تبين هذه الآيات حال السادة وحال مَن تبعهم وأطاعهم، ولهذه المكانة التي أُبتليَ بها السادة والملوك، كان الدعاة حريصين على دعوتهم وإيمانهم، بل إنهم جاهدوهم وقاتلوهم إن أبوا وعاندوا، كما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتال كسرى وقيصر.

فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يرسل إلى هرقل - ملك الروم - رسالة

يقول فيها :" فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[٢] "[٣]، قال ابن حجر: " وفي الكلام حذف، دل المعنى عليه، وهو: فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين؛ لأنه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنهم تبعوه على استمرار الكفر، فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى، وهذا يعد من مفهوم الموافقة، ولا يُعَارض بقوله تعالى: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)[٤]؛لأن وزر الإثم لا يتحمله غيره، ولكن الفاعل المتسبب والمتلبس بالسيئات يتحمل من جهتين: ١- جهة فعله، ٢- جهة تسببه " [٥].

وهذا هو سيد الأنصار سعد بن معاذ - رضي الله عنه - بعد إسلامه على يد مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يذهب إلى قومه ليدعوهم ويتبعوه بما له من السيادة عليهم: " يا بنى عبد الأشهل: كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيا، وأيمننا وأبركنا نقيبة وأمرا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في داري، أي: قبيلة بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة، فأسلموا في يوم واحد كلهم" [٦].

وفي هذا المبحث سيتم عرض بعض النماذج القرآنية من دعوة الأنبياء للملوك والحكّام.

١- سورة سبأ، ج ٢٢، الآيات (٣١ - ٣٣).
٢- **الأريسِيِّينَ :** الأمراء، أو الفلاحون نسبة لعملهم في تلك الأرض. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٦، ص ٤.
٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدْء الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث (٧)، ج ١، ص ٤.
٤- سورة الزمر، ج ٢٤، آية (٧).
٥- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج ١، ص ٣٩.
٦- الحلبي، **السيرة الحلبية**، ج ٢، ص ١٧١.

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - للنمرود.

كان النمرود أول مَن مَلَكَ الأرض شرقها وغربها، وجاء في كتب التفاسير أن اسمه: نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: ابن كنعان، وسليمان بن داود - عليهما السلام - ، وذو القرنين - رضي الله عنه - ، ونبوخذ نصر، مُسلمَين وكافرَين [١]، وكان النمرود مَلِكا جبّارا يقتل النساء والأطفال، ويظلم الناس في معيشتهم، وكان يسكن مدينة بابل [٢]، لكن الداعي الشجاع لا يخاف في الله لومة لائم، فذهب سيدنا إبراهيم إليه ليدعوه إلى التوحيد، ويترك ما هو عليه من الشرك والكفر والظلم، وذكر القرآن العظيم هذه المحاجة بينهما.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [٣].

تفسير الآية:

(ألم تر) الرؤية قلبية، بمعنى: ألم تعلم، لأن الخبر من الله سبحانه تعالى تَحَقُق وقوعه، وتَيقُن حدوثه، وثبت وجوده، كالرؤية البصرية للشيء، مما لا يشك القلب في كينونته، والاستفهام: للتعجب من أفعال النمرود بعد هذه النعِم من المُلك وغيره من النِعم [٤].

(حاج إبراهيم في ربه)، أي: خاصمه خصاما باطلا في صفات الله تعالى، والحُجّة: الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وفي الحديث: "فَحَجَّ آدمُ موسى" [٥]، أي: غلبه بالحجة [٦].

(أن آتاه الله الملك) اختلف المفسرون في عود الهاء في (آتاه) على قولين:

١- انظر: السيوطي، **الدّر المنثور في التفسير المأثور**، ج ٦، ص ١١٠.
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢، ص ٥٠٥.
٣- سورة البقرة، ج ٣، آية (٢٥٨).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٣، ص ٢٢٠. وانظر: الرازي ، **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٢٠.
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب القدر، باب: حجاج آدم موسى - عليهما السلام-، حديث (٦٩١٢)، ج ٨، ص ٤٩.
٦- انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، (ت ٥٩٧ هـ)، **غريب الحديث**، تحقيق: د . عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط : ١٩٨٥م،ج ١، ص ١٩٢.

١- أن الهاء تعود على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وذلك يدل عليه قوله تعالى :﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [١]، وهو التمكين بالنبوة، وإظهار المعجزات [٢].
٢- إنّ الهاء تعود على النمرود: أي دفعه لهذه المحاجة تكبره في ملكه، وغروره في نفسه [٣].

(إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحيي ويُميت) كأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بدأ بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، فبادره النمرود بسؤال، يا إبراهيم مَن ربك؟ قال إبراهيم : ربي الذي يُحيي ويُميت، قال النمرود - من شدة غبائه، وسخافة عقله- : (أنا أُحيي وأُميت) فأتى بأسيرين، فأطلق أحدهما، وقتل الآخر [٤].

(قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهنا قد يسأل سائل، لماذا انتقل سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلى كلام أخر، ولمْ يرد على شبهة النمرود؟، والجواب من عدة وجوه:

أ- أعرض إبراهيم - عليه السلام- عن مجاوبته؛ لِما عَلِم منه المكابرة في الخصومة، فانتقل إلى دليل آخر لا يستطيع الجدل فيه، فيعجز الكافر [٥] .

ب- أنه لم ينتقل من دليل إلى دليل آخر، بل أوضح الدليل بمثال آخر، وذلك أن الإحياء والإماتة، أو طلوع الشمس من المشرق وغروبها في جهة المغرب، كل هذا دالٌّ على مقصد واحد، وهو أن الفعّال الوحيد في الكون هو الله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا مثيل له، فأراد إبراهيم - عليه السلام - أن يبين للنمرود عجزه وضعفه أن يفعل فعلا هو من خصائص الألوهية، فأتى بمثال يُوضِح فيه دليله في الإحياء والإماتة [٦].

(فبُهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين) البُهت: الدهشة والحيرة [٧]، فعجز النمرود وانقطعت حجته، وعدم هداية الله للظالمين؛ "لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع، إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره " [٨].

١- سورة النساء، ج ٥، آية (٥٤).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٢٠. دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٢١هـ.
٣- **المرجع السابق**، ج ٧، ص ٢٠
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٢٢.
٥- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢، ص ٥٠٧.
٦- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٧، ص ٢٣. دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٢١هـ.
٧- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ١، ص ٢٨٦.
٨- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢، ص ٥٠٧.

وبعد انقطاع الحجة، وإصابته بالدهشة، أمر النمرود أن يُلقى إبراهيم - عليه السلام- في النار، فجمعوا له حطبا حتى مَلؤوا به صرح بابل، وعند ذلك قال إبراهيم - عليه السلام - حسبي الله ونعم الوكيل، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما - أنه قال: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ - صلى الله عليه وسلم - حِينَ قَالُوا (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [1]) [2]، فأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم، قال تعالى :﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[3]، فانقذه الله من شر النمرود، فأصبح بذلك أمة وحده - عليه السلام - كما قال الله تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ [4] ﴾[5] .

١- سورة آل عمران، ج ٤، آية (١٧٣).
٢- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)، حديث (٤٥٦٣)، ج ٦، ص ٤٨.
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٩).
٤- سورة النحل، ج ١٤، الآيات (١٢٠ - ١٢١).
٥- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٢، ص ١٥٧,٠

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إقبال سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على مَلِكٍ ظالم قاتل كافر، دون خوف من بطشه وجبروته، برهان عظيم على همّه لنشر التوحيد وإقامته.

٢- رده - عليه السلام - على قول النمرود (أنا أحيي وأميت)، وإبطال حجته، والانتقال من دليل لآخر، وضرب الأمثلة له، وإظهار عجزه أمام حاشيته، وبيان قوة الله تعالى، دليل على همّه في نهيه عن المنكرات التي يراها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - من النمرود، وفي هذا المقام يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " [١]، والداعي يقف المواقف التي ينكر فيها المنكر ولا تأخذه في الله لومة لائم، فالحذر لا يُغيّر القدر.

٣- من همّه على دينه وعقيدته، أنه - عليه السلام - ما تنازل عن كلامه ودعوته للنمرود عندما أراد قذفه في النار، فما غيّر ولا بدّل، مع أن موته متحقق، وهذا يدل على يقينه مما يدعو إليه، واستعداده للموت من أجل عقيدته، فموته لا يهمّه، ولكن همّه توحيد الله وإقامة الناس عليه، وكذلك الداعي يثبت ولا يتنازل عن مبادئه وعقيدته، ولسان حاله، كحال إبراهيم - عليه اسلام - (حسبي الله ونعم الوكيل) .

١- أخرجه الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الفتن، باب: ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، حديث (٢١٧٤)، ج ٤، ص ٤٧. قال الترمذي: " حسن غريب"، وقال الألباني : "صحيح"، **السلسلة الصحيحة**، ١ / ٨٠٦ .

المطلب الثاني: دعوة سيدنا موسى - عليه السلام - لفرعون.

هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن يعقوب - إسرائيل[١] - بن إسحاق بن إبراهيم - خليل الله - [٢]، وُلد في مصر، في زمن مَلِكٍ ظالم قاتل كافر، يُلقّب ب(فرعون)، وكان هذا اللعين قد " رأى رؤيا في منامه، أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه، يعنون بيت المقدس، رجل يكون على وجهه هلاك مصر" [٣].

فبدأ فرعون بقتل أبنائهم الذكور، واستحياء الإناث ليصبحن بغايا؛ لأنه لا أزواج لهن، وبذلك يحتقرهن بمنع رجال قومه منهم، فلا يبقى إلا قضاء الشهوة، وهذا الاستحياء مفسدة كقتل الذكور [٤]، قال تعالى:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [٥].

وجاء قوم فرعون إليه فقالوا له: إن بقيت تَقْتل الذكور لن يبقى أحد بالخدمة في الدولة، فقرر أن يَقتل سنة، ويترك عاما، فوُلِد هارون - عليه السلام - في العام الذي ليس فيه قتل، ووُلِد موسى - عليه السلام - في السنة لتي فيها قتل، فخافت أمه عليه، فَنُفِثَ في روعها أن ألقيه في البحر[٦]، قال تغالى:﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾[7]

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره قبطي ولا إسرائيلي، بل نفذ حكمه تعالى، وجرى قلمه سبحانه، في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترز من وجوده، وقتل بسببه ألوفا من الولْدان، نشأته ومرباه على فراش فرعون، وفي

١- **إسرائيل:** لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - قال ابن عباس : معناه عبد الله،؛ لأن - إسرا - بمعنى (عبد) و - إيل - اسم (الله)، أي: مركب من كلمتين - إسرا- و - إيل - . انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٣٥، وانظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١١، ص٢٣.
٢- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ٢، ص ٦١.
٣- الطبري، **جامع البيان**، ج ١٩، ص ٥١٦.
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٠، ص ١٣.
٥- سورة القصص، ج ٢٠، آية (٣).
٦- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ٢٢١.
٧- سورة القصص، ج ٢٠، آلآيات (٧ - ٨).

داره، وغذاؤه من طعامه، لتعلم البشرية أن رب السموات العُلا هو القادر، الغالب، العظيم، العزيز، القوي، شديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن [1].

وبعد أن صار شابا قويا، دخل موسى - عليه السلام - يوما مصر، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من قوم فرعون، فاستغاثه الإسرائيلي على القبطي، قال تعالى : (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)[2]، - وهذه الحادثة حصلت قبل بعثته، وإنما أصبح نبيا بعد انتهاء السنوات التي قضاها في مَدْيَن - ثم خرج موسى - عليه السلام - من مصر، وتوجّه تلقاء مدين، قال تعالى:﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]، والتقى موسى - عليه السلام – بالرجل الصالح بعد أن سقى لبناته الغنم، قال تعالى :﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[4]، وتزوج- عليه السلام - إحدى ابنتي الرجل الصالح، مقابل أن يعمل أجيرا عنده في رَعي الأغنام، و بعد مُضِي تلك العشر، أراد موسى أن يرجع إلى موطنه، إلى أمه وأخيه، إلى مصر، وفي أثناء رجوعه حصلت معه أشياء عجيبة [5].

أثناء عودته إلى مصر رأى نارا، فقال لزوجه:﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[6]، جعل الله تعالى موسى نبيا واختاره لحمل الرسالة وتبليغها إلى فرعون [7]، قال تعالى:﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[8] .

واستعد موسى - عليه السلام - لتبليغ الرسالة إلى فرعون، وطلب من الله قائلا :﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ٢٢١.
٢- سورة القصص، ج ٢٠، آية (١٥).
٣- سورة القصص، ج ٢٠، الآيات (٢١ - ٢٢).
٤- سورة القصص، ج ٢٠، آية (٢٥).
٥- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ٢٢٤ - ٢٣٣.
٦- سورة طه، ج ١٦، الآيات (١٠- ١٥).
٧- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٥، ص ٢٦٦- ٢٦٧.
٨- سورة النازعات، ح ٣٠، الآيات (١٥- ١٩).

يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ ﴾ [1].

وبعد أن استجاب الله تعالى دعاء موسى - عليه السلام - وأشرك أخاه هارون - عليه السلام - في أمر الرسالة وتبليغها، أمرهما الله أن يأتيا فرعون فَيَدعُوانه إلى الله، ويحذرانه من عذابه.

قال تعالى: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ * مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦ ﴾ [2].

تفسير الآيات:

تكررت قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كثيرا في عدة سور من القرآن الكريم، ويدل هذا على تخصيص الذكر وشرف المذكور، وكل سورة فيها فائدة زائدة [3].

ثم بعد ذاك أمر الله تعالى موسى وهارون- عليهما السلام - أن يذهبا إلى فرعون، قال الله -عز وجل-: (اذهب أنت وأخوك بآيتي ولا تنيا في ذكري) أي: بالمعجزات التي رأيتها- العصا واليد - وإن كانتا معجزتين، إلا أن فيهما الكثير من الآيات، فالعصا عند انقلابها حيوانا آية، وكانت في حجمها ثعبانا آية ثانية، وفي سرعة حركتها آية ثالثة، واليد كذلك، (ولا تنيا في ذكري) لا تَفْترا ولا تضعفا، (في ذكري) أي: لا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكري، من ذكر باللسان، أو تفكر [4].

١- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٢٥- ٣٥).
٢- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٤١ - ٥٦).
٣- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ٢٦٣.
٤- **المرجع السابق**، ص ٢٧٧.

(فقولا له قولا لينا)، والقول اللين: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله [١]، وقد بان لين الكلام، وحسن الدعوة والبيان، في قوله تعالى: (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)[٢] .

(لعله يتذكر) أي: ينظر ويتفكر، فيما يسمع من الترغيب، فيتعظ ويستفيد من ذلك، (أو يخشى) عذاب الله تعالى فيرتدع عن ظلمه.

(قالا ربنا إنّا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أي: إنّا نخاف أن يَعْجل علينا بالعقوبة، فلا يصبر حتى تتمم الدعوة وتظهر المعجزة، و(أفْرَطَ): " إذا تجاوَزَ الحدَّ في الأمر،...وأفرَطَ في الأمر: عَجَّل" [٣]، (أن يطغى) يزداد طغيانا، وهذا يحتمل أن هارون - عليه السلام - قاله عندما لقيَ موسى - عليه السلام - ، فكل واحد منهما قاله على حدة، فكأنّ الآية أخبرت عن قولهما، وإن اختلف زمان القول، كخطابه تعالى للرسل - عليهم السلام في قوله :(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)[٤]، فيستحيل أن هؤلاء الرسل - عليهم السلام - اجتمعوا في زمان واحد، ولكن الخطاب موجه للكل [٥].

(قال لا تخافا) من فرَطه أو طغيانه؛(إنني معكما) برعايتي وحفظي ومعونتي، ولا يحصل شيء إلا بإذني وإرادتي، (أسمع) كلامكما، (وأرى) مكانكما، ثم أمرهما تعالى فقال: (فأتياه) والإتيان أثر الذهاب، أمرهما الله بالذهاب عندما كانا بعيدين عن مكان فرعون، فلما اقتربا من مكانه، وقالا:(إنّا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى)، أمرهما الله أن يأتياه، أي: أن يحلا في مكانه ويصلا إليه، وعلّم الله موسى وهارون - عليهما السلام - ما يتكلمان به مع فرعون [٦].

(فقولا إنّا رسولا ربك) أي: أرسلنا الله إليك؛ حتى يعرف الطاغية شأنهما، ويبني جوابه بناءً على قولهما، أنهما رسولان من عند الله الواحد القهار، (فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم) أي: أطلق بني إسرائيل من العبودية، والذل والهوان، والأعمال الشاقة [٧]، "والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أُرْسِل

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ١٢٤.
٢- سورة النازعات، ج ٣٠، الآيات (١٨ -١٩).
٣- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٤، ص ٤٩٠.
٤- سورة المؤمنون، ج ١٨، آية(٥١).
٥- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ٢٧٨.
٦- انظر: ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ٢٩٦.
٧- انظر: النغوي، **معالم التنزيل**، ج ٥، ص ٢٧٦.

لإنقاذ بني إسرائيل، وتكوين أمة مستقلة، بأن يَبث فيهم الشريعة المُصْلحة لهم، والمقيمة لسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة، ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد؛ لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين أظهرهم، وأيضا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته لطلب إطلاق بني إسرائيل " [1].

ولمّا دخل موسى وهارون - عليهما السلام - على فرعون، وقالا له:﴿ فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ ﴾[2]، عرف فرعون - عليه لعنة الله - موسى - عليه السلام -، فقال فرعون - ممتنا عليه ومحتقرا لشأنه - :﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ ﴾[3] ، وذكّرَه بقتل القبطي، قال:﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ ﴾[4]؛ حتى يتلعثم موسى - عليه السلام - ويكون لفرعون ذريعة في عدم قبول دعوته [5].

غير أن موسى - عليه السلام - دحض حِجج فرعون بقوله:﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ ﴾[6]، أي: اعترفُ بقتلي للقبطي، وفعلت هذا؛ لأني كنت يومئذ على غير معرفة بالحق؛ لعدم وجود شريعة ، والضلال بمعنى عدم المعرفة، تقول: "ضللت المسجد والدَّارَ، إذا لم تهتدِ لهما" [7]، كقوله تعالى﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾[8] ، وهذا الاعتراف لا يجعلني أتهيبك يا فرعون في قول الحق، وتأدية الرسالة [9].

ثم قال - عليه السلام -:﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ ﴾[10]، أي: ففررت من تآمركم على قتلي، قال تعالى:﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[11]، فوهبه الله حكما، والحكم: الحكمة والعلم، وقَصَدَ النبوة، ثم كلفه بالرسالة، و " الحُكْم: هو المَنْع من الظُّلْم ... والحِكمة: هذا قياسُها، لأنها تمنع من الجهل" [12].

١- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ١٢٧.
٢- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٦ -١٧).
٣- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (١٨).
٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (١٩).
٥- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ١٢٥.
٦- سورة الشعراء، ج ١٩، آية(٢٠).
٧- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٢٧٩.
٨- سورة الضحى، ج٣٠، آية (٧).
٩- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ١٢٨.
١٠- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٢١).
١١- سورة القصص، ج ٢٠، أية (٢٠).
١٢- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ٧٣.

ثم عاد موسى - عليه السلام - للرد على امتنان فرعون عليه بالتربية، ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، أي: أن موسى أنكر على فرعون أن تربيته في بيته نعمة يَمُنَ بها عليه؛ لأن هذه التربية ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل، والأمر باستئصال أطفالهم، الذي تسبب في إلقاء موسى عليه السلام في اليم[2].

وبعد أن ردّ موسى - عليه السلام - على فرعون، وأفحمه وألجمه، اضطر للحوار والنقاش، حتى لا يظهر بمظهر المهزوم أمام قومه، فقال فرعون : (فمَن ربكما يا موسى) وتوجيه الخطاب لموسى دون هارون؛ لأن فرعون عَلِمَ أن موسى له الأصالة في الكلام، وهارون وزيره يُصَدِقه بالقول أو بالإشارة [3].

فأجابه موسى - عليه السلام - ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[4]، أثبت موسى - عليه السلام - الربوبية لله لجميع الموجودات، وأن فرعون من جملة الأشياء، فهو داخل في عموم (كُلَّ شَيْءٍ)، وقال المفسرون في تأويل هذه الآية عدة أقوال، منها:
١- قال بعضهم: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)أي: أعطى كل ما خلق ما يُصلحه، وهيّأ لخلقه كلّ شيء يعينهم على صلاح معيشتهم [5].

٢- وقال آخرون: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) " كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[6]، أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أي: كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق سائرون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه " [7].

قال فرعون(فما بال القرون الأولى) أي: ما حال الأمم الماضية؟ وكأن عدو الله، لمّا خاف أن يُبْهت، ويُفضح أمره للحاشية، بإظهار حجة موسى - عليه السلام - عليه، سأل فرعون هذا السؤال ليَصرف موسى إلى الكلام الذي ليس أوانه الآن، من الحكايات والقصص، فأجابه - عليه السلام - إجابةً، أفحم بها فرعون وأسكته، وأبقى الحوار في صميمه [8]، أجابه قائلا: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) نفى عن الله تعالى صفتين لا تخلو من إنسان؛ لبيان عجز فرعون

١- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٢٢).
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ١٢٩.
٣- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ٢٨٠.
٤- سورة طه، ج ١٦، آية (٥٠).
٥- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ٢٩٨.
٦- سورة الأعلى، ج ٣٠، آية (٣).
٧- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ٢٩٨.
٨- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ٢٨٠.

وضعفه، وهما (الضلال والنسيان) وأن الرب - تبارك وتعالى - له صفات الكمال والجلال، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[1].

(في كتاب) أي: في اللوح المحفوظ، (لا يُضل) أي: "لا يخطئ في التدبير، فمَن أنظره فلحكمة أنظره، ومَن عاجله فلحكمة عاجله "[2]، (ولا ينسى) فيتذكر، وأنه لا يحتاج إلى كتاب، وأتى بصيغة (ربي)؛ حتى يُؤكد نَفيَ الربوبية في نفسية فرعون، وعاد للكلام عن رب العالمين وتعظيمه وتمجيده، وليعرف فرعون أنه في ضلال مبين بادّعاء الربوبية، ثم قال موسى - عليه السلام - (الذي جعل لكم الأرض مهدا) مهيأة للسكن والقرار، (وسلك لكم فيها سبلا) طرقا، تسيرون من طريق إلى طريق ، تنتفعون بها، وتقضون حوائجكم، (وأنزل من السماء ماء) الغيث المنبت، (فأخرجنا به) هذا من كلام الله، لبيان كمال القدرة والعظمة في إخراج النبات، فلا يكون هذا الإخراج إلا من إله عظيم الشأن، قادر على الفعل، (أزواجا من نبات شتى) أي: أصنافا وأشكالا متفرقة، (كلوا وأرعوا أنعامكم) أي: آذنين لكم أن تأكلوا منها، وأن ترعوا الأنعام من هذا النبات المتفرق، الكثير، المختلف شكله، ولونه، وطعمه، ورائحته[3].

(إن في ذلك) من تمهيد الأرض ، وجعل الطرق، وإنزال الماء ،وإنبات النبات، (لآيات) دلائل واضحة، وبراهين صادقة، تدل على صفات الكمال، وأسماء الجلال، لله الواحد المنان، وعلى صدق موسى وهارون - عليهما من الله أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن ليس للكل، بل (لأولي النُهى) لأصحاب العقول[4]، "والنُّهْيَةُ: العقل، سميت بذلك لأنها تَنْهَى عن القبيح"[5].

وبعد هذا البيان والتوضيح، والتفصيل، والرد عن كل شبهة بكلام فصيح، يُدمر كل باطل كما الريح، قال فرعون - لعنه الله - لموسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[6]، وتَوَعُدُه بالسجن دليل ضعف، واعتراف أن ثمة إله غيره، قال له - على جهة اللطف به والطمع في إيمانه - : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[7]، انتقلت إقامة الحجة من المناظرة إلى المشاهدة، وكان موسى وهارون

١- سورة الشورى، ج ٢٥، آية (١١).
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٢٠٨.
٣- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ٢٨١.
٤- **المرجع السابق**، ص ٢٨٢.
٥- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٥، ص ٣٤٣.
٦- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٢٩).
٧- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٣٠).

أخبراه بذلك عند بداية الحوار، ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾[1] ، قال فرعون﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2]، لعله يجد ثغرة فينتهزها، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾[3] .

وبعد هذه الآيات الواضحة، والأدلة والبراهين الدامغة، والقواطع الخارقة، رد العنيد المتكبر الساذج، قائلا لِمَن حوله من الملأ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[4] ، وكما قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾[5]، وقال الله في شأن هذه الآيات:﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ ﴾[6] وهي: انقلاب العصا حية، وتبدل لون اليد بيضاء، وسنوات القحط، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، وانفلاق البحر ، ومما لا شك فيه أن هذه الآيات جاءت متراخية طوال دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه[7].

بعد ذلك جمع فرعون سحرة مصر حتى يواجهوا موسى - عليه السلام -، وللقصة بقية في مبحث دعوة سيدنا موسى لبني إسرائيل - إن شاء الله تعالى - [8].

١- سورة طه، ج ١٦، آية (٤٧).
٢- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٣١).
٣- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٣٢- ٣٣).
٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (٣٤).
٥- سورة طه، ج ١٦، آية (٥٦).
٦- سورة النمل، ج ٢٩، آية (١٢).
٧- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٩، ص ٤٣٥.
٨- الفصل الثالث، المبحث الأول، المطلب الأول ، ص١٥١

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إنّ الاستعداد المنبثق عن بِعْثة الله لموسى - عليه السلام - إلى الذهاب لدعوة فرعون وقومه، وإخراج بني إسرائيل، من علامات همّه - عليه السلام - لإقامة التوحيد ونشره، فلم يَهَب جبروت فرعون وطغيانه، مع أنه قتل منهم نفسا، لكن ذهب إليهم داعيا شجاعا لا يخاف في الله لومة لائم، ولحرص موسى -عليه السلام- على الدعوة إلى الله طلب من الله تعالى أن يمده بمقومات النجاح، وهي شرح الصدر، وإفساح القلب، وتيسير الأمر، حتى يستطيع ملاقاة فرعون ومَلأه، ويدعوهم إلى الله وحده، وينفي عبادة فرعون واستعباده للناس.

٢- ومن براهين همّ موسى - عليه السلام - على الدعوة و الحرص على حسن تبليغها، والخوف من التقصير في أدائها، طَلَبُه من ربه أن يشرح صدره، وأن يعينه بأخيه، فهذا الطلب دال على أن موسى- عليه السلام - أراد تأدية الدعوة والرسالة على أكمل وجه، فامتن الله تعالى على موسى بإشراك هارون معه في الدعوة، وهكذا الداعي يدعو الله تعالى أن يستخدم أصحابه وأحبابه في العمل الذي اختاره الله سبحانه للأنبياء - عليهم السلام- فالداعي عندما يلقى تأييدا من أهله، وزوجه وأبنائه، وأصحابه وأحبابه، تكون دعوته أقوى وأجود.

٣- ومن مظاهر الهمّ الدعوي، الطمع والرجاء في هداية فرعون، ودليل هذا الهمّ، القول اللين، والملاطفة والإحسان، وأسلوب الجدال بالتي هي أحسن، ففي عِلْم الله تعالى القديم، أن فرعون لن يؤمن، ومع هذا أرسل الله موسى وهارون - عليها السلام - إليه، وأوصاهما باللين والإحسان، ولم يخبرهما تعالى أنه لن يؤمن، حتى يذهبا إليه بطمعٍ ورجاءٍ في إيمانه.

٤- اعتراف الداعي بذنب أصابه، أو خطيئة ارتكبها، بعمد أو غير عمد، لا يمنعه ذلك من دعوة الناس إلى الله تعالى، وأن يكون سببا في هدايتهم ودلالتهم على الخير، حتى ولو كان في ماضيه ما يُعاتب عليه، وهذا مستنبط من اعتراف موسى - عليه السلام - لفرعون قتل القبطي، فرغم اعترافه، لم يمنعه ذلك عن الكلام معه ومحاورته، بل سار إليه بهمٍّ وهمةٍ لا مثيل لهما، وانبعاث هذا الهمّ؛ سببه عِلْم اليقين بأن الله ناصر دعاته وأولياءه، فإنه - عليه السلام - لا يخاف في دعوته إلا الله تعالى، والداعي لا يخاف في الله لومة لائم؛ لأنه لا يرجو إلا مدح الله، ولا يخاف إلا من ذمه سبحانه وتعالى إن وقع في معصيته.

٥- حقيقة همّ الدعوة تظهر في كلام الداعي لغيره، وأكبر همٍّ يجب إظهاره، هو أن الفعّال الحقيقي في الأمور والأحوال والأشياء هو الله وحده، وأن الذي يتولى أمور

العباد ويدبر شؤونهم، هو ربُ واحد لا ربَ سواه، وهذا الذي ظهر جليا في كلام موسى - عليه السلام - مع فرعون، فنفى ربوبيته، وأثبت الربوبية لله وحده، وتكلم في أفعال الله تعالى وصفاته؛ حتى يتقين فرعون وقوعه في ضلال كبير عندما قال : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ ﴾[1] ، فكانت عاقبة كفره وطغيانه، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ﴾[2] .

.

١- سورة النازعات، ج ٣٠، آية (٢٤).
٢- سورة النازعات، ج ٣٠، الآيات (٢٥ - ٢٦).

المبحث الرابع

الهمّ الدعوي عند الأنبياء لأقوامهم

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: دعوة سيدنا نوح - علي السلام - لقومه.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا هود - عليه السلام - لقومه.

المطلب الثالث: دعوة سيدنا صالح - عليه السلام - لقومه.

المطلب الرابع: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لقومه.

المطلب الخامس: دعوة سيدنا لوط - عليه السلام- لقومه.

المطلب السادس: دعوة سيدنا شعيب - عليه السلام - لقومه.

المطلب السابع: دعوة سيدنا يونس - عليه السلام - لقومه.

تمهيد.

جاءت دعوة الأنبياء - عليهم السلام - في كتاب الله تعالى بأسلوب القصة، وهذا الأسلوب من أساليب القرآن انتشر كثيرا في سور القرآن، قال تعالى :﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1]، أي: أحسن الأخبار وبأحسن طريقة و أسلوب [2]، والقصة : " الخبر عن حادثة غائبة عن المُخْبَر بها "[3]، وقد نفى علماء التفسير أن تكون القصة الواحدة كررت في القرآن العظيم بلا فائدة جديدة تختلف عن سابقتها، فكل تكرار للقصة يحمل في طياته معانٍ وأغراضا وفوائد جديدة، ما لا يوجد في سورة أخرى، ومثال ذلك:

قصة سيدنا نوح - عليه السلام - وردت في عدة سور: في سورة الأعراف ، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة المؤمنون، وسورة العنكبوت، ولكن لا تكرار في هذه السور كلها، وذلك أن سورة العنكبوت جاءت بغرض معين، وهو بيان مدة دعوة نوح في قومه، وهو قوله تعالى:﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4]، وفي سورة المؤمنون ذُكِرَ ما يقوله عند الاستواء والنزول، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[5] ، وفي سورتي الشعراء والقمر ذُكِرت القصة بما يناسب موضوع السورة وأسلوبها ككل، فهي بين الإجمال والتفصيل، أما في سورتي الأعراف وهود، فجاءت القصة مُفَصِلة لكثير من الجزئيات التي لم تُذكر في غيرها من السور [6].

١- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣).
٢- انظر: ابن حيان، **البحر المحيط**، ج ٦، ص ٢٣٥.
٣- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٦٣.
٤- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (١٤).
٥- سورة المؤمنون، ج ١٨، الآيات (٢٨ - ٢٩).
٦- انظر: فضل عباس، الشيخ فضل حسن ، (ت ١٤٣٢هـ)، **الإعجاز البياني في القرآن الكريم**، دار النفائس - الأردن، ط ١ - ١٤٣٧هـ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

ولهذا القصص القرآني حِكمٌ وأغراض، منها [1]:
أ- أخبار الأنبياء - عليهم السلام - وأتباعهم، وما حصل لهم من أذى في سبيل الله تعالى، نفقه به سنة الله في مدافعة الحق للباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[2]، فكلما وُجد الباطل وُجد الحق ليزهقه، وهذا واضح في قصص الأنبياء - عليهم السلام - وكيف أنهم صبروا وثبتوا على أداء الحق، حتى نصرهم الله على الباطل، وكما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[3]

٢- في هذا القصص العظيم بيان لمناهج الأنبياء- عليهم السلام - في الدعوة إلى الله، والصبر عليها، كما قال تعالى :﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[4]، والاقتداء بهم لا يكون إلا باتباع أساليبهم وطرقهم في الدعوة إلى الله تعالى.
٣- يبين هذا القصص أسباب طغيان الإنسان، فإما بالمال، مثل قارون، وإما بالجاه والسلطة، كشاكلة فرعون، وإما باتباع الأشراف والسادة، وانخداعهم بهؤلاء الطغاة، كمثل هامان، وإما بالجهل وخفة العقول، ومثال ذلك قوم فرعون، كما قال الله :﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[5] ، وإما بالشهوات الجسدية، كقوم لوط- عليه السلام - .
٤- أسلوب التشويق في تتبع الأخبار، وملاحقة الأحداث؛ لأخذ العبر والعظات، حتى يتعلق القلب بهذا الكتاب الكريم.

٥- في هذا القصص إظهار صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال، وأيضا فيها من إعجاز علمي قد ظهر في عصرنا الحاضر، عندما تتحدث هذه القصة عن السماء، والأرض، والنبات، والإنسان، وغير ذلك من الأشياء التي تَثبت بها صدق رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وفي هذا المبحث سأتكلم عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم، وسَيُبرز فيها مواقف الهمّ الدعوي لهذا النبي الكريم في دعوته لقومه .

١- انظر : زيدان، عبد الكريم زيدان ، (ت ١٤٣٥ هـ)، **قصص القرآن للدعوة والدعاة**، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط ١ - ١٤٣٤هـ، ص ٦ - ٧ .
٢- سورة البقرة، ج ٢، آية (٢٥١).
٢- سورة يوسف، ج ١٢، آية (١١١).
٤- سورة الأنعام، ج ٧، آية (٩٠).
٥- سورة الزخرف، ج ٢٥، آية (٥٤).

المطلب الأول: دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - لقومه.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " كان بين آدم و نوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين و المرسلين، و أنزل كتابه، فكانوا أمة واحدة " [1]، فقد عاش الناس فترة عشرة قرون يؤمنون بالله، ويقيمون شرعه، وبعد هذا الإيمان فسد حال الناس وبدأوا بعبادة الأصنام والطواغيت، فبعث الله تعالى نوحا - عليه السلام - رحمة للعباد، حتى يرشدهم ويعيدهم إلى الطريق المستقيم، فعن ابن عباسٍ - رضِي اللَّه عنهما - قال:" صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، ... أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ " [2].

فسيدنا نوح - عليه السلام - هو أول رسول بعثه الله تعالى للبشرية بعد ما عُبدت الأصنام، ودعا قومه إلى الله تعالى، قال الله - عز وجل -:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ ﴾[3]، فأظهر لهم أنه مُرسل من عند الله إليهم، وأنه نذير لهم بين يدَي عذاب شديد، ومن كمالية رحمته - عليه السلام - عبّر عن شعوره اتجاههم في دعوته، فقال : (إني أخاف عليكم)، وأخبر الله عنه أنه قال لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ ﴾[4] .

بدأ نوح - عليه السلام - دعوته لقومه بالنداء(يا قوم)؛ فهو أجدى لإقبال أذهانهم إليه، ونسبهم لنفسه؛ لصدق إرادة الخير بهم، فما يريده من خير لنفسه أراده لقومه، وأخبرهم أنهم إذا عبدوا الله واتقوه وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، يغفر الله تعالى لهم ذنوبهم، ويؤخرهم إلى آجالهم التي قدرها عليهم في بطون أمهاتهم، كما قال رسول الله - صلى الله غليه وسلم - : " ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ

١- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة حم عسق، حديث (٣٦٥٤)، ج ٢، ص ٤٨٠،قال الحاكم:" حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.
٢- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب: {ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق}، حديث (٤٩٢٠)، ج ٦، ص ١٩٩.
٣- سورة هود، ج ١٢، الآيات (٢٥).
٤- سورة نوح - عليه السلام - ، ج ٢٩، الآيات (٢ - ١٣).

بِأَرْبَعٍ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ "[1]، إذن: فالأجل المسمى: هو العمر الذي حدده الله لكل مخلوق، وإن لم تفعلوا ذلك، فإن أجل العذاب ووعيده إذا جاء لا يتأخر، كما قال الله تعالى :﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾)[2]. [3]

ولم يترك نوح - عليه السلام - أسلوبا من أساليب الدعوة إلا أخذ به، وهذا ما ظهر في شكواه لله تعالى، فقد دعاهم ليلا، ودعاهم نهارا، ودعاهم مُرَغِبا، ودعاهم مرَهِبا، ودعاهم علانية جماعيا، ودعاهم سرا انفراديا، ومع هذا عزموا على ألا يؤمنوا، واستكبروا وعاندوا، بل كان إذا كلمهم غطوا رؤوسهم، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، كي لا يسمعوا فيؤمنوا، وأيضا اتهموه أنه ضال ، قال تعالى :﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[4]، وقالوا فيما قد قيل:﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[5]، أي: قال السادة والرؤساء : ما أنت يا نوح إلا آدمي مثلنا!، قال تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً)[6]، وقال قومه له: وما تَبِعَك إلا الناس الضعفاء الفقراء الذين لا قيمة لهم في مجتمعنا، واتبعوك من أول ما دعوتهم وتكلمت معهم، فلم يتفكروا ويُمْعِنُوا النظر والفكر، وهذا يدل على تكبرهم؛ لأن الحق إذا ظهر فهو أحق أن يُتّبع، ولأن الأنبياء أُرسلوا للناس كافة في أقوامهم، فلم يُمَيّزوا بين صنائعهم وطبقاتهم، ولم يُرسَلوا حتى يُغيروا هيئات الناس وصورهم، بل جاؤوا لتغيير الصفات والقلوب [7] .

١- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب القدر، باب: باب كَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ الآدمي في بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، حديث (٦٨٩٣)، ج ٨أ ص ٤٤.
٢- سورة هود، ج ١٢، آية (١٠١).
٣- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ١٧٦- ١٧٧.
٤- سورة الأعراف، ج ٨، الآيات (٦٠- ٦١).
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (٢٧).
٦- سورة الإسراء، ج ١٥، آية (٩٤).
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٢٣.

وردّ نوح - عليه السلام - عليهم بقوله:﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ ﴾ [1]، أي: يا قوم أريتم إن كنت على يقين من الله، وآتاني النبوة والرسالة، فَعَميت قلوبكم عن فهمها، فلا نُجبركم على الأخذ بها، وأنتم لا ترغبون فيها.[2]

وطلبوا منه - عليه السلام - أن يطرد هؤلاء الذين اتبعوه، إن أراد أن يسمعوا له، قال تغالى:﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ ﴾ [3]، أي: كيف تريد منا أن نؤمن لك واتبعك أدنى القوم؟!، قال نوح: ليس عليّ أن اتتبع ما وراءهم، إن عليّ إلا أن أقبل منهم إيمانهم بالله وتصديقهم بي، وسرائرهم إلى الله تعالى، وطلبوا منه أن يطردهم، فأبى عليهم؛ لأن الأنبياء أُرسلوا للفقير، والغني، والشريف، والوضيع.[4]

وقد استمرت دعوته تسعمائة وخمسين سنة، كان فيها من العناء والتعب والصبر ما فيها، فجاء الوحي من الله تعالى:﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ [5]، فحينئذ دعا سيدنا نوح - عليه السلام - عليهم حرصا على مَن ءامن، وخوفا على الأجيال التي ستأتي، قال- عليه السلام - :﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا ٢٧ ﴾ [6]، أي: يا رب لا تبق من الكفرة أحدا على وجه الأرض، وعلل ذلك بقوله: يا رب: إن أبقيتهم أضلوا المؤمنين، ولا يلدوا إلا أولادا يكونون عند سن البلوغ كافرين فاجرين، وعرف ذلك من خلال تجربته إياهم، فكانت عاقبة الظالمين المكابرين كما قال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾[7]، أي: بسبب كفرهم وذنوبهم أغرقهم الله في الماء، (فَأُدْخِلُوا نَارًا) وإما أغرقهم في الماء ثم عُذِبوا في قبورهم بحرّ القبور، وهذا العذاب إنما جاء ليس بسبب دعاء نوح - عليه السلام - عليهم وحسب، بل أيضا كما قال تعالى :﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦ ﴾[8]، وهذه هي نهاية الظلم والكفر والجحود.[9]

١- سورة هود، ج ١٢، آية (٢٨).
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٢٥.
٣- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١١١- ١١٥).
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٥١.
٥- سورة هود - عليه السلام - ، ج ١٢، آية (٣٦).
٦- سورة نوح - عليه السلام - ، ج ٢٩، الآيات (٢٦ - ٢٧).
٧- سورة نوح - عليه السلام - ، ج ٢٩، آية (٢٥).
٨- سورة الأنعام، ج ٧، آية (٦).
٩- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٨، ص ٣١٠ - ٣١٢.

وتم بيان كيفية هلاك قوم نوح - عليه السلام - بالطوفان في مبحث سابق [1]، عند الكلام عن دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - مع ابنه.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إن إظهار نوح -عليه السلام- لمشاعر الشفقة والرحمة، والخوف على قومه من عاقبة السوء، من براهين الهمّ الدعوي عند الأنبياء - عليهم السلام - كافة، وظهر ذلك عندما قال لهم نوح - عليه السلام - مُرَغِبا لهم : (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)، وقوله مُرَهِبا لهم: (إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)، فرجاء المغفرة، وخوف العاقبة يدلان على عظيم همّه - عليه السلام - على قومه.

٢- صبره - عليه السلام - طوال هذه المدة الهائلة التي هي قرابة الألف سنة، التي دعاهم فيها ليلا و نهارا، سرا وعلانية، وتَحَمّل فيها سخريتهم، وإعراضهم، وأذيتهم، وهذا الصبر يدل عن نبع في صدره - عليه السلام - من الهمّ على إيمان قومه.

٣- حرصه المتناهي على مَن ءامن معه، ويظهر ذلك عندما طلبوا منه أن يطرد المؤمنين بحجة أنهم أرذل الناس وأدناهم منزلة، فأبى عليهم، وقال:﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [2]، وملة الكفر واحدة، فعن سعد قَالَ: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم- سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَبيّ - صلى الله عليه وسلم- : اطْرُدْ هَؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا، وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلاَلٌ، وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [3] " [4].

٤- ومن حرص نوح - عليه السلام - أيضا، أنه دعا على قومه بعد اليأس منهم، خوفا من أذية قومه للمؤمنين، وحرصا ألا يفتنوهم عن دينهم، وألا يفتنوا الأجيال المؤمنة القادمة.

١- الفصل الثاني، المبحث الأول، المطلب الثاني، ص ٦٤.
٢- سورة هود ، ج ١٢، آية (٢٩).
٣- سورة الأنعام، ج ٨، آية (٥٢).
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة - رضوان الله عليهم - ، باب: فضل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ، حديث (٦٣٩٤)، ج ٧، ص ١٢٧.

٥- ومن همّه - عليه السلام - أنه كان يدعو الله تعالى ويتوجه إليه بالمغفرة له ولمَن ءامن معه، وجعل الله تعالى دعاء سيدنا نوح - عليه السلام - آية تتلى إلى يوم الدين، قال الله - عز وجل - :﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨ ﴾ [١].

المطلب الثاني: دعوة سيدنا هود - عليه السلام - لقومه.

هو النبي الرسول هود - عليه السلام - من سلالة سام بن نوح - عليه السلام -، أرسله الله تعالى إلى قبيلة عظيمة تُدعى (عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام -)، وهي من قبائل العرب العاربة [٢]، سكنوا الأحقاف - وهي الأراضي الرملية الممتدة من اليمن إلى عُمان-، قال تعالى: (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ)[٣]، وقوم عاد أول قبيلة عادوا لعبادة الأصنام بعد تطهير الأرض بطوفان قوم نوح - عليه السلام -، قال الله عز وجل: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)[٤]، فجاء النذير [٥].

قال تعالى :﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ ﴾ [٦]، أي: أرسل الله تعالى هودا - عليه السلام - إلى قوم عاد، وكلمة(أخاهم) تدل على أن هودا - عليه السلام - كان من نسب عاد وينتمي إليهم [٧]، فدعاهم إلى توحيد الله، وألا يشركوا في عبادته أحدا من الخلق، ولكن جرت عادة المعاندين في التكبر- أصحاب السيادة والعجرفة - واتهموه بالسفه، والسفيه: صاحب السخافة والطيش [٨]، بمعنى: يا هود ما تدعونا إليه من ترك عبادة ما وجدنا آباءنا كلام فيه سفه، قال سيدنا هود: يا قوم لست سفيها، ولكني رسول من رب العلمين، أبلغكم رسالات ربي، والبلاغ: يستلزم عدم الكذب

١- سورة نوح، ج ٢٩، آية (٢٨).
٢- يقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل - عليه السلام - ، العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجرهم، ... ومدين، وقحطان، وغيرهم، وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر - عليه السلام - بالحرم، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- . انظر: ابن كثير، أبا الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت٧٧٤هـ)، **قصص الأنبياء**، تحقيق: عصام الدين الصبا بطي، دار الفجر - القاهرة، ط ٢ - ١٤٣٤هـ، ج ١، ص ٨٠.
٣- سورة الأحقاف، ج ٢٦، آية (٢١).
٤- سورة الأعراف، ج ٨، آية (٦٩).
٥- انظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ج ١، ص ٨٠.
٦- سورة الأعراف، ج ٨، الآيات (٦٥ - ٦٨).
٧- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٢٩٩.
٨- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٥٩.

في أصل المبلِغ، وعدم الزيادة فيه، ولا النقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة وجيزة فصيحة مانعة جامعة، وهذه الصفات الكريمة التي يجب أن تكون في تبليغ الدعوة، وهو لا يطلب عليه منهم أجرا، ولا يسألهم مالا، قال الله تعالى على لسان هود - عليه السلام - :﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ ﴾ [1]، وهذا دليل الإخلاص لله في الأقوال والأعمال [2] .

لكن قومه لم يطيعوه، وقالوا له:﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۖ ٥٤ ﴾ [3]، أي: ما جئتنا بحجة واضحة تبين لنا صدق ما تقول، ومن إصرارهم قالوا: وما نحن لك بمؤمنين، وما نقول إلا أصابك من آلهتنا جنون؛ لأنك عبتها واستحقرت شأنها، فعاقبتك بهذا [4] .

فرد عليهم قائلا: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ ﴾ [5]، أي: أُشهد الله على نفسي، وأشهدوا يا قوم؛ لتعرفوا أني بريء مما عبدتم من دون الله تعالى، ثم بَرْهَن على صدق نبوته، بأن تحداهم جمعيا، سادة وعامة، أن يصلوا إليه بأي ضر أو أذى، ويدل هذا التحدي على ثقته بتحقق نصر الله لأوليائه ولو بعد حين، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾ [6]، وقال - عليه السلام - لهم: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) أي: رضيت بحكمه، ووثِقْتُ بنصره، (ما مِنْ دَابَّةٍ) وكل ذات روح تدب على الأرض يقال لها دابة، (إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) أي: يتصرف بها كيف ما يشاء، ويمنعها مما يشاء، فهو المالك لكل ما فيها، إذن: فلا تَصِلون إليّ فتضروني.[7]

١- سورة هود - عليه السلام -، ج ١٢، آية (٥١).
٢- انظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ج ١، ص ٨٤.
٣- سورة هود -عليه السلام -، ج ١٢، الآيات (٥٣ - ٥٤).
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٢٩.
٥- سورة هود - عليه السلام -، ج ١٢، الآيات (٥٤ - ٥٧).
٦- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٥١).
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٥٢.

والناصية: مقدمة الرأس (الجبهة)، وهي من أقسام الدماغ، ووظيفتها إصدار الأوامر للجسد، وبقية الأعضاء جنود عند الناصية، فلقد وصف الله تعالى ناصية أبا جهل بقوله: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)[1]، فاللسان لا يكذب، لكنه عسكري عند الناصية، بحيث إن أرادت الكذب، أمرت الناصية اللسان فَكَذَب، وجاء هذا الوصف (أخذ الناصية)؛ لأن العرب إذا أرادت أن تصف أحدهم بالخضوع والإذلال تقول: فلان ناصيته بيد فلان، فخاطبهم هنا بما يستعملوه[2].

ثم قال هود- عليه السلام - : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) والمعنى إن الله جل ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء، فإنه لا يأخذهم إلا بالحق، كما قال تعالى: (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)[3]، وقوله: (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أي: أعرضتم عن التوحيد والدين فانتظروا العقاب، ولكني (أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) وفيه وعيد بالهلاك، وأنه تعالى يأتي بقوم يعبدونه كما يريد، (وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) بكفركم، (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) أي: حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها، أو يحفظني من شركم ومكركم.[4]

لكن عادا اختاروا الكفر والشرك وقالوا:﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً‌ۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً‌ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[5]، وقالوا له أيضا متحدين الله ورسوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[6]، وجاء الوعيد.

فقال الله واصفا هذا العذاب: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَۢا‌ۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ‌ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمۡ‌ۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[7]، أي: أرسل الله عليهم عارضا، والعرض: " السَّحابُ المُطِلُّ يَعْتَرِض في الأُفُق"[8]، وكانوا قد أُصيبوا بقحط شديد، فاستبشروا بهذه السُحُب الكبيرة، وظنوا أنهم أُغيثوا فيسقون ويزرعون، ولكن خاب فألهم، بل هو العذاب الأليم، والريح العقيم، الذي استعجلتم وأردتم، وإنما استعجلوه استبعادا لوقوعه.[9]

١- سورة العلق، ج ٣٠، آية (١٦).
٢- انظر: الزنداني، عبد المجيد بن عزيز، **بينات الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته**، مركز البحوث بجامعة الإيمان، ط ٣ - ١٤٢٥هـ، ص ٨٤ - ٨٩.
٣- سورة الإسراء، ج ١٥، آية (١٥).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٥٣.
٥- سورة فصلت، ج ٢٤، آية (١٥).
٦- سورة الأحقاف، ج ٢٦، آية (٢٢).
٧- سورة الأحقاف، ج ٢٦، الآيات (٢٤ - ٢٥).
٨- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ١٥٦.
٩- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ٢٨٦.

ووصف الله هذه الريح، بقوله: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [1]، الصر: " الرّيح الباردة"[2]، والمعنى: استمرت هذه الريح الصرصر تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة دون انقطاع، و يجوز إطلاق اليوم على النهار خاصة دون اليل[3]، والحسوم: القَطْعُ الكامل، ولذلك سُمي السيف بالحسام؛ لأنه يقطع الشيء إلى آخره [4]، وبعد هدوء الريح، خمدت الأجساد، وانقطعت الأنفاس، وخرجت الأرواح، فصُرعوا بتلك الريح، وماتوا شر ميتة، وحالهم (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أي: إن الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية، أي: الريح كانت تدخل أجوافهم فتميتهم كالنخلة الخاوية الجوف [5].

ونجّى الله تعالى هودا ومَن ءامن معه، قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ ﴾[6]، قلا ينجو أحدٌ بعمله إلا برحمة الله تعالى له، كما قال رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا، وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ"[7]، واندثرت عاد بكفرهم وشِرْكم، فيا ليتهم استجابوا، ولكن (أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) [8].

١- سورة الحاقة، ج ٢٨، الآيات (٦ - ٨).
٢- ابن قارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٢٢١.
٣- انظر: الألوسي، **روح المعاني**، ج ٦، ص ٦٢.
٤- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٤٥.
٥- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٨، ص ٢٦١.
٦- سورة هود، ج ١٢، آية (٥٨).
٧- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المرضى، باب: تمني المريض الموت، حديث (٥٦٧٣)، ج ٤، ص ١٥٧.
٨- سورة هود، ج ١٢، آية (٦٠).

استنباط الهم الدعوي:

١- من دلائل همّ سيدنا هود - عليه السلام - في دعوته، حِلْمهُ على جهل قومه بحقيقة التوحيد والدين، فلم يقابل السيئة بمثلها عندما اتهموه بالسفه، بل صبر واحتسب الأجر من الله تعالى، وهذا الحلم والاحتساب هو ثمرة الهمّ الذي في قلبه؛ ليؤمن قومه.

٢- يبرز همّ هود - عليه السلام - في دعوته لقومه، أنه لا يريد منهم مالا، ولا يسألهم على ذلك أجرا، ولا يَرغب في دنياهم، فلو كان عنده همّ لدنيا، أو همّ لمال، لطلب ذلك منهم، ولكن دعوته لله وحده.

٣- من مستلزمات الهمّ الدعوي أنه لا يقتصر على الترغيب، ولكن لا بد من الترهيب حتى يرتدع القلب، وتوجل النفس، وذلك مستنبط من قول هود - عليه السلام - لقومه (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ)، فسيدنا هود - عليه السلام - خائف من عذاب ينزل بقومه فيستأصلهم، وهذا الخوف علامة الهمّ على إيمان الناس، وصلاح حالهم مع الله سبحانه وتعالى.

٤- يظهر همّ سيدنا هود - عليه السلام - في تثبيته للذين آمنوا معه، فالنبي إذا جاء إلى قوم يدعوهم إلى الله تعالى، فهي علامة أن الله أراد بهم الرحمة والنجاة، فمَن استجاب فله الرحمة، ومَن أعرض فعليه السُخط، وعادة المعرضين تثبيط المؤمنين، فيظهر همّه- عليه السلام - أن الله تعالى قرن بين نجاته ونجاة مَن ءامن معه، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)، فلولا ترغيب هود لمَن ءامن، وتصبيرهم على ما مسهم من الأذى، لخِيفَ عليهم الفتنة والردة، فهمُّ هود ليس في بداية دعوته لهم وحسب، وإنما في تثبيت مَن يؤمن ويُقْبِل.

المطلب الثالث: دعوة سيدنا صالح - عليه السلام - لقومه.

هو سيدنا صالح - عليه السلام - من سلالة سام بن نوح - عليه السلام -، بعثه الله تعالى إلى قوم ثمود، وثمود: قبيلة من العرب العاربة، جاؤوا بعد قوم عاد، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم، قال الله تعالى: (وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ)[1]، وكان قوم ثمود يسكنون الحِجر الذي بين المدينة المنورة وتبوك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[2]، والحِجر: الوادي الذي سكنوه، وكانوا ينحتون بيوتهم في صخر الحِجر، قال تعالى: ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[3]، وهي ما تُسمى اليوم ب(مدائن صالح)، وقال تعالى: (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)[4]، أي: قَطّعوا الحجارة الكبيرة واتخذوها بيوتا[5]، وكان قوم ثمود يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحا؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور[6].

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾[7]، أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، والأخ: أُخُوة النسب، (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وحِّدوا الله - عز وجل -، (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ) ابتدأ خلقَكُم، (مِنَ الأَرْضِ) وذلك أنهم من آدم - عليه السلام - وآدم خُلق من الأرض، (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) أي: جعلكم عُمَّارها وسُكَّانَها، وهَيّأ لكم ما يُعَيّشكم[8].

وهذا ما فَصلَه لهم - عليه السلام - في قوله تعالى:﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[9] أي: تركتم عبادة الله تعالى وشكره، وعبدتم غيره، مع كل هذه النعم التي أنتم بصددها، من حدائق وبساتين، ومياه ونعيم، وأعطاكم من ثمار الزروع، ونخل ثمره هضيم، و(هَضِيمٌ) اللطيف اللَّيِّن، وجعلكم عارفين متقنين في

١- سورة الأعراف، ج ٨، لآية (٧٤).
٢- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٨٠).
٣- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٨٢).
٤- سورة الفجر، ج ٣٠، آية (٩).
٥- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٨، ص ٤١٨.
٦- انظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ص ٩٣.
٧- سورة هود، ج ١٢، الآيات (٦١ - ٦٢).
٨- انظر: البغوي، معالم التنزيل، ج ٤، ص ١٨٥.
٩- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٤٦ - ١٤٩).

نحتكم للجبال، و(فره) : الحِذْق والمعرفة، (ورجل فَرِه) أي: حاذِقُ بالشيء عارف فيه [١]، فاتخذتموها بيوتا [٢].
(فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ) من المؤمنين، (مُجِيبٌ) لدعائهم،(قَالُوا) يعني ثمود: (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) أي: كنا نرجو أن تكون سيدا فينا قبل أن تقول ما قلت، وقالوا: (وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) [٣].

ثم طلبوا منه طلبا كانت نتيجته الهلاك والدمار، قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾[٤]، " اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه- وقد اجتمع ملأهم- أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنُنَ به ولَيُصَدقُنَه، ... فقام نبي الله صالح - عليه السلام - فصلى، ثم دعا الله - عز وجل - أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم " [٥]، وقال لهم نبيهم صالح - عليه السلام - أن الناقة لها يوم محدد تشرب من الماء لا يشاركها أحد في ذلك اليوم، وأنتم لكم يوم آخر خاص بكم، قال تعالى: (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[٦].
وكان في ثمود تسعة رؤساء يُفسدون في الأرض، كما قال تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)[٧]، كان بينهم عاقر الناقة المشهور عند أهل التفسير ب (قدار بن سالف)[٨]، وكان هؤلاء التسعة يحرِّضون القبيلة على قتل الناقة، بل وقتل نبيهم صالح - عليه السلام -، وبعد إغراء قدار بن سالف بالمال والنساء، رصد الناقة وقتلها، قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[٩] أي: أسرع أشقى الناس، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمار بن ياسر وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما- قال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

١- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٤، ص ٣٩٤.
٢- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٦، ص ١٢٤.
٣- **المرجع السابق**، ج ٤، ص ١٨٥.
٤- سورة الشعراء، ج ١٩، آية (١٥٤).
٥- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٥٧.
٦- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٥٥ - ١٥٦).
٧- سورة النمل، ج ١٩، آية (٤٨).
٨- لم أقف على رواية صحيحة مسندة في تحديد اسم ذلك الشخص.
٩- سورة الشمس، ج ٣٠، الآيات (١٢ - ١٤).

" أَلاَ أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: أُحَيْمِرُ[1] ثَمُودُ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَرْنِهِ حَتَّى يَبُلَّ مِنْهَا هَذِهِ، وَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ"[2]، ولقد أخبرهم صالح - عليه السلام - ألا يمسوها بسوء، ولكن كذّبوه فعقروها، وأُسنِد العقر للجميع مع أن العاقر واحد (فعقروها)؛ لأنهم كانوا جميعا مؤيدين وراضين لفعل العقر[3].

وبعد عفرهم الناقة، أعطاهم سيدنا صالح - عليه السلام - مهلة ثلاثة أيام حتى يأتيهم العذاب، قال تعالى:﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[4]، ولمّا كان أول تلك الأيام الثلاث، مكر التسعة مكيدة أشنع من قتل الناقة، أرادوا قتل نبيهم صالح - عليه السلام -، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[5]، قالوا: (تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) يعني: أنهم تحالفوا وتوافقوا، أي: قالوا مُقسمين بالله، (لَنُبَيِّتَنَّهُ) أي: لنَقتُله ليلا، (وَأَهْلَهُ) وقومه الذين أسلموا معه،(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ) ولي دمه، (مَا شَهِدْنَا) ما حضرنا، (مَهْلِكَ أَهْلِهِ) لا ندري من قتلهم، (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)، (وَمَكَرُوا مَكْرًا) أي: غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح - عليه السلام - والفتك به[6].
(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) وكان جزاؤهم على مكرهم تعجيل عقوبتهم، (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)، فكان عقاب هؤلاء التسعة غير عقاب بقية القوم، وبعد انقضاء الأيام الثلاثة أرسل الله تعالى عليهم الصيحة، قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)[7]، وفي سورة الأعراف، قال تعالى :﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[8].

١- **(أُحَيْمِرُ):** تصغير أحمر، ويدل على اللون الأشقر، المعروف بالحسن والجمال . انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٨٠.
٢- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب معرفة الصحابة - رضي الله تعالى عنهم -، باب: ذكر إسلام أمير المؤمنين علي - رضي الله تعالى عنه -، حديث (٤٦٧٩)، ج ٣، ص ١٥١. قال الحاكم:" هذا حديث صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.
٣- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٣٠..
٤- سورة هود، ج ١٢، آية (٦٥).
٥- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٤٩ - ٥١).
٦- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٦، ص ١٧٠.
٧- سورة القمر، ج ٢٧، آية (٣١).
٨- سورة الأعراف، ج ٨، آية (٧٨).

وفي سورة الحاقة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾[1]، والصيحة: الصاعقة، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وصفت ب (واحِدَةً) للدلالة على أنها خارقة للعادة، إذ أتت على قبيلة كاملة فدمرتهم [2]، وفي آية أخرى، قال تعالى: ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ ﴾[3]، دمدم عليهم: أطبق عليهم الأرض، فسواها: جعل الأرض مستوية بهم، بحيث لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم [4]، والرجفة: " اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة، والصواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلزال، فالرجفة: اسم للحالة الحاصلة" [5].

هذه نهاية الظلم والشرك، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨ ﴾[6]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ:" لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِالْحِجْرِ قَالَ : لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ "[7].

وكما قال ذو القوة المتين: ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣ ﴾[8].

١- سورة الحاقة، ج ٢٩، آية (٥).
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ١٩٣.
٣- سورة الشمس، ج ٣٠، آية (١٤).
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٣١.
٥- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص ١٧٦.
٦- سورة هود، ج ١٢، آية (٦٨).
٧- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب: نزول النبي - صلى الله عليه وسلم - الحِجر، حديث (٤٤١٩)، ج ٦، ص ٩.
٨- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٥٢ - ٥٣).

استنباط الهمّ الدعوي:

١- الهمّ الدعوي لدى الأنبياء -عليهم السلام- يظهر في كلامهم وأخلاقهم، ومنبع هذه الأخلاق تنبثق من مقصد بعثتهم، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فصالح - عليه السلام - أول ما دعا قومه إلى توحيد الله تعالى، وهو المقصد الأعلى، والهمّ الأسمى، قال لهم: (يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، فإقامة البشر على الإيمان الصحيح، والإسلام المستقيم، هو أكبر همٍّ للأنبياء والدّعاة.

٢- خلق الله تعالى الدنيا لمقصد عظيم، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[١]، فصالح - عليه السلام - ذكّر قومه بهذا المقصد العظيم، عندما قال: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)، وذكّرهم بمقصد إيجادها: (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)، فَخَلق الله تعالى الأرض؛ لإعمارها بالأعمال التي ترضيه، ولم يخلقها ليُكفر به ويُعصى فيها، وإنما خلقها ليُعبد ويُطاع، فمِن مظاهر ألمّ في دعوة صالح - عليه السلام - تبيين الفرق بين مقصد إيجاد الدنيا وبين حاجاتها وشهواتها.

٣- ومن دلائل حقيقة الهمّ في الدعوة إلى الله تعالى، ألا يكون الإنسان قاضيا في إصدار الأحكام على الناس، في تكفيرهم وتبديعهم وتضليلهم، وإنما يرشدهم إلى رحمة الله القريبة، ومغفرته الواسعة، مهما عمل الإنسان من عمل، فالنبي صالح - عليه السلام - مع كفر قومه وعنادهم، إلا أنه لم يقنطهم من رحمة الله تعالى، وكان طامعا في إيمانهم، وذلك بترغيبهم بقرب مغفرة الله ورحمته، وقوله: (اسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ).

٤- بعد هلاك ثمود بأشد أنواع الإهلاك، قال لقومه: (يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)، قال الإمام الرازي: "والفائدة في ذكر هذا الكلام، إما يسمعه بعض الأحياء فيُعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة، وإما لأجل أنه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة، فإذا ذكر ذلك الكلام فرجت تلك القضية عن قلبه" [٢]، فقوله- عليه السلام - (ولكن لا تحبون الناصحين)، دليل على مدى الحزن والأسى الذي أصابه بعد فناء قومه، فكان يعزي نفسه باستذكاره لعنادهم، وهذا علامة همّه على هدايتهم - صلى الله عليه وسلم - .

١- سورة الذاريات، ج ٢٧، لآية (٥٦).
٢- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٣٠٩.

المطلب الرابع: دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لقومه.

هو إبراهيم بن تارخ- خليل الرحمن،-عليه السلام - وُلِد في بابل، وتزوج بسارة وهاجر - رضي الله عنهما - وكان له من الولد (إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام -)، وجعل الله في ذريته الكتاب والنبوة [١].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[٢] أي: أعطينا إبراهيم - عليه السلام - النظر والاستدلال، وكنا عالِمين بصلاحه على حمل النبوة والرسالة، (إِذْ قَالَ لأبيهِ) آزر، (وَقَوْمِهِ) النمرود وأتباعه، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[٣]، والتماثيل: الأصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله، "والتمثال: اسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى"[٤]، ولذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- :" أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ"[٥]، وعاكفون: مقيمون على عبادتها، وما كانت هذه العبادة إلا تقليدا لأسلافنا، وهذا هو الضلال بعينه؛ لأنكم بعبادتها أنتم وأسلافكم، خسرتم الدنيا؛ لأنها لا تجلب لكم نفعا، ولا تدفع عنكم ضرا، وخسرتم الاخرة؛ لأن عبادة الأصنام شرك وكفر بالله الواحد القهار، ومصير المشركين إلى النار [٦].

ومثله قوله تعالى - بعد ذكره تعالى لقصة نوح - عليه السلام - : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[٧] ، أي: إن إبراهيم - عليه السلام - على منهاج نوح في الدعوة إلى الله وتوحيده.

وفي حوار إبراهيم - عليه السلام - لقومه قال تعالى على لسان قوم إبراهيم - : ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[٩]

١- ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ص ١٠٥.
٢- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٥١).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، الآيات (٥٢- ٥٤).
٤- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٢٩٦.
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب اللباس والزينة، باب: لا تدخل الملائكة بيت فيه كلب أو صورة، حديث (٥٦٥٩)، ج ٦، ص ١٦١.
٦- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٢٩٦.ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ص٧٠ - ٧١.
٧- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (٨٣ - ٨٦).
٨- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ٢٤.
٩- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (٧١ - ٧٤).

، أقروا له أنها لا تسمع داعيا، ولا تنفع ولا تضر، ولا يعبدوها إلا تقليدا لآبائهم، ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]، أي: أجاد فيما تقول، أم أنت لاعب مازح؟، ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]، بل أنا جاد في كلامي، ربكم الذي يجب أن تعبدوه ، وتطلبوا منه جلب المنافع، ودفع الأضرار والمصائب، هو الذي خلق السموات والأرض، القائم على تدبير كل ما فيهن من خلق، (وأنا على ذلكم من الشاهدين) إما صيغة قسم للتأكيد على قوله، وأما أن الشاهد لتبيين الحكم، فالمعنى: وأنا أبين بالدليل ما أقول، وما يدل على هذا القول، قول القائل: "شَهِدَ فلانٌ عند القاضي، إذا بيَّنَ وأعلَمَ لمَن الحقُّ وعلى مَنْ هو" [3]، ولقد بين لهم قائلا: ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]، فأثبت لهم - عليه السلام - بالقول والحجة أن آلهتهم التي بعبدونها، ما هي إلا خلق من خلق الله تعالى، فكيف يَعبد مخلوق مخلوقا مثله، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [5]، و النَّحْتُ:" النَّشْرُ والقَشْر، والنَّحْتُ: نَحْتُ النَّجَّار الخَشَبَ"[6]. [7]

وكان لقوم إبراهيم - عليه السلام - عيد يخرجون إليه، فأراد سيدنا إبراهيم أن يغتنم هذه الفرصة ويكسر الأصنام، وأخبر الله تعالى عن فعله: ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[8] أي: إن قوم إبراهيم - عليه السلام - كانوا يعظمون النجوم ويقضون بها على غالب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم - عليه السلام - في النجوم، يعني: في علوم النجوم، وهو كما يقال: فلان نظر في الفقه، أي عالم بالفقه، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون، حتى إذا قال: (إِنِّي سَقِيمٌ) سكنوا إلى قوله، ورضوا به فتركوه، أما قوله: (إِنِّي سَقِيمٌ) أي: سأسقم، كقوله تعالى:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ ﴾[9]، أي: ستموت، أو قلبي سقيم بسبب شرككم بالله تعالى، فاستخدم أسلوب التعريض والتورية، ولم يكذب، فتولوا عنه معرضين، وتركوه فكان له ما يريد [10].

١- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٥٥).
٢- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٥٦).
٣- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ١٧٢.
٤- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (٧٧- ٨٢).
٥- سورة الصافات، ج ٢٣، آية (٩٥).
٦- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٢، ص ٩٧.
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٢٩٧. وانظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ص ٧٠ - ٧١.
٨- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (٨٨ - ٩٠).
٩- سورة الزمر، ج ٢٣، آية (٣٠).
١٠- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦، ص ٣٤١.

ثم انتقل إبراهيم من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد، وهذا دال على عزمه وجَدّه في تغيير المنكرات، وإحياء المعروفات، فقال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1]، أقسم بالله لَيَكْسِرنّ هذه الأصنام بعد أن يذهبوا إلى عيدهم، والكيد: " السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال" [2]،﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3] ، و الجذاذ: القِطع المكسّرة [4]، وكسّر سيدنا إبراهيم - عليه السلام - الأصنام إلا صنما عظيمَ الحجم، ووضع الفأس في يده؛ ليَظهر أنه هو الذي كسّر الأصنام؛ لغيرته أن يُعْبد معه غيره،﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾[5] ، أي: لمّا رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا، قالوا على وجه الغضب والإنكار: مَن فعل هذا بآلهتنا؟! إنه ظالم بفعلته هذه، (قَالُوا) أي: ضعفاء القوم، ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾[6]، أي: شابا قويا يُعيبهم يُسمى إبراهيم، (قَالُوا) أي: أشراف القوم وسادتهم، ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[7] ، بمعنى: ائتوا به على مرأى من الناس حتى يشهدوا عليه بكسر الأصنام، أو يشهدوا عقابه؛ ليكون عبرة لغيره [8] .

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾[9] ، هذا الاستفهام جاء؛ لأن السماع لم يكن من كل الناس، بل من فئة منهم، ﴿ قَالَ بَل فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[10]، وفي هذه الآية عدة أقوال، أهمها:

- في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: (بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فسألوهم) أراد أن يبين لهم أن الذي لا يتكلم لا يستحق أن يُعْبد [11].

٢- في الآية أسلوب التعريض [12]، لأن غرضه بقوله: (فَاسْأَلُوهُمْ) على سبيل الاستهزاء، وإقامة الحجة عليهم [13] .

١- سورة الأنبياء، ج١٧، آية (٥٧).
٢- الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٠، ص ١٤٢.
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٥٨).
٤- انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ١، ص ٣٦٧.
٥- سورة الأنبياء، ج١٧، آية (٥٩).
٦- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٠).
٧- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦١).
٨- انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨. و انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٣٤٨- ٤-٣٤٩.
٩- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٢).
١٠- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٣).
١١- انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١١، ص ٣٠٠.
١٢- التعريض: الدلالة على المعنى من طريق المفهوم، وسمي تعريضا؛ لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ، أي: من جانبه، ويسمى التلويح؛ لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده. الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج ٢، ص ٣١١.
١٣- **المرجع السابق**، ج ٢، ص ٣١١.

أراد نسبة الفعل للصنم الكبير، مجاراتهم على اعتقادهم وسلوكم، حتي يدركوا فساد هذا الاعتقاد بالنظر والفكر، والمعنى: كيف تنكرون فعل هذا الإله الكبير من تحطيمه للأصنام الصغيرة، وهو يستطيع أن يفعل أعظم من ذلك بكثير؛ لأنه إله ينفع ويضر، ويفعل ما يشاء؟! [١].

وعند سماعهم لهدير قول إبراهيم وزئيره، صوّر القرآن الكريم حالهم: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٢]، أي: رجع بعضهم إلى بعض، أو رجع كل واحد منهم إلى نفسه، وتفكر في دفاع إبراهيم، فلما انتبهوا، قالوا لبعضهم: إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم لمَن لا يستطيع النطق، والدفاع عن نفسه، فضلا أن يدفع الضر عن غيره، ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٣]، والنَّكْس:" قَلْبُك شيئاً على رأسه"[٤]، أي: أصبحوا كالإنسان الذي يُقلب على رأسه، وفيه تمثيل لتغيير رأيهم بعد معرفتهم للحق، وهذا التمثيل من باب التشنيع عليهم، فقالوا: لقد علمت أن هذه الآلهة لا تنطق، فلماذا تقول اسألوهم؟، فأجاب الخليل بغضب: ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ ﴾[٥] ، أي: أُف لكم ولأصنامكم، وأف: كلمة تقال عند الضجر والتضايق، وإنما تأفف سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ؛ لأن الحِجج واضحة، والبراهين أمام أعينهم ناصعة، والبينة عليهم قائمة، أفلا يعقلون الصواب والحق بعد هذا كله؟! [٦].

ثم بعد ذلك أرادوا إهلاكه والقضاء عليه، لعدم قدرتهم على مجادلته - وهذه عادة المُفلسين-، وأمرهم النمرود بإحراقه، فنجاه الله من كيدهم، وجعل له آية عُظمى، ومعجزة كبرى، بأن جعل النار بردا وسلاما عليه.، قال تعالى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٧] .

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٢، ص ١٥٦.
٢- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٤).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٥).
٤- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٥، ص ٣٨٤.
٥- سورة الأنبياء، ج ١٧، الآيات (٦٦- ٦٧).
٦- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ص ٧٥ - ٧٦.
٧- سورة الأنبياء، ج (١٧)، آية (٦٩).

استنباط الهمّ الدعوي:

١- ظهر همّ إبراهيم - عليه السلام - في دعوته بأنه صاحب نظر وسرعة بديهة، وإعمال عقل وحكمة فريدة، ويظهر ذلك عندما دعا قومه في مراحل كثيرة، كحكمته في تكسير الأصنام، ونسب الفعل للصنم الكبير، وفي محاجته لقومه عندما أفل الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، كما تم تفصليه من قبل [١]، واستدل بذلك على وجود الواحد الأحد، وغير ذلك من مواقف العلم والحكمة والمحاجة، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على قوة اهتمامه، وحرصه على هداية الناس.

٢- النبي إبراهيم - عليه السلام - كان وحيدا بين آلاف الكفرة والملحدين، بل مع وجود مَلِك ظالم جبار، لكن من همّه على إقامة التوحيد، ونبذ الشرك والكفر، لم يلتفت لا إلى مَلِك، ولا قريب، ولا إلى بعيد، بل حمل لواء الدين والإيمان، ونشره في قومه، بقوة واقتدار، وشجاعة وإقدام، وعندما وقفوا ضده، وأرادوا الكيد به، نصره الله نصرة خاصة كانت آية للعالمين، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٢]، وهذه النصرة جاءت جزاءً من جنس ما عمل، نصر إبراهيمُ دين الله وحيدا، فجاءته نصرة فريدة؛ لأنه ليس عنده همّ إلا رضا الله وحده، وتبليغ دينه وشرعه، ولو على حساب نفسه.

٣- يظهر همّ الخليل - عليه السلام - جليا في إنكاره للمنكر، بعد ما أقام الحجة على قومه، عند قوله: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٣]، وأيضا عندما جاءته الملائكة تخبره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام - كما سيأتي في المطلب الذي يلي هذا المطلب مباشرة، جادلهم حتى يتمهَلوا ويُمهلوا، فوصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[٤]، فكثرة التأوه: وهو الإكثار من الآهات، الدالة على التَحسُر والتوجع [٥]، دليل على حجم الهمّ الذي كان يحمله النبي الكريم في قلبه.

١- الفصل الأول، المبحث الثاني، المطلب الرابع، ص ٥٥.
٢- سورة الأنبياء، ج (١٧)، آية (٦٩).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٦٧).
٤- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٥).
٥- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٣، ص ٥٥١.

المطلب الخامس: دعوة لوط - عليه السلام- لقومه.

بعد دعوة سيدنا إبراهيم لقومه، كان من ضمن مَن آمن معه سيدنا لوط - عليه السلام - ، قال تعالى: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)، وإبراهيم - عليه السلام - هو عمُ لوط - عليه السلام - ، انتقلا من أرض بابل إلى أرض فلسطين، وقد كانت طائفة من الكنعانيين في بلد يقال لها (سُدوم) يعملون فاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، فأرسل الله تعالى لوطا إلى هؤلاء القوم المجرمين [1]. قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[2]، أي: إن الله تعالى أرسل لوطا - عليه السلام - إلى قومه الذين يعملون الخبائث، قال تعالى :﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[3]، وهذه الخبائث بينتها آية أخرى، قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[4]، أي: إن هؤلاء القوم استغنى رجالهم ببعضهم البعض، وكانوا قطّاع طرق، إما لأخذ أموال المارّة، أو قتلهم، أو إرغامهم على فعل الفاحشة، والسرف: تعدي الحد ومجاوزته [5]، لذلك خاطبهم لوط - عليه السلام - أنهم مسرفون، لِما رأى من الفواحش الشنيعة [6].وكعادة الظالمين، قالوا للنبي الكريم ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[7]، فدعا لوط ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[8]. فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأرسل الله عليهم ملائكة كرام ليُهلكوا هذه القرية الخبيثة، وفي طريقهم مرّوا على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وبشروه أنه سيُولد له ولد، قال تعالى:﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[9] نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[9]

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص ١٧٧.
٢- سورة الأعراف، ج ٨، الآيات (٨١ - ٨٢).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٧٤).
٤- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (٢٩).
٥- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ١١٩.
٦- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٠، ص ١٦٢.
٧- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (٢٩).
٨- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (٣٠).
٩- سورة الحجر، ج ١٤، الآيات (٥١- ٥٦).

وبعد أن بشّرت الملائكة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بالغلام العليم، قال لهم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ ﴾[1]، أي: بعدما ذهب عن إبراهيم - عليه السلام - الروع، وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾[2]، وهو ما أوجس من الخيفة من الملائكة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وطابت نفسه، ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ ﴾[3]، أي: يجادل في هلاك قوم لوط رجاء إسلامهم، فمدحه الله تعالى، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ ﴾[4]، فقالت له الملائكة: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦ ﴾[5]، أي: يا إبراهيم إنما هو أمر الله بإهلاك هؤلاء القوم الفاسقين، الذي لا اعتراض على أمره، ولا تعقيب لحكمه[6].

وبعد مفارقتهم إبراهيم - عليه السلام -، أتوا لوطا- عليه السلام - في صورة شبان حِسان الوجوه - ابتلاء من الله تعالى لقومه- ، فلما رآهم ضاقت نفسه؛ خشية أن يستضيفهم أحد من قومه، فيفعلوا فعلتم، فاستضافهم لوط- عليه السلام- عنده، وقال: هذا يوم شديد البلاء ؛ لِما عَلِم من مدافعة قومه لهؤلاء الضيوف، قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ ﴾[7]،﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ ﴾[8] أي: لمّا سمع قوم لوط بالخبر، جاؤوا مسرعين إلى منزل لوط - عليه السلام-، وقال لهم: (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، كما وصف الله تعالى سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم - ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[9]، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ ﴾[10]، ولكنهم اتبعوا أهواءهم[11].

١- سورة الحجر، ج ١٤، الآيات (٥٧- ٥٨).
٢- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٤).
٣- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٤).
٤- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٥).
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٦).
٦- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٣٥.
٧- سورة هود، ج ١٢، آية(٧٧).
٨- سورة هود، ج ١٢، آية(٧٨).
٩- سورة الأحزاب، ج ٢١، آية (٦).
١٠- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٦٥- ١٦٦).
١١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ ﴾[1]، أي: ليس لنا في النساء من شهوة، وإنك تعلم ما نريد من أضيافك، فرد عليهم - عليه السلام - ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ ﴾[2]، فأبوا أن يستجيبوا لنصحه، وغلبتهم شهواتهم وأهواؤهم، وأرادوا أضيافه عنوة عنه، فقال لهم عندئذ: ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ ﴾[3]، أي: لو أن لي عشيرة، أو آوي إلى مَن يمنعني منكم؛ حتى أصدّكم عن أفعالكم الخبيثة، وإنما قال ذلك على سبيل الاستكانة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد"[4]، والرُكن: " رُكن الشَّيء: جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى رُكْنٍ شديد، أي: عِزٍّ ومَنْعَة " [5]، فلما سمعت الملائكة مقالته لهم، قالوا له: إن ركنك لشديد، ثم كشفوا عن حقيقتهم، وقالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾[6]، وفي آية أخرى ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾[7]، فانقلبوا وهم يتحسسون الطريق [8].

وبعد أن غادر القوم البيت، قالت الملائكة لسيدنا لوط - عليه السلام - ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ ﴾[9]، أي: أمَرت الملائكة لوطا - عليه السلام - أن يخرج بأهله بعد مُضي نصف الليل، "والسُّرَى: سَير اللَّيل، يقال سَرَيْت وأسريت" [10]، وأن يمشي لوطا وراءهم؛ ليكون أحفظ لهم، (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ)، و نُهُوا عن الالتفات عند سماع الصيحة ونزول العذاب؛ ليجدّوا في السير، ويتباعدوا عن القرية، (وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)، (وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)أي: إلى المكان الذي يوجد فيه إبراهيم- عليه السلام -، ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ ﴾[11]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ ﴾[12]، فأصبحوا في أسوأ صباح [13].

١- سورة هود، ج ١٢، آية (٧٩).
٢- سورة الحجر، ج ١٤، الآيات (٦٨ - ٦٩).
٣- سورة هود، ج ١٢، آية (٨٠).
٤- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ}، حديث (٣٣٨٧)، ج ٤، ص ١٨٣.
٥- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٣٥٦.
٦- سورة هود، ج ١٢، آية (٨١).
٧- سورة القمر، ج ٢٦، آية (٣٧).
٨- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٧٨.
٩- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٦٥).
١٠- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ١٢٠. ذ
١١- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٦٦).
١٢- سورة هود، ج ١٢، آية (٨١).
١٣- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٥٤١.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ﴾[2]، أي: عندما جاء أمر الله تعالى بعذاب القوم، نجّا الله لوطا وأهله في وقت السحر - آخر الليل- ؛ لأنهم كانوا مؤمنين شاكرين، أما الكافرون الجاحدون - ومنهم امرأته- فعذبهم الله عذابا شديدا، وذلك أن جبريل - عليه السلام - أدخل جناحه تحت أرض قرى قوم لوط - عليه السلام -، فأوصلها إلى سماء الدنيا، ثم قَلَبَها رأسا على عقب، واتّبعَتهم حجارة من سجيل - وهو واد في جهنم - منضود، أي: متتالية متتابعة عليهم، مسومة، أي: مُعَلّمة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، وسمّى الله تعالى هذه القرى (بالمؤتفكات)، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ ﴾[3]، " ائتفكت بهم الأرض، أي: انقلبت"[4]، فسُميت بهذا الاسم لانقلابها رأسا على عقب [5].

وجعل الله تعالى هذا الخسف العظيم آية وعبرة لكل مسلم، ولكل مَن تُسول له نفسه الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ ﴾[6]، أي: ما كان في هذه القرى من بيت مسلم، إلا بيت لوط - عليه السلام -، ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧ ﴾[7]، وقال تعالى محذراً العرب - وبخاصة كفار قريش - ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ ﴾[8]، وذلك لأن قريشا كانوا يسافرون إلى الشام، والمسافر في أكثر الأمر، إنما يمشي في الليل، وفي أول النهار، فلهذا السبب عَيّنَ تعالى هذين الوقتين، ثم قال تعالى: (أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعني: أليس فيكم عقول تعتبرون بها، وتؤمنون بالله ورسوله، فإنها﴿ لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾[9]، والسعيد مَن اتعظ بغيره [10].

١- سورة القمر، ج ٢٦، الآيات (٣٤ - ٣٥).
٢- سورة هود، ج ١٢، الآيات (٨٢ - ٨٣).
٣- سورة النجم، ج ٢٦، آية (٥٣).
٤- ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ٣٩٠.
٥- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٤٠.
٦- سورة الذاريات، ج ٢٦، آية (٣٦).
٧- سورة الذاريات، ج ٢٦، آية (٣٧).
٨- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (١٣٧ - ١٣٨).
٩- سورة الحج، ج ١٧، آية (٤٦).
١٠- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦، ص ٣٥٥.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- كان لوط - عليه السلام - نبيا كريما حكيما عالما، أرسله الله تعالى إلى قوم لم يسبقهم أحد في كفرهم وإجرامهم، بل تعدى سوء الخُلُق فيهم إلى منافاة الفطرة، بحيث كانوا يأتون الرجال دون النساء، والأنبياء لا يوجد أرحم ولا أرأف منهم، فهذا الرجل الكريم، النبي الجليل، كيف سيرحم على مثل هؤلاء النوعية من الناس، إن لم يكن قلبه مليء بالهمّ على صلاح حالهم، ورجوعهم عن غيهم وفواحشهم، فمصدر رحمة لوط - عليه السلام - على قومه، همّه العظيم عليهم في صلاح دنياهم وآخرتهم.

٢- من مقتضيات الهمّ الدعوي، أن الداعي إلى الله تعالى يكره كل ما يؤدي إلى معصية الله، ويسد كل طريق تؤدي إليها؛ لأنه لا ينتظر المعصية حتى تقع، بل يسد الطرق المُوصِلة إليها أصلا، ومن براهين هذا الكلام، رؤية لوط - عليه السلام - الملائكة في بداية الأمر على صورة شبان حِسان، فعَلِمَ ما سيكون من مدافعة قومه إذا علموا بهؤلاء الشبان، (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) فبادر- عليه السلام - على سد الطريق على قومه واستضافهم عنده، فَهَمّه - عليه السلام - في ردع طريق المعصية، فضلا عن الوقوع فيها.

٣- صاحب الهمّ لا ييأس في دعوة الناس حتى آخر لحظة، ويتجلى ذلك في أن قومَ لوط لمّا سمعوا بضيوفه، أتوا إليه وأردوا السوء بهم، فما منعه ذلك من تذكيرهم ووعظهم لعلهم يرشدون، وهو في أصعب الظروف، قال لهم: (يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ).

٤- الذي يحمل همّ الدعوة إلى الله، يبقى أثر دعوته محفوظا تتناقله الأجيال؛ ليكون لهم عبرة وعظة، سواء من أقوال أو أفعال، فلوط - عليه السلام - أقواله الدعوية لقومه، سطرها الله تعالى في كتابه الكريم، فأصبحت أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - تتعبد ربها بتلاوة أقوال لوط - عليه السلام - لقومه، لِمَا لهذه الكلمات من رضا لله، وأصبحت هذه الأقوال نهجا لِمَن أراد اتباع لوط - عليه السلام - في دعوته لقومه، بل والأثر قائم حتى بعد هلاكهم؛ ليتعظ مَن ينظر، ويتفكر مَن يسير، قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، فأثر همّ دعوة لوط - عليه السلام - موجود في السطور والصدور، تجله الأعين وتتفكر بآثاره العقول.

١- سورة الذاريات، ج ٢٧، الآيات (٣٥- ٣٧).

المطلب السادس: دعوة شعيب - عليه السلام - لقومه.

أرسل الله تعالى شعيبا - عليه السلام - إلى مدين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] ، وأرسله الله إلى أصحاب الأيكة، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ ﴾[2]، واختلف العلماء في شأن إرسال شعيب إلى قوم واحد أم أن قوم مدين غير أصحاب الأيكة؟

والجواب على قولين:

١- ذهب بعض المفسرين - كابن كثير- أنهم أمة واحدة، وذلك باعتبار أن الخطاب الذي وُجِّه لقوم مدين، ذاته الذي وُجِّه لأصحاب الأيكة[3].

٢- وذهب البعض الآخر - كالطبري - إلى أنهم أمتين، كلٌ منهما مستقل عن الآخر، وذلك باعتبار أن الآية التي أخبرت عن إرسال شعيب - عليه السلام - إلى مدين نسبته إليهم، وأنه من بني جلدتهم، ألم يقل الله تعالى: (أخاهم شعيبا)، وهذا على خلاف الآية التي ذكرت أصحاب الأيكة، فلم تنسبه الآية لهم، وأيضا كِلا القومين عُذّب بعذاب يختلف عن الآخر [4].

والذي يراه الباحث، أن الخلاف لفظي، وسواء قلنا بالرأي الأول أو الرأي الثاني، فالثمرة واحدة؛ لأن النبي عندما يُكَلفُ بأداء الرسالة، لا يُميز في تبليغه للرسالة بين قومه وعشيرته وبني جلدته، وبين غيرهم، ولأن الأنبياء كلهم أُمناء على دين الله تعالى وشرعه، فشعيب - عليه السلام - كما بلّغ مدين، بلّغ أصحاب الأيكة، بذات الرحمة، والعاطفة، والشفقة، لكل من البلدين.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ

١- سورة هود، ج ١٢، آية (٨٤).
٢- سورة الشعراء، ج ١٩،الآيات (١٧٦- ١٧٩).
٣- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٨٥.
٤- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٧، ص ١٢٤.

قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [1].

ذكر القرآن الكريم دعوة شعيب - عليه السلام - لأهل مدين فكان مما قال لهم: يا قوم اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا؛ ثم دعاهم إلى ترك منكر هو من أسوأ الأخلاق في المعاملات، وهو التطفيف والبخس في الميزان والمكيال، والبخس: النقص[2]، وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها [3]، وكما قال الله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[4]، والملاحظ: أن القرآن الكريم يقص علينا جرائم مختلة لهؤلاء القوم، (ولا تفسدوا في الأرض) معناه "ولا تفسدوا شيئا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس: بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال: بالغصب والسرقة ووجوه الحِيَل، وإفساد الأديان: بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب: بسبب الإقدام على الزنا وسبب القذف، وإفساد العقول: بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة : النفوس، والأموال، والأنساب، والأديان، والعقول" [5].

وبخاصة بعد ما أرسل الله الأنبياء - عليهم السلام -؛ لأن الكفر بالرسل، وإنكار الكتب، وعدم قبول الشرائع، موجب للهلاك والعذاب، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[6]، (ولا تعثوا) أي: لا تتمادوا في فسادكم، وكلمة (مفسدين) تأكيد لقوله: (ولا تعثوا) [7].

ونهاهم عن القعود في الطرقات ليصدوا مَن يأتي إليه ليؤمن به، أو يسمع منه، فيصدّوه ويتوعدوه ويهدّدوه، (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ)[8]، وقال لهم مُرغّبا: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾[9]، وقال أيضا: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[10]، أي: إني أراكم في سعة رزق، ورغيد عيش، فطاعة الله ورسوله، وما يبقى لكم من أرباح بعد البيع الشرعي، خير لكم من الكفر والبخس وأكل الأموال بالباطل [11].

١- سورة الأعراف، ج ٨، الآيات (٨٥- ٨٧).
٢- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ١، ص ١٩٩.
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج
٤- سورة المطففين، ج ٣٠، الآيات (١-٣).
٥- الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٢٨٣.
٦- سورة هود، ج١٢، آية (٨٥).
٧- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٥٠٣.
٨- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٧، ص ٢٤٩.
٩- سورة هود، ج ١٢، آية (٨٤).
١٠- سورة هود، ج ١٢، آية (٨٦).
١١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٤٢- ٣٤٣.

فكان جواب قومه:﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ ﴾ [1]، أي: أصلاتك يا شعيب وما تقرأ فيها، تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إذا تراضينا نحن فيما بيننا من البخس، (إنك لأنت الحليم الرشيد) وإنما قالوا ذلك على وجه السخرية والاستهزاء [2].

فقال لهم شعيب - عليه السلام - :﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾ [3].

أي: يقول لهم - عليه السلام - أرأيتم يا قوم، إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه من التوحيد وحُسن المعاملة في الأموال، (وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) أي: النبوة، وهي أفضل الأرزاق، فالرزق ليس مقصورا على المال، وإنما كل توفيق للعبد من طاعة هو رزق من الله تعالى، فمع هذه البينة والرسالة من الله تعالى تكفرون، وتتبعون أهواءكم، كأنه قال لهم: أمَا لكم عقول تفكِرُون بها، وتستدلون بها على صحة ما أدعوكم إليه، (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالفه في السر، فأفعله خفية عنكم [4].

قال الشاعر:

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عظيمُ

وابدَأْ بِنَفْسِك فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذَا انْتَهَتْ عَنْه فأنْتَ حكيم

وهناك يُسْمع إنْ وَعظْتَ، ويُقْتَدَى ... بالفعل منك، ويَنْفع التَّعلِيمُ [5].

١- سورة هود، ج١٢، آية (٨٧).
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٨٧.
٣- سورة هود، ج ١٢، الآيات (٨٨- ٩٠).
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٤٤.
٥- أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، (ت ٦٩ غـ)، **ديوان أبي الأسود الدؤلي**، صنعه: أبو سعيد السُكّري، ت (٢٣٠ غـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار الهلال - بيروت، ط - ١٤١٨ هـ: ص ٤٠٤.

(إِنْ أُرِيدُ إلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) أي: مرادي في ما آمركم به وأنهاكم عنه، إصلاحكم وإرادة الخير بكم، (وَمَا تَوْفِيقِي) أي: في إصابة الحق فيما أريده،

والتوفيق، تقول: وَفَّقه الله سبحانه للخير: أي: ألهمه، ودعا بالتَّوْفيق: استصوب فعله، واسْتَوْفقتُ الله، أي: سألته التَّوْفِيق والإعانة [1]، (إلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) في جميع أموري، (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أي: مرجعي في كل أحوالي إلى الله عز وجل [2] .

ثم قال لهم محذّرا ومنذرا: (لا يجرمنكم شقاقي) أي: لا تحملنكم عداوتكم وبغضكم لي، على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من العذاب، وقوم لوط ليسوا بِبَعيدين عنكم، ويحتمل عدم البُعد، قرب الزمان أو قرب المكان [3].

(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا توبة صادقة، فإنه تعالى يقبل التوبة عن عباده، لأن (رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) أي: رحيم بعباده، يتودد لهم بالنِعم؛ ليحبوه ويطيعوه، وهو الغني [4].

قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾ [5]، أي: يا شعيب ما نفهم كثيرا من قولك في البعث والنشور، مع أنه كان فصيحا بليغا في كلامه، ولكن ﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [6]، وإنما قالوا هذا؛ إعراضا عنه، واحتقارا لشأنه، ثم قالوا مستكبرين: (وإنّا لنراك فينا ضعيفا) يعنون: ذليلا؛ لأن عشيرته ليسوا على دينه، فليس له أعوان ولا أنصار، وما علموا أن الله ولي الصالحين، وناصر المرسلين، وقالوا: ولولا معزة قومك علينا لرجمناك بالحجارة، وما لك معزة ولا قيمة عندنا، وما أنت علينا بغالب ولا قاهر [7]، ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ ﴾ [8]، أي: اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا، أي: جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم عن قتلي مخافة قومي، ثم قال لهم: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ ﴾ [9]،

١- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ٣٨٢.
٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٤٤.
٣- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٨، ص ٣٨٩.
٤- انظر: **المرجع السابق**، ج ١٨، ص ٣٩٠.
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (٩١).
٦- سورة الأنعام، ج ٧، آية (٢٥).
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٩، ص ٩١.
٨- سورة هود، ج ١٢، آية (٩٢).
٩- سورة هود، ج ١٢، آية (٩٣).

أي: لَمّا يئس نبيّ الله شعيب من استجابة قومه له، قال يا قوم: (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد شديد، (إِنِّي عَامِلٌ) على طريقتي ومنهجي، (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أي: في الدنيا والآخرة، (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) أي: انتظروا إني معكم من المنتظرين، وسنرى ماذا يحل بي وبكم [1].

ثم دعا شعيب - عليه السلام - فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [2]، أي: يا ربنا احكم بيننا، وأنت يا ربنا خير الناصرين، فاستجاب الله تعالى دعاء شعيب - عليه السلام - فأهلكهم، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [3]، أي: أصابتهم زلزلة شديدة فأصبحوا خامدين على الأرض، ملتصقين على وجوهم [4]، قال الله - عز وجل - : (أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) [5].

وكذلك أصحاب الأيكة بعد ما دعاهم إلى الله تعالى، وإلى عدم الغش في المعاملات، أجابوه: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [6]، أي: أنت يا شعيب من المسحورين، أي: ما تقوله هو بتأثير السحر، و إنك لكاذب في قولك إنك رسول من عند الله، ثم طلبوا منه على سبيل الاستهزاء والاستبعاد، أن يُسقط عليهم كسفا من السماء إن كان صادقا في قوله، [7] "والكِسْفة: القِطعة من الغَيم" [8]، و هذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [9]، أي: إذا رأوا السُحب العظيمة قادمة نحوهم ليعذبوا بها، قالوا- من جهلهم، واستبعادا لوقوعه- : هذا سحاب ممطرنا [10].

وقالوا: فليأتنا العذاب إن كنت من الصادقين في قولك، (قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [11].

(ويوم الظُلة): هو يوم هلاكهم، أصابهم الله تعالى بعذاب من جنس ما طلبوا، إذ جاءهم حر شديد استمر عدة أيام، فبينما هم كذلك جاءتهم سحابة عظيمة فاستظلوا تحتها، حتى إذا اجتمعوا تحتها جميعا، أمطرت عليهم تلك السحابة شررا من نار [12].

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص ٣٤٣.
٢- سورة الأعراف، ج ٩، آية (٨٩).
٣- سورة الأعراف، ج ٩، آية (٩١).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٧، ص ٢٥١.
٥- سورة هود، ج ١٢، آية (٩٥).
٦- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٨٥- ١٨٧).
٧- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٦٠.
٨- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٥، ص ١٤٤.
٩- سورة الطور، ج ٢٧، آية (٤٤).
١٠- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٧، ص ٣٩٤.
١١- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (١٨٨ - ١٨٩).
١٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٦١

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾[1]، أي: لمّا جاء أمر الله تعالى بالعذاب للكافرين، نجّى الله تعالى شعيبا ومَن آمن معه، برحمة من الله الرحيم للمؤمنين[2].

وبعد صباح ذي عِبْرة، لم تفارق عين شعيب العَبَرة، ووصف الله تعالى حاله، فقال: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ)[3]، بعد ما ماتوا، وقال - معزيا نفسه من شدة الحزن عليهم؛ لأنه كان يَأملُ إيمانهم-[4]: ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾[5]، والأسى: الحزن الشديد[6]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾[7].

١- سورة هود، ج ١٢، آية (٩٤).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٨، ص ٣٩٢.
٣- سورة الأعراف، ج ٩، آية (٩٣).
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٣٢٠.
٥- سورة الأعراف، ج ٩، آية (٩٣).
٦- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ١، ص ١١٥.
٧- سورة الشعراء، ج ١٩، الآيات (٨- ٩).

استنباط الهمّ الدعوي:

١- الهمّ بالدعوة إلى الله تعالى يشمل جميع الناس، دون تمييز بين طبقات المجتمع، من حيث أن هذا المدعو يَصْلُح لسماع، وغيره لا يَصْلُح، أو تكون قوة الكلام مع الأشخاص المعروفين أقوى منها مع أشخاص غرباء، فهاهو ذا شعيب - عليه السلام - يتكلم مع أهل مدين، بعاطفة الرحمة والطمع في الهداية لهم، وذات العاطفة والرحمة والكلام، يقوله لأصحاب الأيكة، مع أنه ليس منهم، وهذا يدل على صدق الهمّ في نشر التوحيد والإيمان.

٢- همّ الأنبياء - عليهم السلام - في دعوتهم إلى الله، لم يكن مقتصرا على نفي الشرك والكفر وحسب، وإنما أيضا كانت دعوتهم لإنكار سيء الأخلاق المؤدية إلى الهاوية، فشعيب - عليه السلام - دعا قومه إلى الإيمان بالله سبحانه، ودعاهم إلى الإيفاء بالمكيال والميزان، ونهاهم عن البخس والتطفيف؛ لأن الظلم سبب لهلاك الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [1]، فالظلم يشمل الكفر والشرك، وعدم العدل وسلب الحقوق ظلم أيضا، فكان همّه في دعوته - عليه السلام - على كِلا النوعين، الإيمان والأخلاق، وهذا من بديع دعوة الأنبياء - عليهم السلام -، وشمولية همّهم الدعوي.

٣- من مظاهر الهمّ الدعوي في حياة الداعي، أن تكون سلوكياته في حياته دعوة صامتة، وتصرفاته انعكاسا لأقواله، فإذا كانت أفعاله مخالفة لأقواله، فدعوته ناقصة، ولا يكون لها الأثر البعيد في نفوس الناس، ولا يدل على مصداقية همّ حمل الرسالة المُكلف بأدائها، لذلك قال شعيب - عليه السلام - لقومه: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)، حتى يستجيبوا له إلى ما يدعو إليه، وهذا من أعلى مراتب الهمّ في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

٤- يظهر همّ شعيب - عليه السلام - على قومه عندما أهلك الله تعالى قومه، سطر الله لنا في كتابنا المجيد جملة الحزن والألم، قال تعالى - على لسان شعيب- (يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)، وإنما قال ذلك لِمَا كان عنده من الأمل في إيمان قومه، فلما أعرضوا فأُهلِكوا، حزن عليهم حزنا شديدا، وكان يعزي نفسه بهذا القول، وهذا يدل على شدة همّه في دعوتهم إلى الله، وعلى شدة طمعه في إسلامهم لله، فالأسى علامة الهمّ الموجود في قلبه - عليه السلام - .

١- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٩٥).

المطلب السابع: دعوة يونس - عليه السلام - لقومه.

هو النبي الصالح يونس بن مَتَّى، أرسله الله تعالى إلى مدنية (نينوى) في أرض الموصل بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام [١]، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [٢].

أرسل الله تعالى يونسَ - عليه السلام - " إلى أهل (نَيْنَوَى) من بلاد أشور، وكان أهلها يومئذ خليطا من الآشوريين واليهود الذين في أسر الآشوريين" [٣]، يسكنون العراق، فدعاهم يونس - عليه السلام - إلى عبادة الله وحده، وأن يذروا عبادة الأصنام، وطال به الأمد والزمن، وهو يدعوهم ويكلمهم ويصبر على أذاهم، ولكنهم كذبوا وأعرضوا، فتوعدهم - عليه السلام - بحلول العذاب عليهم، وهذا الوعيد كان وحيا من عند الله، إلا أنه - عليه السلام - خرج من عندهم دون أن يأذن الله له [٤].

قال تعالى: (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)، يمكن حمل كلمة (أَبَقَ) على معنيين اثنين [٥]:

١- (الإباقُ) هروب العبد من سيده.

٢- (وتأبَّق) استترَ.

فحتى لا يقال في يونس - عليه السلام - ما لا يليق به، تُحمل هذه الآية على أنه - عليه السلام - عندما خرج من عند قومه، خرج مستترا عنهم، قاصدا السفينة [٦].

وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [٧].

١- انظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ج ١، ص ٢١٨.
٢- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (١٣٩- ١٤٨).
٣- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٦، ص ١٩٥.
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ص ٩٦ - ٩٧.
٥- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ٣.
٦- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦، ص ٣٥٦.
٧- سورة الأنبياء، ج ١٧، آية (٨٧).

والنُّون: الحُوت [1]، أي: خرج مغاضبا من أجل ربه، بمعنى: غضب على قومه من أجل كفرهم بربه، وعدم استجابتهم له، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء لهم، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله [2]، (فظن أن لن نقدر عليه) وفي هذه الجزئية من الآية لا بد من توضيح بعض الأمور:

١- مَن ظن عجز اللّه تعالى فهو كافر.

٢- معنى (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) على تأويلين [3]:

أ- نقدر عليه، أي: نُضَيق عليه، وهو كقوله تعالى : (اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ) أي: يُضَيق، وقوله تعالى: (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) أي: ضاق، وعلى هذا التأويل، يُحتمل أن يونسَ - عليه السلام - ظن أنه مُخَير، إن شاء أقام، وإن شاء خرج، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، وهذا من اللّه تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له - عليه السلام -، إذ لم يكن في خروجه تعمدا لمخالفة أمر الله تعالى، لكن لظنه أن الأمر واسع، يجوز أن يُقَدم ويُؤخر، فكان الصلاح خلاف ذلك.

ب- أن معنى (أن لن نقدر عليه) أي: عدم تقدير الله تعالى عليه شدة ولا محنة تصيبه لأجل ما فعل، أي: بمعنى التقدير.

وبعد خروجه - عليه السلام - اتجه إلى البحر، فركب السفينة، قال تعالى: (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) أي: السفينة المملوءة بالرّكاب والبضاعة، فبينما هم كذلك، إذ جاءتهم ريح عاصف، فهاج الموج عليهم، وكادت السفينة أن تنقلب بهم، ثم تشاوروا ليروا ما يصنعوا، فاهتدوا إلى القرعة، قال تعالى: (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) أي: اقترعوا بينهم فخرجت القرعة على يونس - عليه السلام - فألقى بنفسه في البحر، فجاء الحوت وابتلعه، وهو - عليه السلام - مُلامٌ على ما فعل في خروجه من عند قومه دون إذن من الله - عز وجل -، فجاء العِتاب من الله تعالى على هذه الصورة [4].

ومما يُبَرهن على ما حصل مع يونسَ- عليه السلام - أنه من البلاء؛ وإنما كان ذلك للتربية والترقية، حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه دخل على رسول

١- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٥، ص ٢٩٨.
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١١، ص ٣٣٠.
٣- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٢، ص ١٨٠.
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٥، ص ١٢١- ١٢٢.

الله - صلى الله عليه و سلم - و هو موعوك عليه قطيفة [1]، ووضع يده عليها، فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو سعيد: ما أشد حر حُماك [2] يا رسول الله؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه و سلم- : إنّا كذلك يشدد علينا البلاء، و يُضاعف لنا الأجر، ثم قال : يا رسول الله مَن أشد الناس بلاء ؟ قال: الأنبياء " [3].

وبعد بَلْع الحوت له، مشى به في المياه ما الله به عليم، أيقن يونس - عليه السلام - أنه لا مُنْجي له من هذا البلاء، إلا التذلل والانكسار والدعاء أمام الله تعالى، فسبّح الله ونزهه، وأظهر التوحيد، وأظهر ضعفه - عليه السلام - بندائه: (لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) نزه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، وقال: (سُبْحانَكَ)؛ أي: حاشاك يا رب، أن تُقَدِر عليّ هذا جورا، وإنما فَعَلتَه بحق، وبمقتضى الحكمة، أمّا قوله: (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فالمعنى: ظلمت نفسي بخروجي من عند قومي بغير إذنك ، كأنه قال: كنت من الظالمين، وأنا الآن من التائبين النادمين، فَاكْشِفْ عني المحنة [4].

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [5]، أي: لولا أن يونسَ- عليه السلام- دعا الله وتوجه إليه، لاستمر وجوده في بطن الحوت إلى يوم القيامة، بحيث يصبح بطن الحوت قبرا ليونس - عليه السلام -، ثم ألقاه الحوت في أرض واسعة لا نبات فيها ولا بناء، ولقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له "[6].

وكان ضعيف الجسد مما لقيه في بطن الحوت، واستبقته رحمة الله تعالى، فأنبت له شجرة من يقطين، يأكل منها، ويستظل بها، فيتقوى ويُشْفى، واليقطين: ما لا ساق له، كشجر القرع ونحوه، وخُص اليقطين بالذكر؛ لأن الذباب لا يقع عليه [7].

١- القطيفة: الكِساء، . انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٩، ص ٢٨٥.
٢- حماك: الوعك الشديد بسبب الحرارة المرتفعة. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ٥١٤.
٣- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب (الإيمان)، حديث(١١٩)، ج١، ص ٩٩. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، تعليق الذهبي قي **التلخيص**: على شرط مسلم وله شواهد كثيرة.
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٢، ص ١٨٢.
٥- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (١٤٣- ١٤٦) .
٦- أخرجه أحمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، في باب (مسند سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -)، حديث (١٤٦٢)، ج١، ص١٧٠. تعليق الألباني: صحيح، كتاب (**صحيح وضعيف الجامع الصغير**)، حديث (٥٦٩٥)، ج ١، ص ٥٧٠.
٧- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٥، ص ١٢٩.

وبعد ذلك أرسله الله تعالى إلى قومه، قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨ ﴾ [1]، ومثله قوله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨ ﴾ [2]، أي: بعد إرسال الله تعالى يونس للمرة الثانية، آمن قومه كلهم، (أوْ يَزِيدُونَ) في مرأى الناظر إذا رآها الرائي، أي: مئة ألف أو أكثر، والغرض: الوصف بالكثرة [3].

وفي هذا المقام قال ابن عاشور: - رحمه الله- كلاما من الجيد ذكره، قال: وهذا حدث لم يعهد مِثله من الرسل، ولأجله قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" [4]، يريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نفسه إذ لا يحتمل أن يكون أراد أحدا آخر، إذ لا يَخْطُر بالبال أن يقوله أحد غير الأنبياء، والمعنى: نفي الأخيرية في وصف النبوة، أي: لا يظن أحد أن فعلة يونس - عليه السلام - تَسْلُب عنه النبوة، ولذلك قال- صلى الله عليه وسلم - : " لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ"[5]، أي: في أصل النبوة لا في درجاتها، فقد قال الله تعالى - في التفاضل في درجاتهم - عليهم السلام - : ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [6]، وقال تعالى:(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) [7]، وأعلم أن الغرض من ذكر يونس - عليه السلام - هنا تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يلقاه من ثقل الرسالة، قال تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)[8] ، بأن ذلك قد أثقل الرسل من قبله، فظهرت مرتبة النبي - صلى الله عليه وسلم - في صبره على ذلك، وإعلام جميع الناس بأنه مأمور من الله تعالى بمداومة الدعوة للدّين؛ لأن المشركين كانوا يلومونه على إلحاحه عليهم، ودعوته إياهم في مختلف الأزمان والأحوال [9].

ولقد أمر الله محمدا- صلى الله عليه وسلم - حبيبه وصفيه، قائلا له: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ)[10]، أي: اصبر على تبليغ الدعوة، وتَحَمُّل أعبائها وأثقالها، واصبر لحكم ربك في إمهالهم وتأخير نصرتك

١- سورة الصافات، ج ٢٣، الآيات (١٤٧- ١٤٨)).
٢- سورة يونس، ج ١١، آية (٩٨).
٣- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٦٢.
٤- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب: (بَاب قَوْلِهِ: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ إِلَى قَوْلِهِ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ)، حديث (٤٦٠٣)، ج ٦، ص ٦٢.
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى- عليه السلام - ، حديث (٦٣٠٥)، ج ٧، ص ١٠٢.
٦- سورة البقرة، ج ٣، آية (٢٥٣).
٧- سورة الإسراء، ج ١٥، آية (٥٥).
٨- سورة المزمل، ج ٢٩، آية (٥).
٩- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٣، ص ٨٧.
١٠- سورة القلم، ج ٢٩، آية (٤٨).

عليهم، ولا يكن منك ما وُجِدَ من يونس - عليه السلام - من الاستعجال عن أمر ربه، وهو تذكير، والمراد به التحذير، ثم قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]، أي: أن الله - عز وجل - خَبَّر ها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمة الله - عز وجل - لنبذ بالعراء وهو مذموم، فاجتباه الله تعالى وأرسله إلى قومه مرة أخرى، فرحمة الله تعالى كانت في الاصطفاء والإرسال[2].

١- سورة القلم، ج ٢٩، آية (٤٩).

٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٨، ص ٢٥٣- ٢٥٤. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٩٧.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- يتجلى الهمّ الدعوي واضحا، عندما وصف الله تعالى يونسَ- عليه السلام - بوصف (إذ ذهب مغاضبا)، أي: خرج من عند قومه غضبان عليهم - كما ذُكِرَ في تفسير الآيات آنفا- وذلك لعدم استجابتهم لدعوته، و عدم إيمانهم بالله تعالى، والغضب لله، ومِن أجل شرع الله، ممدوح ومطلوب، فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: "مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، حَتَّى تُنْتَهَكَ مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ"[1]، إذن: فالغضب لله والانتقام لدينه، من آثار الهمّ في الدعوة إلى الله تعالى، وبخاصة إذا خالط هذا الغضب أدب الأنبياء وحكمتهم- عليهم الصلاة السلام-.

٢- من مقتضيات الهمّ الدعوي، أن صاحب همّ الدين والإيمان ليس له همّ أكبر من إرضاء ربه - تبارك وتعالى -، فإن صاحب الهمّ قد يفعل أفعالا تُؤدي به إلى العتاب والملامة، ولكن سرعان ما يعود إلى مقصده وهمّه في الدعوة إلى الله، فهذا يونس - عليه السلام - فعل خلاف الأوْلى بخروجه من تلك القرية من غير انتظارِ إذنٍ من الله تعالى بالخروج، فاعترافا لله تعالى، وابتغاء مرضاته، جعل نفسه من الظالمين بفعلته تلك، (فحسنات الأبرار سيئات المقربين)، فنادى ربه - متذللا معترفا - (لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، فنَجّاه الله تعالى من غَمّه وحَزَنه، فأثمرت بركات هذا الدعاء، أن جَعَله الله سببا لتفريج كُرَب المكروبين، وأثمر أيضا هذا الاعتراف والانكسار إلى إرساله مرة أخرى بهمّ دعوي ذي أنفاس جديدة، فأكرمه الله الكريم، بإسلام قومه جميعا.

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الحدود، باب: إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، حديث (٦٧٨٦)، ج ٨، ص ١٩٨.

الفصل الثالث.

الهمّ الدعوي عند غير الأنبياء - عليهم السلام -

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الهمّ الدعوي عند الرجال.

المبحث الثاني: الهمّ الدعوي عند الشباب.

المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الملوك.

المبحث الرابع: الهمّ الدعوي عند العلماء.

المبحث الخامس: الهمّ الدعوي عند الوالدين.

المبحث السادس: الهمّ الدعوي عند غير البشر.

تمهيد.

اختار الله تعالى الأنبياء- عليهم السلام - واصطفاهم لحمل الرسالة وتبليغ الدين، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ ﴾ [1]، وذكر الله قصصهم في كتابه الكريم؛ لتكون لنا عبرة ومنهاجا، وتثبيتا للرسول و للمؤمنين على طريق الدين والدعوة إليه، قال تعالى: (وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [2].

والقرآن العظيم لا يُمدح في قصصه وأمثاله إلا العظماء، فلم يقتصر القرآن على تعظيم الأنبياء - عليهم السلام - وحسب، وإنما عَظَّم أُناسا ليسوا بأنبياء كمؤمن آل فرعون، وعَظّم مَن هو ليس من جنس البشر كالنملة الهدهد، ولكن سبب ذِكْرهم في الكتاب العظيم؛ لأنهم مَشوا على طريق العظماء، فَعَظّموا العظيم - سبحانه وتعالى - ، وعَظّموا شرعه، فالتزموا الأوامر واجتَنبوا المعاصي، وأرشدوا الناس إلى عظمة الله العظيم، فكان جزاؤهم أن عَظّمَهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وجعل أقوالهم عظيمة، مَدراسا للدعاة والوُعّاظ.

فما الذي عَظَّم مؤمن آل فرعون إلا همّه على قومه من الهلاك، وما الذي عظّم لقمان إلا همّه على ابنه، وما الذي عظّم النملة إلا خوفها على بني جنسها، وما الذي عَظّم الهدهد إلا همّه أن لا يُعبد إله آخر غير الله تعالى، وهم من غير بني جنسه؟!.

إذن: فالدعوة إلى الله تعالى، وحمل همّها، هو العمل الذي أرتقى بأصحابه فوق النجوم، وأضحت أقوالهم مصابيح الدجى، تضيء لكل ضال يريد الهدى، وأمست سيرتهم كالعسل يتذوق منه كل تالٍ للقرآن، وأصبح همّهم في تبليغ الهدى يسري في عروق كل غَيّورٍ على دينه، فنِعْم الهمّ الذي أوصلهم إلى الهدى، وبئس الهمّ المُوصل إلى الردى.

١- سورة النساء، ج ٦، الآيات (١٦٣ - ١٦٥).
٢- سورة هود، ج ١٢، آية (١٢٠).

المبحث الأول

الـهمّ الدعوي عند الرجال.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الـهمّ الدعوي لرجلين من بني إسرائيل.

المطلب الثاني: الـهمّ الدعوي في قصة ابني آدم.

المطلب الثالث: الـهمّ الدعوي في قصة أصحاب السبت.

المطلب الرابع: الـهمّ الدعوي في قصة صاحب الجنتين.

المطلب الخامس: الـهمّ الدعوي من خلال قصة سحرة فرعون.

المطلب السادس: الـهمّ الدعوي في قصة أصحاب القرية (صاحب ياسين) .

المطلب السابع: الـهمّ الدعوي عند مؤمن آل فرعون.

تمهيد. [١٥٧]

مدح الله تعالى في كتابه المجيد أشخاصا بوصف (الرجال)، فقال تعالى - واصفا عُمّار المساجد -: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ [١]، " والمراد بالرجال: أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومَن كان مثلهم في التعلق بالمساجد، وتخصيص التسبيح بالرجال على هذا؛ لأنهم الغالب على المساجد " [٢].

وكذلك وصف المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أهل المساجد- فقال:" وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ" [٣]، والرجل: مَن له جَلَدٌ وشجاعة في الأمور [٤].

وقد جاءت قصص القرآن العظيم تبين رجولة الدعاة في الدعوة إلى الله تعالى، وتثني عليهم، وفي فحواها الحث على الاقتداء بشجاعتهم، والإقدام على النصيحة، ونشر الخير بين الأقوام، فهذا مؤمن آل فرعون، وصفه الله بالرجولة، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ [٥]، وكذلك الرجل[٦] الذي ذُكِرَ في سورة يس، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ﴾ [٧]، وأيضا مدح الله رجلين من بني إسرائيل أيدوا سيدنا موسى - عليه السلام - في دخول بيت المقدس، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾ [٨]، وغيرها من القصص القرآنية التي تناولت مواقف الرجال في الدعوة إلى الله تعالى. وسيتطرق الباحث في هذا المبحث إلى عرض بعض قصص الرجال في كتاب الله، وبيان الهمّ الدعوي في تلك القصص.

١- سورة النور، ج ١٨، الآيات (٣٦ - ٣٧).
٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٩٩.
٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، حديث (٢٤٢٨)، ج ٣، ص ٩٣.
٤- انظر: الزبيدي، **تاج العروس**، ج ٢٩، ص ٣٦.
٥- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٢٨).
٦- ذكرت بعض كتب التفاسير أن اسم هذا الرجل (حبيب النجار).ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٦، ص٥٧٠
٧- سورة يس، ج ٢٢، آية (٢٠).
٨- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٣).

المطلب الأول: الهمّ الدعوي لرجلين من بني إسرائيل.

بعد أن نجّى الله تعالى بني إسرائيل من بطش فرعون، سار بهم موسى - عليه السلام - من مصر إلى بيت المقدس، ولكن عندما خرج منها يعقوب - عليه السلام وأولاده أيام يوسف - عليه السلام - من بيت المقدس إلى مصر، رجعوا إليها مع سيدنا موسى - عليه السلام - فوجدوها في قبضة القوم الجبارين[1].

وبدأ سيدنا موسى - عليه السلام - يُذكر بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم، ليُهيئهم لقتال القوم الجبارين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، أي: تذكروا ما أنعم الله تعالى عليكم من نعمة تتابع الأنبياء - عليهم السلام - على بني إسرائيل، فكانوا إذا مات نبي خلفه آخر، وكان ذلك إلى أن بعث الله سيدنا عيسى - عليه السلام -، ثم اختار الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - من ذرية إسماعيل - عليه السلام -، واذكروا يا بني إسرائيل إذ جعلكم ملوكا، و ذلك أن الواحد منهم إذا مَلَك خادما وبيتا وزوجا عُرَف بأنه مَلِك، ومثله حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:" مَن أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا "[3]، واذكروا أيضا أن الله أعطاكم ما لم يعط أحدا غيركم، من فَلْق البحر، ومشيكم على أرض يَبَس عندما نجاكم من فرعون، وظلّلكم بالغمام، وأنزل عليكم المنّ والسلوى، ثم حرّضهم موسى - عليه السلام - على الجهاد، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[4]، أي: أدخلوا الأرض المقدسة المطهرة من الشرك، - وتقديسها؛ لأنها مقر الأنبياء - عليهم السلام - ، وهذه الأرض التي وعدكم إياها أبوكم إسرائيل لمَن آمن منكم، وإياكم أن تتخلفوا عن جهاد هؤلاء القوم فتخسروا في الدنيا والآخرة، وعلى عادتهم في معاندتهم لأنبيائهم، قالوا لسيدنا موسى - عليه السلام - : ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّٰرِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[5]. [6]

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٣، ص ٧٤.
٢- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٠).
٣- الترمذي، **سنن الترمذي** ، كتاب الزهد، (باب)، حديث (٢٣٤٦)، ج ٤، ص ٥٧٤. قال الترمذي: حديث حسن، تعليق الألباني: حسن، **مشكاة المصابيح**، ج ٣، ص ١٢٥.
٤- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢١).
٥- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٢).
٦- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٣، ص ٧٤- ٧٥. انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٣، ص ٥٣٤.

وبعد ظهور الخذلان، وقلة الإيمان، قام رجلان من ذوي الإيمان وأتباع الرحمن، فأيدا موسى - عليه السلام - وحرّضا قومهما على مقاتلة أولياء الشيطان، قال تعالى - على لسانهما-: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾ [1]، وقد ذكرت كتب التفسير هذين الرجلين هما: (يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا)، وكانوا من الذين يخافون اللّه - عز وجل -، وأنعم اللّه عليهما بالهداية، والثقة بعون اللّه تعالى، والاعتماد على نصرة اللّه، ومن شدة هذه الثقة بالله تعالى قالا: أُدخلوا عليهم الباب)، كأنهما قالا: متى دخلتم باب بلدهم انهزموا ولا يبقى منهم أحد، فلا تخافوهم، وتوكلوا على الذي يتولى نصركم وعِزْكم، إن كنتم آمنتم به ربا، وبنبيه رسولا [2].

فأجابوا: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ ﴾ [3]، وهذا القول دليل تمردهم على الطاعة، فأصبحوا بفعلهم ذلك من القوم الفاسقين، فلما سمع موسى - عليه السلام - مقالتهم، شكا حاله إلى الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي ﴾ [4]، وقد يَجُول في الخاطر سؤال: لِمَ قال سيدنا موسى - عليه السلام - لا أملك إلا نفسي وأخي، وكان معه الرجلان المذكوران؟ والجواب: لعلّه قال ذلك تقليلا لِمَن أيده، أو يجوز أن يكون المراد بالأخ: هي المؤاخاة في الدين، وعلى هذا التقدير كانا داخلين في قوله (وَأَخِي) [5].

ثم قال - عليه السلام -: (فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥) [6]، يعني: افصل بيننا وبينهم، بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون، - وهو في معنى الدعاء عليهم -، واستجاب الله دعاء موسى- عليه السلام - ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ﴾ [7]، أي: جعل الله تعالى الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء العصاة، وعاقبهم الله بالتيه مدة أربعين سنة، حتى ماتوا وجاء جيل جديد من أولادهم، وفتح الله تعالى بيت المقدس بقيادة يوشع بن نون - عليه السلام - [8].

١- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٣).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ١١، ص ٣٣٤.
٣- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٤).
٤- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٥).
٥- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ١١، ص ٣٣٥.
٦- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٥).
٧- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٦).
٨- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٤، ص ٧٩.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- ظهر الهمّ الدعوي في هذه القصة المباركة، في تحريض الرجلين لقومهما على القتال، و نصيحة بني إسرائيل أنهم منصورون بمجرد دخلوهم باب البلد، وهذا يدل على همّهم في صلاح قومهم، وأنهما أرادا الخير ببني إسرائيل في طاعة موسى - عليه السلام - ودخولهم بيت المقدس، وهذه النصيحة ذكِرت مع وجود الرسولين العظيمين موسى وهارون - عليهما السلام -، إلا أن الله تعالى خلدها آية تتلى إلى يوم الدين، لِما لموقف النصيحة والدعوة من حبٍ لله تعالى لها.

٢- جزم هذان الرجلان في قولهما: (فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ)؛ لأنهما كانا جازمين بنبوة موسى - عليه السلام -، وهذا الجزم مصدره خبر الله لموسى- عليه السلام - (ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)، يعني: لمّا وعدكم اللّه تعالى النصر، فلا ينبغي أن تصيروا خائفين من شدة قوتهم، وعِظَمِ أجسامهم، وهذا دليل على ثقتهم بالله تعالى، وثقتهم بنبيهم - عليه السلام - وهذا هو نبع الهمّ الدعوي في الإقدام والشجاعة، ونصيحة فومهم [١].

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ١١، ص ٣٣٤.

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي في قصة ابني آدم.

كان لآدم - عليه السلام - ولدان، ولم يكن في ذلك الزمان مسكين يُتصدق عليه، فأرادا أن يقربا قربانا لله تعالى، فكان أحدهما يعمل راعيا، وكان الآخر مزارعا، فقرب الراعي أحسن الغنم الذي عنده، ولم يقرب المزارع أفضل ما عنده، وكانت علامة القبول أن يبعث الله نارا تأكل الصدقة المقبولة، فجاءت النار فأكلت الشاة، فتوعد الأخ الذي لم تُقبل صدقته أن يَقتل أخيه، والوَلدان هما: قابيل وهابيل [1].

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2]، أي: فُصَّ يا محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر ابني آدم على الناس حتى يأخذوا العِظة والعبرة، إذ قرب كل واحد منهما قربانا كما أمرهما آدم - عليه السلام -، وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب غنم، فقدّم هابيل أجود ما عنده من الغنم، ولم يفعل ذلك قابيل، فَقَبل الله من هابيل ولم يقبل من قابيل، وكانت علامة القبول أن يرسل الله تعالى نارا تأخذ القربان المقبول، فلما لم يقبل الله تعالى قربان قابيل حسد هابيل وتوعده بالقتل، فرد عليه هابيل قائلا: (إنما يتقبل الله من المتقين)، الذي اتقى الله فيما قدّم، وأخلص لوجه الكريم [3].

ثم قال له هابيل: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) [4]، أي: لا أقابل ما تريد أن تصنع بي من القتل بمثله من السُوء؛ لأني أخاف الله رب العالمين، بل أصبر وأحتسب، ثم قال له : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [5]، أي: يُؤخذُ من سيئاتي فتطرح عليك؛ بسبب ظلمك لي، وتبوء بإثمك في قتلك، وهذا يؤيده قول النبي- عليه الصلاة والسلام -: " أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ و يأتي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ في النَّار" [6]، وقول آخر: ترجع بإثم قتلي وإثمك

١- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٠، ص ٢٠٣.
٢- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٧).
٣- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص (٨٣-٨٥).
٤- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٨).
٥- سورة المائدة، ج ٦، آية (٢٩).
٦- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب: البر والصلة والأدب، باب (تحريم الظلم)، حديث (٦٧٤٤) ج ٨، ص ١٨.

الذي عملته قبل قتلي، فتكون بهذه الآثام من أهل النار، وفيه دليل على أنهم كانوا مكلفين، يترتب على أفعالهم الوعد والوعيد [1].

ثم قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2]، أي: بعد ما وعظه أخوه وزجره، وذكّره بالتقوى وبجزاء الظالمين، كأنه تردد في فعلته بعد تلك المواعظ والزواجر، ولكن طاوعته نفسه وحسَّنَت وزيّنت له قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين في الدنيا والاخرة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- :"لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ " [3]، وبعد ما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يعرف ما يفعل به، وعندئذ أرسل الله تعالى غرابا ليُريه كيف يتعامل مع جثة أخيه، فبدأ الغراب يحفر في الأرض، ثم وضع الغراب الميت في الحفرة وحثى التراب عليه، فلما رأى قابيل هذا المشهد، قال: (يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) [4].

ثم قال الله تعالى - تعقيبا على هذه الحادثة - : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ۛ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [5]، أي: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا؛ شرعنا على بني إسرائيل، أنه (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) أي: مَن قتل نفسا بغير سبب شرعي، وهي كما جاءت في الحديث عن رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قال:" وَالَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لاَ يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ نَفَرٍ التَّارِكُ الإِسْلاَمَ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ وَالثَّيِّبُ الزانى وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ"[6]، (فكأنما قتل الناس جميعا)؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، (ومَن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)، أي: حَرّمَ قتلها واعتقد ذلك، فقد سَلِمَ الناس كلهم منه، فبهذا الاعتبار كأنه أحيا الناس جميعا [7].

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ٦، ص ١٣٦ - ١٣٧.
٢- سورة المائدة، ج ٦، الآيات (٣١- ٣٢).
٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: القسامة، باب (بيان إثم مَن سَنّ القتل)، حديث (٤٤٧٣)، ج ٥، ص ١٠٦.
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٣، ص ٨٩ - ٩٠).
٥- سورة المائدة، ج ٦، آية (٣٣).
٦- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم، حديث (٤٤٧٠)، ج ٥، ص ١٠٦.
٧- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٣، ص ٩٢.

استنباط الهمّ الدعوي:

في هذه القصة المباركة، يظهر همّ نصيحة الأخ على أخيه، وذلك من عدة جوانب منها:

١- أن النصيحة كانت لأخ حاسد حاقد، فلم يمتنع الأخ الصالح عن نصيحة أخيه مع كل ما يحمله من مشاعر الحقد والانتقام له، وهذا يدل على صلاحه في نفسه، وإرادة الخير بأخيه.

٢- يظهر الهمّ الدعوي في عدة جُمَلٍ قالها الأخ الصالح، ومن ذلك [١]:

أولا- قوله: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)، في هذا المقام موعظة وتعريض له أن القبول فعل الله لا فعل غيره، يَعْرُضُ به أنه ليس بتقي، وهي دعوة مضمرة بأن يكون تقيا مع ربه - تبارك وتعالى -.

ثانيا- قوله (مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، موعظة لأخيه؛ ليذكره بخطر هذا الجرم الذي يريد الإقدام عليه، وفيه إشعار بأنه يستطيع قتله، ولكن منعه منه خوف الله تعالى.

ثالثا- قوله:(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)، أراد بهذا موعظة أخيه، ولذلك عطف عليه بقوله: (وإثمك) تذكيرا له بذنوبه، وبفظاعة عاقبة فعلته، إن أقدم عليها، وأنه سيكون من أصحاب النار.

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٥، ص ٨٤.

المطلب الثالث: الهمّ الدعوي في قصة أصحاب السبت.

حصلت قصة أصحاب السبت مع طائفة من بني إسرائيل، في زمن داود - عليه السلام -، وهذه الحادثة من دلائل صدق نبوة رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنها لم تكن مكتوبة عندهم في الأسفار، ولكن علماء اليهود وأحبارهم كانوا يعلمون هذه الحادثة، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [1]، خطابا لليهود وتذكيرهم بما حصل لأسلافهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى [2].

قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِۘ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [3]، والسؤال في كلام العرب على نوعين:

١- سؤال السائل عما لا يعلمه ليعلمه.

٢- أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أن السائل عالم، وإنما سأله ليقرره.

والسؤال هنا لتقرير اليهود بما فعل أسلافهم؛ ليعتبروا بمَن خالف، ويؤمنوا برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهذه القرية اسمها (إيله)، ويطلق عليها اليوم مدبية (العقبة)، وهي منطقة على خليج البحر الأحمر [4].

ولقد كان في شريعتهم أن العمل في السبت حرام؛ حتى يتفرغوا لعبادة الله تعالى، وكانوا يكسبون رزقهم باصطياد السمك، فابتلاهم الله تعالى، وذلك أن سمك يوم السبت يكون ظاهرا على الماء، بحيث يَسْهُل أخذه واصطياده، وفي غير يوم السبت لا يصطادون إلا بشق الأنفس، فأرادوا الحيلة على الشرع، فحفروا أحواضا عند البحر، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم [5].

"والسبت بمعنى: اليوم، وإنما جُعِل الاعتداء فيه مع أن الحَفْر في يوم الجمعة؛ لأن أثَرُه الذي تَرتب عليه العصيان - وهو دخول الحيتان للحياض - يقع في يوم السبت" [6].

١- سورة البقرة، ج ١، آية (٦٥).
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٥٢٦.
٣- سورة الأعراف، ج ٩، آية (١٦٣).
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص ٣٢٧.
٥- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ٧، ص ٣٠٦.
٦- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٥٢٦- ٥٢٧.

وبعد هذا العصيان، انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١- العصاة.

٢- الملتزمون بعدم الصيد وعدم الحفر يوم الجمعة، وهذه الطائفة نصحت العصاة ولكن عندما رأوا عدم الاستجابة توقفوا عن الدعوة.

٣- الدعاة: وهي طائفة استمرت في الدعوة ولم تتوقف، رُغم نهي اليائسين عن الاستمرار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [١].

قالت الطائفة التي نصحت ثم توقفت، - ناهية الطائفة الأخرى التي استمرت في الدعوة-: (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)، هذه الطائفة لمّا رأت المنكر، نصحت العصاة المرة تلو المرة، ولكن لمّا أيقنوا أن النصيحة لم يعد لها أثر فيهم، وإن تكررت لا تنفعهم، يئسوا وتوقفوا عن النصيحة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نهوا الذين استمروا في دعوتهم ونصيحتهم، فردت عليهم الطائفة المصابرة: (قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، أي: الدافع لاستمرارنا في الدعوة هو: المعذرة الإلهية، والرحمة الدعوية، بحيث لو سَألنا الله تعالى، لماذا تركتم دعوة العصاة؟، فيكون لنا حجة أمام الله باستمرارنا في نصيحتهم، فيعذرنا برحمته، ونرجو بهذا الثبات على نصيحتهم وتذكيرهم، أن يتقوا الله في معصيتهم فيهتدوا [٢].

ثم يخبر الله تعالى عن سنته في نجاة الدعاة المخلصين، وإهلاك العصاة المتمردين، وذلك عندما أعرضوا وأصروا ونسوا الذكرى، - والنسيان: مستعمل في الإعراض- نجّى الفرقة التي نصحت وذكّرت (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)، وجاء العذاب المهين لأولئك المعاندين، وذكر أهل التفسير قولين لهذا العذاب [٣]:

أحدها: أن العذاب البئيس هو ذات المسخ المذكور بعده، وعليه فتكون جملة (فلما عتوا عن ما نهوا عنه)، تأكيدا لقوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ).

١- سورة الأعراف، ج ٩، الآيات (١٦٤- ١٦٦).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٥، ص ٣٩١- ٣٩٢.
٣- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج ٨، ص ٣٣٢- ٣٣٣.

ثانيها: أن العذاب البئيس أصاب بعضهم، ليحذّرهم الله تعالى من عذابٍ أشد إن بقوا على ما هم عليه، ولكنهم لم يعتبروا، فجاء العذاب الأشد، فمسخهم الله قردة، وعلى هذا القول يكون العذاب البئيس بمعنى : الفقر والشدة، " والبُؤْسُ: الشدة والفقر، وبَئِسَ الرجل: إذا افتقر واشتدت حاجته، فهو بائِسٌ أي: فقير"[1]، وهذه سنّة الله في الظالمين.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- يتجلى الهمّ الدعوي في هذه الحادثة، أن الطائفة الواعظة قد ظهر منها من الهمة في الدعوة إلى الله تعالى والمصابرة عليها ما ظهر، وما لانوا لسماع قول مَن توقفوا عن الدعوة، وإنما يدل هذا على همّهم في صلاح قومهم، حتى لا يخسروا الدنيا والاخرة.

٢- تُبين هذه القصة الخطر الجسيم في ترك الهمّ على الدعوة إلى الله واليأس من المدعو، فالطائفة التي توقفت عن النصيحة، لم يتبين حالها، وعلى أثر هذا الإجمال في حال الناجين، اختلف العلماء فيهم، هل هم من الناجين أو مع الهالكين؟، ومع أن بعض العلماء رجحوا نجاتهم [3]، إلا أن هذا الأمر يبين خطر توقف الداعي عن فكره وهمّه في الدعوة إلى الله تعالى؛ لأن تركه للدعوة قد يهوي به إلى عذاب الله وغضبه، فعليه الاستمرار بالدعوة، حتى وإن لم يهتد على يديه أحد، فالداعي عليه الدِلالة وليس عليه الهداية.

١- ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٦، ص ٢٠.
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ١٥، ص ٣٩٢.

المطلب الرابع: الهمّ الدعوي في قصة صاحب الجنتين.

وردت هذه القصة في سورة الكهف، وهذه السورة المباركة تحدّثت عن هجرات ثلاثة، فالهجرة الأولى: الهجرة لحفظ الدين، المتمثلة في قصة (أصحاب الكهف)، والهجرة الثانية: الهجرة لتُعلم الدين، المتمثلة في قصة (موسى - عليه السلام - والخضر)، والهجرة الثالثة: الهجرة لنشر الدين، المتمثلة في قصة (ذي القرنين)، وذكرت السورة الكريمة تحذيرا من الفتن المضرة بالدين، فذكرت فتنة المال والجاه، المتمثلة في قصة (صاحب الجنتين) والتي سيتم توضيحها في هذا المطلب، وذكرت فتنة الوساوس والشبهات، المتمثلة في قصة (آدم - عليه السلام - وإبليس - لعنه الله)، فهذه الهجرات الثلاثة من أجل الدين، والبُعد عن مُضِرات التوحيد، تُنْشِئ شخصية المؤمن المستقيم، فمَن هاجر إلى كهف المساجد، وجثى عند أقدام العلماء، وحمل مسؤولية هداية الخلق، ولم يغتر بالدنيا وزينتها، وجاهد الشياطين ووساوسها، والنفس وشهواتها، كان من أولياء الله الصالحين، المعصومين من مُضلات الفتن[1].

وتدور قصة صاحب الجنتين في محور التحذير من الدنيا والركون إليها والافتخار بها، وبَيّنت هذه القصة، أن الفخر والعزة هو بالإيمان بالله، والرغبة في ما عند الله من الجنان والنعيم الذي لا يبيد، وذكر المفسرون خبر هذين الرجلين [2].

قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ ﴾ [3].

(واضرب لهم مثلا)، اقترنت كلمة الضرب بالمثل في كثير من الآيات، منها هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣ ﴾ [5]، وهذا الاقتران يدل على أن المثل يُؤَثِر في القلوب والعقول، كما يُؤثِر الضرب في المضروب، فلو أن إنسانا ضرب آخر ولو ضربة خفيفة ستؤثر فيه، وكذلك

١- انظر: الصابوني، محمد علي الصابوني، (ت ١٤٣٦هـ)، **صفوة التفاسير**، دار الصابوني - القاهرة، ط ٩، ج ٢، ص ١٨١.
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٠، ص ٤٠٠.
٣- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٣٢- ٣٦).
٤- سورة البقرة، ج ١، آية (٢٦).
٥- سورة العنكبوت، ج ٢٠ ، آية (٤٣).

الأمثال لها تأثير عجيب في قرع القلوب، وتقريب الأفهام، قال الزركشي: "وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس" [1].

وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يضرب مثلا في هذين الرجلين، حتى يتعظ كفار قريش، فيتركوا الكِبر والمفاخرة بأموالهم وخدمهم، ولعلهم يعلمون أن الاخرة خير وأبقى، وهذا لكل مؤمن بالله؛ ليَثْبُت على مبادئه وعقيدته، ولكل كافر؛ ليرتدع، وقد جعل الله (لأحدهما جنتين) أي: بُستانَين من أعناب، محفوفَين بالنخل، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر في غاية الجود؛ ولهذا قال: (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أي: ولم تنقص منه شيئا، (وفجرنا خلالهما نهرا)، أي: جعل الله تعالى زيادة في النعيم، أنه لا يتعب في نقل الماء من مكان لآخر، بل جُعِلت الأنهار تتدفق بين تلك الزروع والأشجار[2].(وكان له ثمر) أي: أعطى الله تعالى هذا الكافر من أصناف المال الكثير الكثير، كالذهب والفضة وغيره، (فقال لصاحبه وهو يحاوره)، أي: قال الكافر للمؤمن - وهو يخاصمه ويراجعه-، (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا)، أي: يفخر على صاحبه بالمال والخَدَم والولد، وبهذا الافتخار والكِبر وصف الله حاله، قال: (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه)، وفي هذا السياق يقول النبي - صلى الله عليه وسلم-: " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" [3]، ولمَا رأى كثرة الزروع والأشجار والماء الوفير، قال - بمنطق الأسباب واليقين عليها- : (ما أظن أن تبيد هذه أبدا)، أي: تهلك وتندثر، بل ازداد جحوده وكفره، فقال: (وما أظن الساعة قائمة)، وهذا دليل قاطع على كفره، وزاد تهكما واستهزاء بصاحبه، (ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيرا منها منقلبا)[4].

وبعد هذا الجفاء وسوء الخُلُق، يخبر الله تعالى عن رد صاحبه له.

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ

١- الزركشي، **البرهان في علوم القرآن** ، ج ١، ص ٤٨٦.
٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ١٥٧.
٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكِبر، حديث (٢٧٥)، ج ١، ص ٦٥.
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكان القرآن** ، ج ١٠، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١ ﴾ [1].

وبعد أن قال المشرك ما قال، لم يسكت صاحبه عن أقواله الكفرية، بل جاوبه وجادله، فقال له: (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)، أنكر عليه كفره بالله تعالى، ووعظه وذكّره بأصل خِلقته؛ ليتبين نعمة الله عليه في الإيجاد، فآدم - عليه السلام - من تراب، ثم تسلسل تناسل البشر بالزواج، كأنه قال له: بعد ما كنت نطفة حقيرة، ثم طفلا رضيعا، ثم صبيا صغيرا، أصبحت رجلا سويا صحيحا قويا، والآن تكفر بالبعث، وتتكبر على خلق الله بنعمه عليك، (لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)، (لكنّا) معناه :" لكن أنا هو اللّه ربّى، ترك همزة الألف من (أنا) فأدغمت النون من (أنا) مع النون من (لكن)" [2]، أي: لكن أنا لستُ مثلك أُشرك بالله، بل أنا مؤمن به ربا، قادر على إماتتي وإحيائي؛ ليحاسبني، (وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)، يحتمل: أن جحوده بالبعث، إظهار لعجز الرب سبحانه، ونسب العجز له - تعالى عن هذا - فيه تشبيه له بالمخلوق، وهو عين الشرك [3].

ثم قال له مُعلما وموبخا: (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا)، أي: ما في هذه الجنة هو من مشيئة الله فيها، وليست بقدرتك ولا قوتك، بل بقوة الله وحوله، فلا تحقرنّ أحدا لم يعطه الله ما أعطاك، ولو رأيته أقلَ منك مالا وولدا [4] ، وفي هذا المقام يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال: " ألا أعلمك ـ أو قال : ألا أدلك - على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة، تقول: لا حول و لا قوة إلا بالله، فيقول الله - عز و جل-: أسلم عبدي واستسلم" [5].

ثم قال الأخ الصالح: (فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)، أي: وبعد دعوته لصاحبه، توجه إلى الله تعالى راجيا منه العطاء في جنة الاخرة، فهي خيرٌ من كل جنان الدنيا، وأن يرسل على جنة صاحبه صاعقة من السماء، فتصبح الأرض لا نبت فيها ولا شجر، والصعيد: وجه الأرض [6]، والزلق: "زَلَقَ الرَّجلُ

١- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٣٧ - ٤١).
٢- الفراء، **معاني القرآن** ، ج ١، ص ٤٧٥ .
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٠، ص ٤٠٥- ٤٠٦.
٤- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٨، ص ١٥٨.
٥- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب: الإيمان، حديث (٥٤)، ج ١، ص ٧١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولا يحفظ له علة و لم يخرجاه، تعليق الذهبي في **التلخيص**: صحيح لا علة له.
٦- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٢٢٤.

رأسه: حَلَقه" [1]، فشبه زوال ما على أرض الجنتين كزوال شعر رأس الآدمي، أو أن الله تعالى يجعل الماء الذي يجري في الجنتين غورا: أي: يغوص في الأرض، فلن يستطيع أن يأتي به، كأنه دعا لنفسه وعلى صاحبه [2].

وظهر تأييد الله لأوليائه الصالحين، فحقق الله تعالى رجاء العبد الصالح، قال الله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤ ﴾ [3]، أي: أهلك الله تعالى جنته، فلما رآها الكافر صباحا، جعل يضرب كفا على آخر، وهي دلالة الندم على فناء ماله وعمره في تحصيل الدنيا، وهو يقول: (يا ليتني لم أُشرك بربي أحدا)، كأنه تذكر موعظة أخيه عندما قال له : (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)، واختلفت آراء العلماء، هل قُبِلَ ندمه فأصبح مُوحدا، أم قال ذلك لِما رأى من الفاجعة؟ [4].

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ)، جماعة (يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) يمنعونه من عذاب الله، (وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا)، أي: لا يقدر على الانتصار لنفسه، (هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)، (هنالك) أي: يوم القيامة، وفيه إشارة: أن الله أعلم بالوقت الذي يَنصر فيه أولياءه، ويذل أعداءه [5]، والولاية على معنيين [6]:

١- بكسر الواو (الولاية) يعني: المَلِك، أو السلطان، أو الإمارة.

٢- بفتح الواو (الوَلاية) : الموالاة والنصر والتأييد، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ ﴾ [7].

(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) أي: أن الله تعالى خير مَن يجزي أهل طاعته ثوابا على طاعتهم، وذلك بتأييدهم ونصرهم في الدنيا، وخير عاقبة أعدّها لهم في الجنة يوم يَلقَونه وهو راضٍ عنهم [8].

١- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ١٦.
٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ٧٠.
٣- سورة الكهف، ج ١٥ ، الآيات (٤٢- ٤٤).
٤- انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٤، ص ١٦٣ - ١٦٤.
٥- انظر: البغوي، **معالم التنزيل** ، ج ٥، ص ١٧٣.
٦- **المرجع السابق**، ج٥، ص ١٧٣.
٧- سورة البقرة، ج ٣، آية (٢٥٧).
٨- انظر: البغوي، **معالم التنزيل** ، ج ٥، ص ١٧٤.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- يظهر الهمّ الدعوي لدى الرجل الصالح في محاورته ومجادلته لأخيه، وذلك أن مصاحبته إياه لم تمنعه من نصيحته والإنكار عليه والرد على كلامه، وأيضا لم يمنعه غنى صاحبه وجاهه من أن يدعوه ويتكلم معه.

٢- يتجلى همّ الصاحب الصالح في روعة دعوته، واختيار الكلمات التي تناسب حال صاحبه، فبدأ بتذكيره بأصل خِلقته؛ حتى يكسر الكبرياء الذي في قلبه، ثم بعد نفي فضل النفس، أثبت الحول والقوة لله وحده، وأن الفضل له وحده في ما أعطى من النِعَم، وبعد هذا النفي والإثبات، قَرَعه وزجره وهدده بزوال هذه النعم عنه إن لم يؤمن ويشكر، فاستخدم معه أسلوبا دَعويا رفيعا، في ترتيبه للجمل، وتدرجه في الدعوة، والحرص على هدايته وتوبته.

٣- ذكر الإمام الزمخشري كلاما نصه:" (وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدا) تَذكر موعظة أخيه، فَعِلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركا؛ حتى لا يُهْلك اللّه بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندما على ما كان منه، ودخولا في الإيمان" [١]، وقال ابن عاشور: "وهذا ندم على الإشراك فيما مضى، وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذ" [٢].

وبناء على هذا الكلام، فقد آتى الهمّ على هداية أخيه أُكُلَهُ، فأظهر صاحب الجنة الندم والحسرة والرغبة في التوبة وطَلَبُ المغفرة، وهذا شيء من ثمرات الهمّ الدعوي المفضي إلى هداية الخلق.

٤- الداعي إلى الله ولي الله؛ لأن الداعي ينصر الله، ومَن نصر الله نصره الله تعالى، قال تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[٣]، وهذا الرجل الصالح نصر الله في إنكاره على صاحبه، وذكّره ودعاه إلى الله، فنصره الله على صاحبه وحقق له رجاءه، قال الله: (هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)، ويدل هذا الأمر على أن الأخ الصالح كان يحمل في طيات قلبه من الهمّ في الدعوة والنصح، وحب الله تعالى، ما استحق به ولاية الله ونصره إياه.

١- الزمخشري، **تفسير الكشاف** ، ج ٢، ص ٧٢٤.
٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ٧٢.
٣- سورة الحج، ج ١٧، آية (٤٠).

المطلب الخامس: الهمّ الدعوي من خلال قصة سحرة فرعون.

في مطلب سابق[1] تحدّث عن دعوة سيدنا موسى - عليه السلام - لفرعون، وكيف أن موسى - عليه السلام - أقام عليه الحجة بالآيات والدلائل على صدق رسالته وبعثته، كمعجزة اليد التي أصبحت بيضاء، وإلقاء العصا لتُصبح حية تسعى، لكن فرعون اعتبر ذلك سحرا من فعل موسى - عليه السلام -، وهل يكون الكفر إلا عنادا وكِبرا، قال تعالى في أحداث قصة موسى - عليه السلام - وفرعون - لعنه الله تعالى- قال فرعون لموسى - عليه السلام -:﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾[2]، أي: جئتنا لتخرجنا من مصر باتباع الناس لك بهذا السحر، ثم تصبح لك السلطة والحكم، فسنأتيك بأعظم من هذا السحر، فاجعل بيننا بينك ميعادا نلتزم به، ولا يتخلف عنه أحد، ويكون المكان سويا لا ارتفاع ولا انخفاض في أرضيته؛ لإنصاف الطرفين[3].

(قَالَ): أي: موسى - عليه السلام - لفرعون، (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)[4]، ويوم الزينة: يوم عيد عند القبط، يتزينون فيه ويلبسون أجمل ما عندهم، وقيد لهم الوقت بالضحى؛ حتى لا يخفى على أحد شيء مما سيحدث، بحيث لا تمنع شمس الظهيرة، ولا ظلمة الليل، من أي موقف سيحصل، واختار يوم الزينة؛ لكثرة الناس فيه[5].

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾[6].

وبدأ فرعون بجمع السحرة من كل أقطار مملكته حتى يغلب موسى وهارون - عليهما السلام - ، ثم أتى الموعد، وأتى فرعون وسحرته، وأتى موسى ببينته، وهارون بشجاعته، ووقف الحق والباطل، وفي جهة الباطل، يقول السحرة لفرعون: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[7]، وعندما

١- الفصل الثاني، المبحث الثالث، المطلب الثاني، ص ٩٥.
٢- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٥٧ - ٥٨).
٣- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥، ص ٢٩٩ - ٣٠٠).
٤- سورة طه، ج ١٦، الآية (٥٩).
٥- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج ١٦، ص ١٣٩.
٦- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٦٠- ٦٤).
٧- سورة الأعراف، ج ٩، الآيات (١١٣- ١١٤).

رآهم موسى وَعَظَهم وزجرهم قائلا: (وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)، والويل: العذاب، وإنما قالها تعجبا من فعلهم، فيسحتكم: يستأصلكم، وقد خاب مَن افترى على الله الكذب، وقصد موسى- عليه السلام - بالافتراء هنا، تمويه الناس بَتَخَيُلهم أن هذه الحبال لها قدرة على الفعل، وهي ليست كذلك، وإنما هي مخلوقة، أو أنه قصد بالافتراء، اتخاذ فرعون إلها من دون الله تعالى، وعند سماع السحرة هذا الكلام، وقع في قلوبهم شيء، مما أدى إلى أن يراجعوا أنفسهم ويتشاوروا، واختلفت آراؤهم، ثم أسروا كلاما فيما بينهم حتى لا يسمعهم أحد، قَالُوا: (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)، وبعد ما اختلفوا اتفقوا على أن موسى وهارون ساحران، وأنهما ما جاءا إلا ليُخرجانا من أرضنا، ويُغيرا طريقة سادتنا وكبراءنا، ثم اتفقوا على أن يجتمعوا في صف واحد، ويُلقوا حبالهم وعصيهم مرة واحدة، والذي ينتصر على الآخر هو الذي سيعلو شأنه، ويدحر خصمه [1].

ثم يقول تعالى: - عن خبرهم في تحدّيهم - (﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [2].

وبدأ التحدي، قال السحرة: يا موسى إما أن تلقي عصاك، أو نُلقي عصيّنا قبلك، "وهذا التخيير مع تقديمه في الذكر - أي قدموا موسى - عليه السلام - على أنفسهم - حسن أدب منهم وتواضع له، فلا جرم أن رزقهم اللّه تعالى الإيمان ببركته، ثم إن موسى - عليه السلام - قابل أدبهم بأدب، فقال: (بَلْ أَلْقُوا)" [3]، ولمّا ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم تَخَيَلها الناس أنها حيات وثعابين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [4]، والمقصود من قوله تعالى (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)، أن سيدنا موسى لم يُسْحر، ولكن رأى شيئا لولا عِلمه بهذا الشيء أنه ليس حقيقة، لظن أن هذا التخيل حية تسعى، ووقع في نفس موسى الخوف، وكيف يخاف وقد قيل له: (إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى)[5]؟، وإنما كان خوفه على الناس أن يُفتتنوا بالسحرة ولا يؤمنوا بمعجزة العصا، فأوحى الله تعالى له ألا

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١١، ص ٢١٤- ٢٢١.
٢- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٦٥ - ٦٩).
٣- الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٢، ص ٧٢.
٤- سورة الأعراف، ج ٩، آية (١١٦).
٥- سورة طه، ج ١٦، آية (٤٦).

يخاف؛ لأن أمْره سيظهر، ويكون له الغلبة، ثم أمَرَه تعالى أن يُلقي عصاه، فإذا هي حية عظيمة، فبدأت تبتلع الحبال والعِصيّ، وعندما رأى السحرة ما رأوا، أيقنوا أن هذا ليس بسحر، وكأنه دار في خاطرهم سؤال، إذا لم يكن سحرا فأين الحبال والعصيّ؟!، فعندما حكّموا عقولهم آمنوا بالله حق الإيمان[1]، قال الله تعالى - واصفا حالهم -: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[2].

وانتكس الطاغية، وهاج وماج، فقال: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾[3].

أي: صدقتم موسى وهارون، و أنا لم آمركم بذلك، وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهتان وكذب، قال فرعون: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي، وكيف عَلّمَهم موسى - عليه السلام - السحر؟!، وأنت يا فرعون مَن جَمعْتَ السحرة، وأنت الذي وعدتهم بالأجر العظيم ، ولم يكن موسى يعرفهم أصلا حتى يلتقي بهم ويتفق معهم، ثم أخذ يهدد ويتوعد، فقال: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) والقطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأن كلاهما خلاف الآخر، وبعد ذلك توعد بتعليق أجسامهم على جذوع النخل، ثم قال مغترا بنفسه: ولتعلمن أي العذابين أشد، عذابي أم عذاب رب موسى وهارون[4].

فلما هاج عليهم بذلك، هانت عليهم أنفسهم، ورخصت في سبيل رضا الله - عز وجل- قالوا: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾[5]، أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، (والذي فطرنا) قَسَمَ، أي: والله الذي فطرنا لن نُفَضِل طاعتك على طاعة الله تعالى بعد أن تَوضّحت لنا الدلائل والبراهين على صدق موسى - عليه السلام - وكذبك يا فرعون، ثم قالوا له (فاقض ما أنت قاض) أي: فافعل ما شئت، وما تراه مناسبا؛ ليزول غيظك، وفيه إشارة إلى استخفافهم به وبقوته، وأنهم لم يبالوا بما يحدث لهم، وعلّلوا سبب إرخاص النفس لله؛ (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي: إنما

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٢، ص ٧٣ - ٧٤).
٢- سورة الأعراف، ج ٩، الآيات (١١٨ - ١٢٢).
٣- سورة طه، ج ١٦، آية (٧١).
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٢، ص ٧٦، انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥، ص ٣٠٥.
٥- سورة طه، ج ١٦، ص آية (٧٢).

لك تسلط في هذه الدار، وهي دار زوال تنقضي وتذهب بكل ما فيها من شهوات وملذّات، ونحن قد رَغِبْنا في دار القرار التي لا تفنى ولا تزول [1].

ثم قالوا له : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [2].

" الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد"[3].

والمعنى : أن السحرة قالوا لفرعون: إنّا آمنا بالله الغفار الرحمن؛ ليغفر لنا ذنوبنا، والذي أجبرتنا عليه من تعلم السحر وتعليمه، وتحدي موسى - عليه السلام - لإبطال قوله، (والله خير وأبقى) أي: ما عند الله خير لنا مما عندك، إن أُطيع، وعذابه أبقى عذابا منك، إن عُصِي، ثم ذكّروه بأهوال الاخرة، فقالوا: مَن يموت على الكفر والشرك وهذا قمة الإجرام، فجزاؤه جهنم لا يموت فيها ولا يحيا؛ لأن الله تعالى يُفني الموت، ومَن مات على التوحيد والطاعة، وصبر عليها، فجزاؤه الدرجات العليا في جنات لا تفنى ولا تزول، ومصداق ذلك، قَول رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- " يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ - فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ- فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَأبُونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ ،هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ ،قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، و يا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[4]، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا"[5]، وذلك الجزاء في الجنة، لِمَن طهّر قلبه ونفسه، وصبر عن المعاصي،

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥، ص ٣٠٤.
٢- سورة طه، ج ١٦، الآيات (٧٣ - ٧٦).
٣- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥، ص ٣٠٥.
٤- سورة مريم، ج ١٦، آية (٣٩).
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث (٧٣٦٠)، ج ٨، ص ١٥٢.

وعلى الطاعات، وتلك العاقبة السوداء، لِمَن سولت له نفسه المعصية، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون [١].

وبعد أن تكلموا مع فرعون هذا الكلام، ونصحوه ووعظوه، قرر أن يقوم بتهديده ويقتلهم، فعندئذ قالوا: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)[٢]، فكانوا في أوّل النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء، رحمهم الله تعالى [٣].

استنباط الهمّ الدعوي:

تتجلى مظاهر الهمّ الدعوي في قصة سحرة فرعون بما يلي:-

١- قوة الثبات من تهديد فرعون وبطشه، والصمود أمام أعتى قوة على الأرض، واسترخاص أنفسهم في سبيل الله -عزّ وجل- ولا يتأتى ذلك إلا لمن يمتلك هما على آخرته، وحبا لدينه، تقوم قائمته بذلك الثبات.

٢- يبرز همّ السحرة في دعوتهم، عندما تكلموا مع فرعون، ودعوه إلى الله، محذرين من عقابه وعذابه، ومذكّرين بنعيم جنانه، وذلك بقولهم: (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) .

٣- ويظهر همّهم في جهرهم بالدعوة أمام النّاس علانية، وذلك بغرض نشر الدعوة وإقامة الحجة؛ لأن الناس اجتمعوا ليَرَوا فعْل السحرة، قال تعالى: (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.)

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٦، ص ١٥٤.
٢- سورة الأعراف، ج ٩، آية (١٢٦).
٣- انظر: الطبري، **جامع البيان** ، ج ١٨، ص ٣٤٠.

المطلب السادس: الهمّ الدعوي في قصة أصحاب القرية (سورة ياسين) .

وردت هذه القصة في سورة ياسين، وقد جاء تسميتها في بعض الأخبار بأنّها قلب القرآن[1]، وقلب القرآن تحدثت عن صحة الإيمان ودلائله، وعن قوة الداعي وشجاعته، فكأن الدعوة إلى الإيمان هي الوريد والشريان الذي يخرج من القلب ليغذي باقي أعضاء الجسد، فإن تجلط هذا الوريد أُصيب هذا الجسد بالوجع الشديد وقد يؤدي إلى موته، والدعوة إن تجلطت في أفواه الناس أُصيبوا بأمراض القلوب التي قد لا يُستشعرُ ألمُها إلا بعد فوات الأوان، فمقصد هذا القرآن جاء مشِعّا في قلبه، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[3].

يخبر تعالى عن قدرته في إحياء الأموات عند البعث، ويحتمل أيضا أن يكون الإحياء من ظلمة الشرك إلى نور الإيمان؛ لأن المشرك ميت، والمؤمن حي، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[4]، والآثار: هي السنن الحسنة التي تركوها خلفهم، كالمؤلفات النافعة، وبناء للمساجد والمدارس، والسمعة النيّرة التي تحيي العقول والقلوب، وأيضا السنن السيئة، كالمؤلفات المُضلة، وآلات الملاهي، وغير ذلك، فهذا كله مكتوب في صحف العباد ويستمر أثر هذه السنن بعد الممات[5].

ثم يبين الله تعالى أفضل هذه الآثار وأحبها إليه سبحانه، فضرب مثلا لِمَن كفر به - تبارك وتعالى - ما عاقبته، ومَن آمن بالله وصدّق المرسلين ما جزاؤه، وهذا المثل قيل إنّه ضُرِبَ في أهل قرية تُدعى (أنطاكية) قرب اليونان، فقد أرسل الله تعالى لأهل هذه القرية رسولين اثنين، فقام الرسولان بدعوة أهل القرية إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ونبذ الشرك والأصنام؛ لأن أهل هذه القرية كانوا عبّاد أصنام، فكذّب أهل القرية الرسولين، فأيّدهما الله برسول ثالث، فقالوا لهم: (إنّا إليكم

١- **عن معقل بن يسار - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قالَ : "ويس قَلْبُ الْقُرْآن لاَ يَقْرَأُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ"**، النسائي، **السنن الكبرى** ، كتاب: عمل اليوم والليلة، باب" ما يقرأ على الميت، حديث (١٠٨٤٧)، ج ٩، ص ٣٩٤. تعليق الألباني: (ضعيف)، **ضعيف الترغيب والترهيب**، حديث (٨٧٨)، ج ١، ص ٢١٩.

٢- سورة يس، ج ٢٣، الآيات (٦٩- ٧٠).

٣- سورة يس، ج ٢٢، الآيات (١٢- ١٣).

٤- سورة الأنعام، ج ٨، آية (١٢٢).

٥- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

مرسلون) من عند الله ربكم الذي خلقكم من عدم، ورزقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم؛ ليحاسبكم على ما قدمتم، فإما إلى جنة، وإما إلى نار[1].

وذكر أكثر المفسرون: أن هؤلاء الرسل من الحواريين، بعثهم سيدنا عيسى - عليه السلام - لأهل هذه القرية، فرسول رسول الله، كأنه رسول من عند الله تعالى، فتكذيبه تكذيب للرسول[2]، وهذا ما يؤيده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾[3]، ولقد تم توضيح فضل الحواريين في مطلب دعوة - عيسى - عليه السلام - للحواريين[4].

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ ﴾[5].

ردّ أهل القرية على المرسلين، قالوا لهم: إنكم بشر مثلنا مثلكم، فكيف تكونوا مرسلين من عند الله ؟، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ ﴾[6]، (وما أنزل الرحمن من شيء)، كانت هذه الجملة من أقوال اليهود الذين يسكنون تلك المنطقة، فكانوا يتجنبون النطق باسم الله، وإنما التعريض بصفاته، ولأن اليهود ينكرون نزول أي كتاب بعد التوراة، فالظاهر أن الفريقين قالوا: (إن أنتم إلا تكذبون)، فأقسم المرسلون أنهم مبعوثون من عند الله تعالى، وجاء القسم في قولهم (رَبُّنَا يَعْلَمُ)، بحيث أنه استشهاد منهم بالله على صدق مقالتهم، ثم قالوا لهم : نحن ما علينا لكم أن نجبركم على اتباعنا والإيمان بالله تعالى، ما علينا إلا أن نوضح لكم، وننصحكم، ونحذركم، ونبشركم، فإن أحسنتم فلكم ، وإن أسأتم فعليها[7].

ثم قال تعالى مخبرا عن تماديهم في الشرك والكفر: (قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ ﴾[8].

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٦، ص ٥٦٩.
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٦، ص ٢٦٠.
٣- سورة الصف، ج ٢٨، آية (١٤).
٤- الفصل الثاني، المبحث الثاني، المطلب الثاني، ص ٨٤.
٥- سورة يس، ج ٢٢، الآيات (١٥- ١٧).
٦- سورة التغابن، ج ٢٨، آية (٦).
٧- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٢٠٩.
٨- سورة يس، ج ٢٢، الآيات (١٨- ١٩).

والتطير: التشاؤم، وهو ضد الفأل الحسن[1]، أي: تشاءمنا بوجودكم بين أظهرنا، ولأن لم تتوقفوا عن دعوتكم، سنرميكم بالحجارة، أو يصيبكم منا عقوبة شديدة، فقالت لهم الرسل الكرام: بل الشؤم الذي تخشونه إنما هو معكم وبين أيديكم،- قصدوا كفرهم وأعمالهم السيئة التي عاقبتها خاتمة السوء-، وقالوا لهم: أئن دعوناكم وأمرناكم ما فيه الخير لكم في دنياكم وآخرتكم، تشاءمتم وأعرضتم؟!، بل أنتم قوم تجاوزتم حدودكم في الكفر والإعراض، وبخاصة بعد ما تبينت لكم البراهين والدلائل على صدق ما أُرسلنا به إليكم [2].

ثمّ يصف الله دعوة الرجل: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [3].

وبدأت الآية بكلمة(جاء)، ولم يقل تعالى (أتى من أقصى المدينة)، وهذا فيه دلالة على مشقة السفر والتعب من أجل غايته في الوصول لنصرة الرسل، فالإتيان: المجيء بسهولة، ويستخدم في المعاني، كقوله تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)[4]، وأما (جاء) ففي طياتها المشقة والتعب، وتستخدم في الأعيان، كقوله تعالى في قول هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [5]. [6]

وجملة (من أقصى المدينة)، تدل على بعد المسافة التي مشاها، فمن حب الله تعالى لهذا الرجل الداعي لم يذكر كلامه وحسب، وإنما ذكر خطواته التي مشاها، بل وكيفية مشيه - رضي الله عنه - فقال(يسعى)، دلالة على الهمة والسرعة، وفي ذكرذلك الرجل تثبيت لقلوب الصحابة - رضي الله عنهم - ولكل مَن انتهج نهجهم في الدعوة إلى الله تعالى، والصبر عليها [7].

١- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٤، ص ٥٠٨.
٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٦، ص ٥٠٧.
٣- سورة يس، ج ٢٢، الآيات (٢٠- ٢٧).
٤- سورة النحل، ج ١٤، آية (١).
٥- سورة النمل، ١٩، آية (٢٢)
٦- الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن** ، ص ٢١٣.
٧- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٦، ص ٢٦٣.

وعندما وصل الرجل الساعي للنصيحة، قال لقومه: (اتبعوا المرسلين)، فأظهر النصيحة بأمره بالاتباع، وأظهر الإيمان لاقتران الاتباع بالمرسلين، ثم قال: (اتبعوا من لا يسألكم أجرا)؛ لأن الدعوة إلى الله تعالى لا بد أن يكون فيها الاحتساب لله، ولا ينتظر من المدعو أيَ جزاء ولا ثناء، وهذا دليل صدق هؤلاء المرسلين، وشِهدَ لهم أنهم مهتدون بقرينة الاحتساب، ونَقْله من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القيوم، ومما لا ينفع، إلى النافع الرزاق الوهاب، ثم قال - منكرا عليهم -: (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون)، أي: ما الذي يمنعني أن أستسلم لله تعالى وأخلص له بالعبادة، وهو الذي خلقني وخلقكم، وإليه ترجعون؛ فيحاسبكم على أعمالكم، فخافوا من عذابه، وأرجوا جنته [1].

وأكمل الرجل نصيحته ودعوته، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ ، بَيّنَ الرجل في قوله هذا معنى لا إله إلا الله، فأثبت الألوهية لله في قوله (الذي فطرني)، ونفاها عن الآلهة بقوله (أأتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً)، ثم أثبت أن إرادة الأمور لا تكون إلا بيد الله تبارك وتعالى، وذلك عندما قال: (إن يردن الرحمن بضر)، واقترن اسم الرحمن بالضر؛ لأن ضره - تبارك وتعالى - إذا قدّره على عبده كان رحمة به وخيرا له، إن فَهِمَ العبد مراد ربه، وإلا فالمعاصي تطمس نور البصائر، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [2]، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ [3] مِنْهُ " [4]، وقال: إن هذه الآلهة لا تستطيع أن تشفع لي عند مَن أراد بي ضر، وإن وقع لا تخلصني منه، فكيف أعبد الآلهة التي لا تنفعني ولا تشفيني، ولا تستطيع دفع الضر عني، فإن فعلتُ ذلك فهو الضلال والغواية الواضحة [6].

وبعد ما دعاهم في أبلغ كلمة، وأجمل جُملة، همّوا بقتله، فحفروا له بئرا ليرموه فيه، وهم الذين سماهم الله تعالى بـِ (أصحاب الرس)، والرس: البئر[7]، قال تعالى:

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٢١٤- ٢١٥.
٣- سورة الزمر، ج ٢٤، آية (٣٨).
- أي : يبتليه الله تعالى بالمصائب ليثيبه عليه، وهي من علامات حب الله تعالى لعبده. انظر: العسقلاني، **فتح الباري** ، ج ١٠، ص ١٠٨.
٥- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، حديث (٥٦٤٥)، ج ٧، ص ١٤٩.
٦- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٦، ص ٢٦٥- ٢٦٧.
٧- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٦، ص ٩٧.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [1]، وحينئذ أيقن الموت، فصرخ داعيَ الإيمان، بائعا نفسه لربه الرحمن، محتسبا بشجاعته أعالي الجنان، صرخ قائلا: (إني آمنت بربكم فاسمعون)، والخطاب موجه إلى الرسل، كأن القوم عندما أرادوا قتله، نظر إلى الرسل أراد أن يُشهدهم على إيمانه، فقال مقالته، وإما أن الخطاب موجه للكفار؛ ليزجرهم، وعندما قتلوه (قيل أدخل الجنة)، هي بشرى من الرسل له قبل موته لمّا قال: (آمنت بربكم)، أو أن الله تعالى أدخله الجنة، فهو حي فيها يأكل ويشرب، كقوله تعالى: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[2]، فجزاؤه كجزاء الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله تعالى[3].

ثم يخبر الله عن هذا الرجل خبرا عجيبا، وأمرا غريبا، فيه دلالة على الرحمة في قلب ذلك الرجل، وهمّه المُذيب للغلظة والقسوة، فقد أنبأنا المولى - عز وجل - أن هذا الرجل الرحيم، قال بعد موته: (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)، "والمعنى: أنه لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه؛ ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا، وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم، فكان متسما بكظم الغيظ ، وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض، ولا قيمة للحظوظ الدَّنِية وسفساف الأمور" [4].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :" نصح قومه حيا وميتا" [5].

وبعد إقامة الحجة عليهم، كفروا وأعرضوا، فاستأصلهم الله تعالى بصيحة واحدة، فلم يكن الأمر مستحقا لنزول عدد من الملائكة، أو جيوش كثيرة، وإنما صيحة واحدة أخمدتهم جميعا، وهذا من باب تحقير شأنهم، فخمدت أصواتهم وأجسادهم كما تخمد النار، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [6]، فبهذا العذاب المريع، انتقم المنتقم - سبحانه وتعالى - لهذا الرجل الذي حمل همّ الدعوة إلى الله، وقدّم نفسه رخيصة، وجعل كلامه آيات تُتلى، وأفعاله قيما تُحتذى، وقصة قومه عبرة تُروى.

١- سورة الفرقان، ج ١٩، آية (٣٨).
٢- سورة آل عمران، ج ٤، آية (١٩٦).
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٥، ص ١٨ - ٢٠.
٤- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٢١٧.
٥- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٥، ص٢٠.
٦- سورة يس، ج ٢٢، الآيات (٢٨ - ٢٩).

استنباط الهمّ الدعوي:

يظهر الهم الدعوي في قصة صاحب ياسين فيما يأتي:-

١- إنّ لفظ " أقصى" تصوّر بُعد المسافة التي قطعها، وترسم حركات الداعي الذي تكبد عناء السفر في سبيل الدعوة.

٢- إنّ التعبير ب" يسعى" تحمل في طياتها كثرة الخُطى وتجددها واستمرارها، التي انطلقت من همّ دعوي لدى صاحبها.

٣- استخدم أسلوب النداء ونسبهم إلى نفسه، وذلك لاستمالة قلوبهم واستعطافهم وإبراز الشفقة عليهم، ولا يصدر ذلك إلا من قلب مهموم لدعوة قومه.

٤- تنوّع الأساليب وكثرتها من أسلوب النداء، والحث، والمحاجة العقلية، والاستفهام الإنكاري، والترغيب والترهيب، فاستفرغ الوسع وبذل طاقاته في سبيل دعوتهم، وذلك دليل على همّه.

٥- لقد تمنى أن يعرف قومه ما لقيه من نعيم، وهذا التمني لم يكن في الدنيا إنّما بعد وفاته وانتهاء التكليف والعمل، وهذا التمني دليل على قوة الهمّ والحرص الشديد الذي يمتلكه، وقد استمرت هِمَّته وحرصه على دعوة قومه إلى آخر لحظة من حياته، (إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾)[1].

١- سورة يس، ج ٢٢، آية (٢٥).

المطلب السابع: الهمّ الدعوي عند مؤمن آل فرعون.

بعث الله تعالى موسى وهارون - عليهما السلام - إلى فرعون وقومه؛ لدعوتهم إلى الله وحده، وليُخرجوا بني إسرائيل من ظلم الفراعنة، فكان ردُّ الفراعنة الإباء والاستكبار، إلا فئة قليلة كما قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [1]، ومنهم امرأة فرعون، وماشطة ابنته، وهذا الرجل المشهور بـ (مؤمن آل فرعون)، وبعد دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه، وإقامة الحِجج والبراهين عليهم، همّ فرعون - لعنة الله عليه - بقتل موسى - عليه السلام - والفتك به، قال تعالى - مخبرا عن قول فرعون-:(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى) [2]، فهيأ الله الحكيم مَن يدبّ عن موسى - عليه السلام - ويَدفع عنه، فكان هذا الرجل من آل فرعون جنديا من جنود الله، يُدْفع به الشر، ويُحتذى به في الخير، وسطّر الله العظيم قصة هذا الرجل، واصفا حاله وأقواله [3].

قال تعالى:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [4].

كان هذا الرجل من قرابة فرعون، ويدل على ذلك كلمة (آل)، فهي تعني القرابة [5]، وكان هذا الرجل القبطي قد آمن بموسى وهارون - عليهما السلام- ، إلا أنه كان يكتم إيمانه ولم يظهره إلا في هذا اليوم، وكان إظهاره لإيمانه عندما قرر فرعون قتل موسى - عليه السلام - فغضب الرجل المؤمن لهذا الأمر وزَأرَ قائلا لفرعون وقومه: (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله)، وكيف تقتلونه وقد ظهرت لكم بينته ودلائله، كقول موسى - عليه السلام - : (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [6]، ثم خاطبهم بالمنطق والعقل، فقال: يا قوم إن ثبت أن موسى كاذبا فَضَرَرُ كذبه على نفسه؛ لأن الله سيعاقبه، وإن ثبت صدقه فقتلتموه بعد بيان صدقه، سيصيبكم ما وعدكم به من العذاب، لذلك فاتركوا فكرة قتله، ودعوه ولا تؤذوه [7].

١- سورة يونس، ج ١١، آية (٨٣).
٢- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٢٦).
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٥، ص ٣٠٦.
٤- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٢٨).
٥- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١١، ص ٢٣.
٦- سورة طه، ج ١٦، آية (٥٠).
٧- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ١٤١.

ثم قال لهم ناصحا ومُذكِرا: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ ﴾[1]، ذكرهم بنعمة المُلك والجاه الذي هم فيه، فاشكروا هذه النعمة بتصديق موسى - عليه السلام -، فإن كذبتم وأعرضتم، فمَن الذي سيدفع عنا عذاب الله إن جاءنا، والمُلاحظ: أن المؤمن نسب نفسه أثناء كلامه إلى آل فرعون، وذلك عند قوله (فمَن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا)، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يُظهر من نفسه أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه، والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف يتكلم بهذا الكلام أمام أعتى العتاة وقد وصف الله إيمانه بالكتمان؟
والجواب على احتمالين:
الاحتمال الأول: أن فرعون لمّا قال : (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى)، لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى، بل أوهم أنه مع فرعون وعلى دينه، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسى، لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله، والإتيان بالمعجزات القاهرة، وهذا لا يوجب القتل، والإقدام على قتله يُوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات .

الاحتمال الثاني: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه ابتداءً، فلما قال فرعون (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى)، أظهر أنه على دين موسى [2].

فرد فرعون على قول المؤمن، أن رأيه في قتل موسى هو الرأي الصواب والسديد، فرد المؤمن محذرا: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ﴾ [3].

وبان حرص ذلك المؤمن على هداية الفراعنة، فحذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام السابقة التي كفرت برسلها وأنبيائها، إذ مزقهم الله شر ممزق، ثم فصّل لهم في هؤلاء الأقوام، فحدثهم بما قد حصل مع قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، - عليهم السلام -، ثم ازداد بيان حرصه عليهم فقال: يا قوم إني أخاف عليكم يوم

١- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٢٩).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٧، ص ٥١١.
٣- سورة غافر، ج ٢٤، الآيات (٣٠- ٣٤).

التناد، ويوم التناد: هو يوم القيامة، وسُمي بذلك؛ لأنه يومٌ ينادي فيه أهلُ الجنة أهلَ النار، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ [1]، وينادي فيه أهلُ النار أهل الجنة، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ﴾ [2]، وفي هذا اليوم تهربون من بعضكم البعض، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ ﴾ [3]، ولن تجدوا لكم من دون الله مهربا ولا نجاة، إلا أن يرحمكم الله برحمته، ثم نادى يا قوم، يا أهل مصر، يا أيها القبط، ألم يأتكم يوسف - عليه السلام - من قبل موسى بالبينات، ويوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - جعله الله نبيا ووزيرا في أهل مصر، وقد جاءهم بالبينات، كقوله تعالى - على لسان يوسف- عليه السلام - (ءأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللَّهُ الواحِدُ القَهَّار)[4]، ومن بيناته تأويل الرؤى، فكان يدعوهم إلى الله تعالى، إلا أنهم كانوا في شك مما يدعو إليه، حتى إذا مات - عليه السلام - كنتم معاندين للصلاح وأهله، وقلتم لن يبعث الله من بعد هلاك يوسف رسولا، وهكذا تريدون أن تفعلوا بموسى كما فعلتم بيوسف- عليه السلام - [5].

وأكمل الذي آمن مسترسلا في هداية قومه، قال تغالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ ﴾ [6].

وذكر الله تعالى موعظة مؤمن آل فرعون، فبدأ بموعظته بالإجمال ثم فصله، فقال - مُجْمِلا-: (يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد)، وسبيل الرشاد: هو طريق الحق، وطريق الخير إذا سلكه المرء أصاب منه، وربط المؤمن الاتباع إلى نفسه

١- سورة الأعراف، ج ٨، آية (٤٤).
٢- سورة الأعراف، ج ٨، آية (٥٠).
٣- سورة عبس، ج ٣٠، الآيات (٣٣- ٣٧).
٤- سورة يوسف، ج ١٢، آية (٣٩).
٥- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٧، ص ١٤٣.
٦- سورة غافر، ج ٢٤، الآيات (٣٨- ٤٣).

(فاتبعون)؛ ليسترعي أسماعهم، إذ يظنون أنه سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم، ليقولوا في أنفسهم: لعله مدح رأيه بما تستهويه رغائبنا، ثم بدأ بالتفصيل، فقال: يا قوم هذه الدنيا وما فيها متاع قليل، تستمتعون ثم يزول ويفنى، والاخرة وما فيها من نعيم لا يبيد ولا يزول، فلماذا تؤثرون الفاني على الباقي؟!، ثم بين لهم جزاء الأعمال، فقال: جزاء السيئة بمثلها، أي: لا يُجَازى صاحب السيئة إلا بجزاء السوء والعقاب، أو جزاء السيئة سيئة واحدة لا تتضاعف، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :" قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعمائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً "[1]، وجزاء الصالحات مع صحيح الإيمان، جنات تجري من تحتها الأنهار، يرزقهم الله فيها مما يشاؤون ويشتهون[2].

ثم نادى قومه - منكرا عليهم - لعلهم يتراجعون عن عنادهم، فقال: يا قوم ما لي أدعوكم وأدلكم إلى طريق النجاة، طريق العزيز الذي لا يذل، طريق غفار الذنوب، وأنتم بالمقابل تدعونني إلى طريق الهلاك، طريق الكفر والشرك، وفيه إشارة إلى إهانة فرعون أنه ليس بإله، ولا يحمل صفات الإله المستحق للعبادة، من صفات العزة والمغفرة، ولا يملك رزق مَن في السموات والأرض، ثم قال: (لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الاخرة)، أي: لا شك أن الذي تدعونني إليه من عبادة غير الله تعالى، ليس له استجابة لدعوةِ مَن دَعاه في الدنيا، ولا شفاعة في الآخرة لِمَن استشفع، كقوله تعالى: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾[3]، ثم قال: (وأن مردّنا إلى الله، وأن المسرفين هم أصحاب النار)، أي: أننا سنرجع إلى الله فيُجازي كل واحد منا على عمله، والمسرفون في الكفر والشرك والمعاصي هم أهل النار، وفيه دعوة لهم وتهديد ألا يُصرّوا على كفرهم حتى لا يكونوا من أهل الإسراف في الكفر، فيؤدي بهم ذلك إلى النار[4].

١- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري** ، كتاب: الرقائق، باب: (من هم بحسنة أو بسيئة)، حديث (٦٤٩١)، ج٨، ص ١٢٨.
٢- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٤، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
٣- سورة فاطر، ج ٢٢، آية (١٤).
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٧، ٥٢٠.

ثم أخبر الله الكريم، آخر كلمات هذا المؤمن، قال: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [1].

ثم قال مُهددا: (فستذكرون ما أقول لكم) أي: ستتذكرون موعظتي وكلماتي عندما يأتي أمر الله بالعذاب، أو عند موتكم، فعندئذ لا ينفع الندم ولا التوبة، وعندما سمع الفراعنة هذه الأقوال التي نزلت على آذانهم مثل النحاس المذاب، أرادوا به شرا، إما أرادوا قتله، أو أرادوا ردّتَه عن الإيمان، فقال حينئذ: (وأفوض أمري إلى الله)؛ لأنه هو البصير بعباده، المُستَحِق الوحيد لتفويض الأمور والشؤون والأحوال - سبحانه وتعالى -، والذي يُفوضُ أمَره إلى الله ويتوكل عليه سيكفيه الله شر كل ذي شر، فإن الله لا يُضَيّع عباده المؤمنين، ولا يخذلهم، وينصرهم على أعدائهم، ألم يقل الله تعالى في ختام هذه القصة المباركة: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [2]، وفعلا نصر الله مؤمن آل فرعون، فنجاه الله من كيدهم، (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا)، وأدخل الله تعالى آل فرعون أشد العذاب، ففي الدنيا بالإغراق، وفي الاخرة بالإحراق [3].

١- سورة غافر، ج ٢٤، الآيات (٤٤- ٤٥).
٢- سورة غافر، ج ٢٤، آية (٥١).
٣- الزمخشري، **تفسير الكشاف** ، ج ٤، ص ١٧٠.

استنباط الهمّ الدعوي:

يبرز الهمّ الدعوي في قصة مؤمن آل فرعون فيما يأتي:-

١- إنكاره الشديد على قتل الدعاة، وذلك لحرصه البالغ على استمرارية الدعوة إلى الله، (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله).

٢- تكرار استخدام أسلوب النداء؛ للتحبب، ونسبته إلى قومه في أكثر من موطن، شاهد على همّه في استمالة قلوبهم، واستعطافهم؛ بغرض دعوتهم.

٣- وظّف أسلوب التنبيه العقلي، (إن يك صادقا...) وذلك ليحرّك العقول في بيان غلطهم.

٤- استخدم أسلوب الترغيب والترهيب حيث قصّ عليهم من نبأ الأمم السابقة، مثل قوم نوح، وصالح، وهود، -عليهم السلام- وعاقبة من تنكّر طريقهم، ثمّ ذكّرهم بيوم القيامة، وأبرز لهم حقيقة الحياة الدنيا وما هي إلا متاع، وأبرز لهم جزاء السيئات والحسنات.

٥- إبراز الشفقة عليهم: (إنّي أخاف عليكم يوم التناد)، وهذا الخوف بدافع الشفقة عليهم، ولا تصدر تلك المشاعر إلا من صاحب همّ على قومه.

٦- تذكيرهم بدعوة يوسف -عليه السلام- (وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ..)، وذلك حتى يستحثهم إلى الرجوع والتوبة.

٧- وظّف الاستفهام البلاغي:(مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) حيث أنكر عليهم باطلهم، وذلك لشفقته عليهم.

المبحث الثاني

الهمّ الدعوي عند الشباب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الهمّ الدعوي عند أصحاب الكهف.

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي عند الغلام في قصة أصحاب الأخدود.

تمهيد.

الشباب هم نبض قلب الأمة، وأساس إقامة الدولة، وعليهم تُبنى الآمال، وبهم يُخلد ذُكر الأجيال، ولهذا اهتم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بنشأة الشباب وصلاحهم، فكانت من وصاياه - عليه الصلاة والسلام - قال:" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ: مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)[1]، وكان - صلى الله عليه وسلم - يخص الشباب بالترغيب في طاعة الله - سبحانه وتعالى - والإقبال على الآخرة، فكان من ترغيبه - عليه الصلاة والسلام - قوله: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ... "[2].

وكان أغلب الصحابة - رضوان الله عليهم - من الشباب، بل كان أول من أسلم معه - عليه الصلاة والسلام - شاب صغير وهو ابن عمّه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- [3]، ولقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - مشهدا من مشاهد ثمرات تربيته لعلي - رضي الله عنه - وذلك يوم خيبر، عندما استعصى الحصن عليهم، فعن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - يحدث بالقصة، قال: " فَقَالَ:- رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ [4] حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- فَبَسَقَ في عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ، وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبُ، شاكي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ، إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ، فَقَالَ عَلِيٌّ:

أَنَا الَّذِى سمتني أُمي حَيْدَرة [5] كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَة

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَة[6]

قَالَ فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ"[7].

فهؤلاء الشباب - أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - هم مَن حملوا لنا الدين، وأصبحنا بفضل الله أولا وآخرا، ثم بفضل جهدهم وصبرهم مسلمين، نعرف الله

١- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمَن تاقت نفسه إليه، حديث (٣٤٦٤)، ج ٤، ص ١٢٨.
٢- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، حديث (٢٤٢٧)، ج ٣، ٩٣.
٣- الحلبي، **السيرة الحلبية** ، ج ١، ص ٤٤٥.
٤- الرمد: مرض في العين. انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة** ، ج ٢، ص ٣٦٢.
٥- الحيدر: الأسد. انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٤، ص ١٧٢.
٦- رجل سندر: أي: الجريء السريع. انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٤، ص ٣٨٢.
٧- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: غزوة ذي قَرَدٍ وغيرها، حديث(٤٧٧٩)،ج ٥، ص ١٨٩.

ونعرف رسوله، ونعرف الطهارة والقبلة، ونعرف ما يُصلحنا مما يُضرنا.

فالمجتمع لا يلوم حال شبابه من ذكور وإناث في هذه الأيام، بسبب تقصيرهم وفشلهم في أمور حياتهم، وبُعْدهم عن دينهم وقِيَمَهم، فعلى المجتمعات أن تلوم تقصيرها في التربية، و عدم مراعاة حاجات الشباب ورغباتهم، وعدم تُوفر البيئة المسلمة الصحيحة في حياة شبابنا، سواء في البيوت، أو الشوارع، أو المدارس، أو غير ذلك، ولهذا جاء الغرب والشرق، وجاء القاصي والداني، لينهضوا بهؤلاء الشباب، لكن لم يكن الذي ينتظره الناس ليُصلح حالهم، بل كانوا كالأفعى تبث الأفكار السامة، من تَعَرّي، ومخدرات، وأفلام إباحية، ولباس شرعي وما هو بشرعي، وعقوق للوالدين، وخمور وزنا، وسرقة وربا، ومواكبة الغرب في تطوره وتقدمه، كل هذا وغيره دعوة لسلخ الشباب عن دينهم؛ لأن كلاب الغرب، وخنازير الشرق، وعملاء العرب، يعرفون أنه إذا انسلخ الشباب من دينهم وأخلاقهم، توجهت طاقتهم وحياتهم إلى ما يُدَمرهم وهم لا يشعرون، ومن ثم هذا الجيل المُدَمّر بأفكار الشياطين من الجن والإنس، سَيُنشئ جيلا لا يعرف قبلة، ولا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا.

ومصداق ذلك في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: كَيْفَ بِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ فِتْيَانُكُمْ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا تَرَكْتُمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ؟!" [1].

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم بعض النماذج من هؤلاء الشبة الذين تَربوْا التربية الدينية، وحملوا مسؤولية الدين بفخر واعتزاز، فصاروا أعلاما يُقتدى بهم، ونجوما يُهتدى بفعلهم، فلم يخجلوا أو يخافوا، بل أقبلوا أُسودا تزأرُ في وجه الباطل، فبلّغوا الدين ونشروه على حساب راحتهم وضرورياتهم، بل على حساب حياتهم، فبعضهم مات من أجل أن يُسْلِم الناس، مثل الغلام في قصة أصحاب الأخدود، وبعضهم ترك الترف والحياة الرغيدة من أجل دينه، كما فعل أصحاب الكهف.

وفي هذا المبحث سأتناول الباحث هاتين القصتين؛ لبيان همّة الشباب، وبيان قدرتهم على التغيير؛ ليكونوا لشباب أمتنا المثل والقدوة في الإقبال والإقدام.

١- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، (ت ٣٠٧هـ)، **مسند أبي يعلى**، تحقيق : حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، ط ١، ١٤٠٤ هـ، حديث (٦٤٢٠)، ج ١١، ص ٣٠٤. تعليق الألباني: ضعيف، **السلسلة الضعيفة**، حديث (٥٢٠٤)، ج ١١، ص ٣٤٣.

المطلب الأول : الهمّ الدعوي عند أصحاب الكهف.

جاءت هذه القصة العجيبة قصة (أصحاب الكهف)، في سورة سُميت بـِ (سورة الكهف)، وذلك لما في هذا الكهف من المعجزة الربانية، والرعاية الإلهية، لأصحاب الكهف - كما سيأتي بيانه [1].

ويقص الله تعالى على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر هؤلاء الفتية؛ ليكون لهم فيهم العبرة والعِظة، في اليقين على قدرته تعالى، في الحفظ والرعاية، واليقين أن الله تعالى لا يُضيع مَن قدّم التضحيات بالأنفس والأموال والمحبوبات من أجله تبارك وتعالى.

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[2].

يقول الله لنبيه - صلوات ربي عليه وسلامه - لا تحسبن أن ما حصل مع أصحاب الكهف من المعجزات والخوارق عجب، بل قدرتنا على خلق السموات وما فيها، وخلقنا للأرض وما فيها، أعجب من قصة أصحاب الكهف، فآيات الله كلها عجب عُجاب؛ لِما فيها من الإيجاد والإمداد والإتقان والدقة والحكمة، والذي أبدع في خلق السموات والأرض وما فيها من الآيات، قادر على أن يعيد بعث خلقه بعد موتهم، كيف لا وهو الذي أوجدهم من العدم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[3]، وأعجب العجائب أن هذا الإنسان الحقير الذليل بين هذه المخلوقات، يكفر بالله - تعالى - ويجحد نِعمه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[4]، والرقيم: الكتاب، وسُميَ رقيما؛ لأن أسماء أصحاب الكهف وقصتهم كانت مرقومة فيه، أي: مكتوبة، وكان هذا الرّقيم موضوعا على باب الكهف [5].

وقد أتت هذه القصة على سبيل الإجمال والتفصيل، أما الإجمال، فيقول الله تعالى: **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾[6].

١- الصابوني، **صفوة التفاسير** ، ج ٢، ص ١٤٤.
٢- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٩).
٣- سورة الروم، ج ٢١، آية (٢٧).
٤- سورة الرعد، ج ١٣، آية (٥).
٥- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢١، ص ٤٢٨- ٤٢٩.
٦- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (١٠- ١١).

ابتدأت الآيات بذكر إيواء الفتية إلى الكهف؛ وذلك لبيان العبرة من هذه القصة، وهو أن هؤلاء الفتية ما ارتفع شأنهم إلا لأنهم ضحّوا لحفظ دينهم، واستجابوا لأمر ربهم، فبدأ الله بذكر التضحية، في تركهم لأهلهم وعَيْشِهم الرغيد؛ لبيان عظمة هذه التضحية، وعندما دخل الفتية الكهف، رفعوا أيديهم إلى الله تعالى متضرعين، (فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)، أي: يا ربنا آتنا رحمة عظيمة، نَأمَنُ فيها من عدونا، وتخفف علينا بها مشقة غربتنا، وقالوا (من لدنك)؛ لخصوصية هذه الرحمة، ثم سألوا الله أن يُقَدّر لهم أحوالا تكون عاقبتها رشدا وصلاحا، فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة، وهي :إعداد أسباب حصول الشيء، وعلى شاكلة دعاء أصحاب الكهف، كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو، فيقول: " اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة" [1]، فاستجاب الله دعاءهم، وأكرمهم بمعجزة خالدة إلى يوم القيامة، فضرب الله على آذنهم: أي: جعل الله تعالى غشاوة على آذنهم فلا يسمعون شيئا، فناموا نومة طويلة، أُجملت هنا، وفُصلت في آية أخرى، عند قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [2]، لبثوا ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي (الميلادي)، وثلاثمائة وتسعة بالحساب القمري (الهجري) ، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية، يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية بثلاث سنين قمرية زائدة، ثم بعثهم الله من نومتهم، وجاء بكلمة (البعث) لتأكيد أمر الإحياء بعد الإماتة، (لنعلم) أي: خروج ذلك الشيء المعلوم في الأزل إلى الوجود والمشاهدة، فإن الله يعلم يقينا أي الحزبين أحصى لمدة اللبث، والحزبان هما: حزب الفتية الذين ظنوا أنهم لبثوا أياما قليلة، وحزب أهل المدينة الذين كان عندهم تاريخ أولئك الفتية [3].

ثم جاءت الآيات تفصل هذه القصة المباركة، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [4].

١- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين** ، كتاب معرفة الصحابة - رضي الله عنهم- ذكر بسر بن أبي أرطأة - رضي الله عنه -، حديث (٦٥٠٨)، ج ٣، ص ٦٨٣. تعليق الألباني: ضعيف، **السلسلة الضعيفة**، ج ٦، ص٤٥٦ .

٢- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٢٥).

٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٠، ص ٣٦٤، انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ٥١.

٤- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (١٣- ١٦).

وخَبرُ هؤلاء الشباب: أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في خارج البلد، وكانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، وكان مَلِكهم جبارا عنيدا، وكان يأمر الناس بعبادة الأصنام ويحثهم على ذلك، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجمعهم ذلك، وخرج أولئك الفتية مع آبائهم وقومهم، نظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، فعرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم، فكان أول مَن جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخرون، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، وجعل كل واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليُظهِر كل واحد منكم أمره، فقال أحدهم: أما أنا فإني والله رأيت قومي وما هم عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك، هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال آخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يدا واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبدا يعبدون الله فيه، فَعَرفَ بهم قومُهم، ورفعوا أمرهم إلى مَلِكهم، فاحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله - عز وجل -، وهذا هو الربط على القلب الذي أخبر تعالى عنهم، ثم إن مَلِكهم لمّا دَعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وهدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأخرهم إلى الغد لينظر في أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك الفترة تمكنوا من الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة [1].

يخبر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - بتفاصيل قصة أصحاب الكهف بعد إجمالها، قال الله: (نحن نقص عليك)، أي: نحن بعلمنا وعَظْمَتنا وحكمتنا نسرد عليك يا محمد- صلى الله عليه وسلم - خبر هؤلاء الشبان الأتقياء، وجاء الضمير بصيغة الجمع (نحن نقص)؛ لإظهار عظمة المُخْبِر والمُخْبَر عنه، وهو نبأٌ حقٍ وصدقٍ من الله، لا ريب في وقوعه وحدوثه، (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)، شَهِدَ الله لهم بالإيمان، وزادهم فوق هذا الإيمان هدى، وذلك الهدى كان بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم ودينهم، فألهمهم التوفيق في إيوائهم إلى الكهف،

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥، ص ١٤٠ - ١٤١.

والثبات في دعوتهم للمَلِك وقومه، فكل ذلك هدى زائد على هدى الإيمان، (وربطنا على قلوبهم)، والربط: أصل يدل على الثبات والشَدّ، ورجل رابطُ الجأش: بمعنى: شديد القَلْب والنَّفْس[1]، فالقلب هو مكان الاعتقاد، فاستُعْمِل الربط في تثبيت هذا الاعتقاد وتقويته في مواجهة المشاق، وهذا المقام شبيه بتثبيت الله للصحابة الكرام في غزوة بدر، يقول تعالى: (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدام)[2]، فالمقامان اشتركا في المقصد، وهو حفظ الدين وإقامة النّاس في الأرض على قواعده وأُسسه[3].

(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)، وقام أصحاب الكهف للدّعوة إلى الله وحده، وتعظيمه وتكبيره فهو مَن لا شريك له، وهذا القيام كان أمام المَلِك، وأمام قومهم، فقالوا: (رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)، والشطط: البُعد عن الحق والميل عنه[4]، (هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)، أي: قال بعض أصحاب الكهف لبعضهم الآخر : هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام واتخذوها آلهة من دون الله - سبحانه وتعالى-، فَهَلَّا بَيّنوا لنا صحة عبادتهم للأصنام بالبراهين الصريحة، والدلائل المضيئة، فإذ لم يأتوا بها، ولن يأتوا أبدا بدليل على كفرهم، فالظلم كل الظلم، والافتراء كل الافتراء، أن يُتَخذ من دون الله إله آخر، (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)، "اعْتَزَلْتُ القوم، أي: فارقتهم وتَنَحَّيت عنهم" [5]، ولقد قال النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم -:" يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ [6] الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ" [7]، والمعنى: يقول بعضهم لبعض: يا أصحابي اعتزلتم قومكم، واعتزلتم ما يعبدون من الأصنام، واخترتم عبادة ربكم وحده تعالى، فحتى لا يعذبوكم، وتثبتوا على دينكم، فأوُوا إلى الكهف، وثِقُوا بالله تعالى بأنه لن يُضيعُكم، وسيبسط لكم ويوسع عليكم، (مِنْ رَحْمَتِهِ) في الدارين، بالنجاة في الدنيا من شر قومكم، والنجاة في الاخرة من عذاب ربكم، (وَيُهَيِّئْ) يسهل (لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ) الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين

١- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة** ، ج ٢، ص ٣٩٧.
٢- سورة الأنفال، ج ٩، آية (١١).
٣- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ٢٩.
٤- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة** ، ج ٣، ص ١٢٧.
٥- ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١١، ص ٤٤٠.
٦- **الشعف**: أعلى الجبل. انظر : ابن فارس، **مقاييس اللغة** ، ج ٣، ص ١٤٧.
٧- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري** ، كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن، حديث (١٩)، ج ١، ص ١١.

والتوجه التام إلى الله تعالى، (مِرفَقاً) تنتفعون به من غداء وعشاء، وقد جزموا بهذا القول؛ لقوة ثقتهم بفضل الله تعالى [1].

وبعد ذلك تحدثت الآيات عن الكرامات التي حصلت معهم في الكهف، من دخول الشمس بشكل دقيق، بحيث تنفعهم ولا تؤذيهم، ومن تقليبهم في نومهم يمنة ويسرة؛ للمحافظة على أجسادهم، وإلقاء الهيبة عليهم، بحيث أن الذي يراهم يخاف منهم، وبعد ثلاثمئة وتسع سنين، يبعثهم الله تعالى من نومهم، وقد تغير المَلِك والناس والبلد إلى أناس آخرين، وعرف الناس مكانهم، وعُرفت قصتهم، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى، كما قال - عز وجل- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ ﴿٢١﴾ ﴾ [2]، وهذه هي قصة الشبّان الذين أخلصوا دينهم لله، وحافظوا على دينهم رغم العيش الرغيد في بيوت آبائهم، ووجود الشهوات، والفتن والشبهات، إلا أنهم قَدّموا التضحيات؛ لينالوا بها أعلى الدرجات، وينَجَوْا من أسوأ الدركات، فيكونوا لِمَن بعدهم قدوة، يحتذي بها شباب الأمم من بعدهم ومن ضمنهم شباب أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

استنباط الهمّ الدعوي:

يتبين الهمّ الدعوي في قصة أصحاب الكهف فيما يأتي:-

١- إنّ التعبير بلفظ " قاموا" يصوّر مشهد الحركة في سبيل الدعوة، وذلك القيام والانطلاق جاء ترجمة عملية للهمّ.

٢- إنّ التعبير بلفظ " فقالوا" دليل على جهرهم بالقول أمام المَلِك أو النّاس، وهذا يُصوّر الدافع الدعوي الذي انطلقت منه العبارات.

٣- إنّ نسبتهم لقومهم (هَؤُلاء قَوْمُنَا)، فلم يتخلوا عنهم، وذلك لحرصهم على دعوتهم على الرغم من أذيتهم لهم.

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٠، ص ٣٦٥. انظر: الألوسي، **روح المعاني**، ج ٨، ص٢١١.

٢- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٢١).

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي عند الغلام في قصة أصحاب الأخدود.

ذكر المولى - عز وجل - في كتابه الكريم قصة أُناس آمنوا بالله - تبارك وتعالى- وأسلموا له، والعجيب أن هؤلاء القوم أسلموا بسبب غلام صغير، جاءت قصته في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كما سيأتي، وكان القوم يحكمهم مَلِكٌ ظالم كافر جاحد، فأمر بحفر الأخاديد في الأرض وإلقاء الناس فيها.

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾[1] .

يقسم الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بالسماء ذات البروج، أي: ذات النجوم، أو ذات المنازل التي تشرق فيها الشمس وتغرب، ويقسم الله تعالى باليوم الموعود والشاهد والمشهود، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - "اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه"[2]، ومن الأقوال في الآية: الشاهد : محمد - صلى الله عليه وسلم - ، يقول الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ ﴾[3]، والمشهود: يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ ﴾[4] .[5]

أقسم الله تعالى بهذه الأمور العِظام على إهلاك أصحاب الأخدود وتعذيبهم ولعنهم؛ بما فعلوا بالمؤمنين من الإحراق والتعذيب، والخد: الشقوق والحفر في الأرض[6]، (وهم) أي: القاتلون، شاهدون على ما فعلوا بالمؤمنين، والشهود على معنين: إما أن أولئك الجبابرة كانوا حاضرين عند ذلك العمل، يشاهدون هذا الموقف العظيم، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وإما أن المقصود: الإدلاء بالشهادة، أي: يؤدون شهادتهم يوم

١- سورة البروج، ج ٣٠، الآيات (١- ١١).
٢- الترمذي، **سنن الترمذي** ، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة البروج، حديث (٣٣٣٩)، ج ٥، ص ٤٣٦، قال الترمذي: حديث حسن غريب، تعليق الألباني: حسن، **السلسلة الصحيحة**، ج ٤، ص ٧٦.
٣- سورة النساء، ج ٥، آية (٤١).
٤- سورة هود، ج ١٢، آية (١٠٣).
٥- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٨، ص ٣٦٣- ٣٦٥.
٦- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ١٠٩.

القيامة، قال تعالى: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) [1]، وكان سبب إحراقهم؛ أنهم آمنوا بالله العزيز: الذي لا يُذَلُ أولياؤه، الحميد: الذي يثيب الصابرين ويعاقب المجرمين، الذي له مُلك السموات والأرض، المتصرف فيهنّ بما يشاء، وكيف ما يشاء، (والله على كل شيء شهيد)، وفيه دلالة على شدة وعيد هؤلاء القتلة، والجزاء العظيم ، في جنات النعيم، للمؤمنين الصابرين [2].

ولقد ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه القصة بتفاصيلها ودقائقها، فعَنْ صُهَيْبٍ الرُّومي - رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ:

" كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أي بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّى، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ ، وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِىَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شفيتني، فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِى أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، قَالَ رَبِّى، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي، قَالَ: رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ، فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أي بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ و تفعل، فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِى أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

١- سورة يس، ج ٢٣، آية (٢٤)

٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٣١، ص ١١١.

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِم اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: (بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ)، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: (بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ)، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِى صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَه: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[1].

شرح كلمات الحديث:

١- الساحر: الرجل المخادع، الذي عنده فن في تمويه الكذب[2].

٢- الغلام: الشاب الصغير[3]

٣- الراهب: العالم في الدين، والظاهر أن هذا الراهب كان على الدين الصحيح الذي أتى به سيدنا عيسى - عليه السلام -، المنقطع عن الخلق المتوجه إلى الحق[4].

٤- حبسني أهلي: منعني أهلي[5].

٥- الأكمه: مَن وُلِدَ أعمى[6].

١- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب (الزهد والرقائق)، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، حديث (٧٧٠٣)، ج ٨، ص ٢٢٩.
٢- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ١٠٦.
٣- **المرجع السابق**، ج ٤، ص ٣١٢.
٤- انظر: المناوي، **التوقيف على مهمات التعاريف** ، ص ٣٥٣.
٥- **المرجع السابق**، ص ٢٦٦.
٦- **المرجع السابق**، ص ٨٦.

٦- البرص: مرض يصيب الجلد، بحيث يتغير لون الجلد إلى البياض [١].

٧- فوضع المنشار في مفرق رأسه: وضعوا الآلة التي تقطع الخشب على وسط رأسه حتى قَطَعُوه نصفين [٢].

٨- بلغتم ذروته: وصلتم أعلاه - القمة - [٣].

٩- اللهم أكفنيهم بما شئت: دعاء بأن ينجيه منهم بأي شيء شاء [٤].

١٠- قرقور: السفينة العظيمة [٥].

١١- انكفأت: انقلبت [٦].

١٢- الصعيد: الأرض البارزة [٧].

١٣- كنانتي: الجعبة التي يوضع فيها السهام [٨].

١٤- كبد القوس: "فُوَيْق مَقْبِضِها حيث يقع السهم يقال: ضع السهم على كبد القوس وهي ما بين طرَفي مقبضها ومَجْرى السهم منها"[٩].

١٥ - الصدغ: المكان الذي بين العين والأذن [١٠].

١٦- أفواه السكك: الطرق [١١].

١٧- أضرم: أوقد النار [١٢].

١٨- فتقاعست: فتوقفت [١٣].

١- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٧، ص ٥.
٢- **المرجع السابق**، ج ٤، ص ٢٠.
٣- انظر: البنكوي، محمد إلياس الباره، **شرح رياض الصالحين** ، دار الأشراف - دار نهضة مصر، ط ١- ٢٠١١ م، ص ٥٧.
٤- **المرجع السابق**، ص ٥٧.
٥- انظر: ابن منظور، **لسلن العرب**، ج ٥، ص ٨٢.
٦- النووي، يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، (ت ٦٧٦ هـ)، **رياض الصالحين** ، دار المنهاج - جدة، ط ١ - ٢٠٠٦م، ص ٥٤.
٧- **المرجع السابق**، ص ٥٤.
٨- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٣، ص ٣٦٠.
٩- **المرجع السابق**، ج ٣، ص ٣٧٤.
١٠- البنكوي، **شرح رياض الصالحين** ، ص ٥٨.
١١- **المرجع السابق**، ص ٥٨.
١٢- النووي، **رياض الصالحين**، ص ٥٤.
١٣- **المرجع السابق**، ص ٥٤.

استنباط الهمّ الدعوي:

يظهر الهمَ الدعوي في قصة أصحاب الأخدود فيما يأتي:-

١- إنّ دعوة الغلام للوزير وتصحيح مفهوم الشفاء على الرغم من المغريات التي أمامه، نابع من الهمَ الذي يحمله الغلام.

٢- إنّ التحدي المتكرر الذي برز من الغلام أمام الملك، من محاولة إسقاطه من أعلى الجبل وثمّ بعد محاولة إغراقه في البحر، وعلى الرغم من نجاته في كلّ مرّة إلا إنّه كان يرجع متحديا للملك، ومُصرّا على دعوته، وثابتا عليها لا يخشى الموت ، صابرا محتسبا، وذلك لقوة ايمانه وهمّه الدعوي.

٣- التخطيط المُحكم من الغلام حيث طلب من المَلِك أن يجمع النّاس في صعيد واحد، وصلبه على الجذع، وإعطاء الأوامر للمَلِك أن يقول عند ضرب السهم (بسم الله رب الغلام)، دليل على همّ الغلام وحرصه على ايمان الناس.

المبحث الثالث

الهمّ الدعوي عند الملوك.

وفيه مطلب واحد: الهمّ الدعوي عند ذي القرنين.

المبحث الثالث: الهمّ الدعوي عند الملوك.

شرع الله الحكيم، وسنّ رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - طاعة الأمراء، والخلفاء، والوُلاة الراشدين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [1]، وأولوا الأمر: هم الأمراء، وأصحاب السرايا، وأيضا هم الفقهاء والعلماء [2]، ولأجل هذه الطاعة أوجب الله على أولي الأمر حُسن الرعاية والتدبير لرعيتهم، فلقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالأَمِيرُ الَّذِى عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِىَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" [3] ، والراعي: الوالي، يقال: رعَيْتُ الشَّيءَ: رقَبتُه ولاحَظْتَه [4].

وإن غش هذا الحاكم أو خدع رعيته، فلم يهتم بصلاح أمر دينهم ودنياهم، فقد حرّم الله عليه الجنة، قال رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[5]، وإن كان الحاكم آمرا بمعصية، فلا طاعة له، ويجب الإنكار عليه فعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِي - صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ :"عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلاَّ أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ"[6].وقد كان الصالحون من قبلُ إذا رأوا في الحاكم منكرا، لم يسكتوا ولم يرضوا، بل ينكروا ويَرُدوا، فعن طَارِق بْنِ شِهَابٍ[7]- رضي

١- سورة النساء، ج ٥، اية (٥٩).
٢- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ٨، ص ٤٩٨ - ٥٠٠.
٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ، حديث (٤٨٢٨)، ج ٦، ص ٧.
٤- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٢، ص ٣٣٦.
٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ، حديث (٤٨٣٤)، ج ٦، ص ٩.
٦- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، حديث (٤٨٦٩)، ج ٦، ص ١٥.
٧- هو طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سلمة الأَحْمَسِيُّ ،البَجَلِيُّ، الكُوْفِيُّ، رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - وغزا في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - عدة غزوات، وروى عن كثير من الصحابة، وكان يُعد من العلماء، توفي سنة (٨٣هـ). انظر: الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد،(ت ٧٤٨هـ)، **سيَر أعلام النبلاء**، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٣ - ١٤٠٥ هـ، ج٣، ص ٤٨٦.

الله تعالى عنه- قَالَ:(أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ مَرْوَانُ[1]، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: الصَّلاَةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ، فَقَالَ: أَبُو سَعِيدٍ أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ:" مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ")[2].

ولأن الحاكم إذا صلح صلحت الرعية كلها، وإذا فسد فسدت الرعية جميعها، جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم -، كلمة الحق وردَّ جَوْر الحاكم من أفضل الجهاد، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"[3]، فالرعية تستقيم باستقامة الحاكم، وإذا طغى الحاكم ازدادت نسبة الآثام والسيئات في الناس، ألم يقل الله تعالى عن قوم فرعون - لعنه الله -:

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ ﴾[4].

فالواجب على الحكام والولاة أن يقيموا شرع الله تعالى، وأن يقيموا رعيتهم على صلاح دينهم ودنياهم، وأن يوفّروا لهم الحاجات؛ ويعينوهم على طاعتهم وإقامة الواجبات، وإلا تَعُم الفتن.

ولقد بيَّنَ القرآن العظيم قصة مَلِك نشر الدين في مشارق الأرض ومغاربها، وأقام مملكته على الصلاح والشرع والدين، وفَهِمَ مقصد المُلك والجاه، فكان له التمكين والطاعة ليس في منطقة واحدة فحسب، وإنما خضع لأمره كل أقطار الأرض، ألا إنه ذو القرنين.

١- هو مروان بن الحكم بن أبي العاص، الأموي ، القرشي، أبو عبد الملك بن مروان، ولد بمكة، كان كاتب ابن عمه عثمان بن عفان، (ويروى أنه خان عثمان، وهو الذي قتل طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - في معركة يوم الجمل، وتوفي) سنة (٦٥ هـ)، على يد زوجته. انظر: الذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ج٣، ص ٤٧٦.

٢- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث (١٨٦)، ج ١، ص ٥٠.

٣- الترمذي، **سنن الترمذي** ، كتاب: الفتن، باب: ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، حديث (٢١٧٤)، ج ٤، ص ٤٧١، قال الترمذي: حديث حسن غريب، تعليق الألباني: (صحيح)، صحيح وضعيف الجامع الصغير، ج ١، ص ٣٩٨.

٤- سورة الزخرف، ج ٢٥، الآيات (٥٤- ٥٥).

المطلب: الهمّ الدعوي عند ذي القرنين.

هذه القصة المباركة تمثل إحدى الركائز الأربع التي تكلمت عنها سورة الكهف، كما تم بيانه في مطلب سابق [١]، وهي قصة السلطان العادل الذي مشى في مشارق الأرض ومغاربها في نشر الإيمان بالله تعالى، وقمع الظلم والظالمين.

وجاءت هذه القصة في ظل سؤال كفار قريش للنبي - صلى الله عليه وسلم - عن ثلاث اسئلة - بعد إغراءٍ من اليهود لاختبار صدق رسالته - صلى الله عليه وسلم - وكانت هذه الاسئلة: عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فجاء جبريل - عليه السلام - وأخبره - صلى الله عليه وسلم - بالخبر[٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾[٣].
بدأت القصة بـِ(ويسألونك)؛ لأنها نزلت في جواب سؤال كفار قريش، وأذن الله لنبينا - صلى الله عليه وسلم - أن يبين منها ما هو موضع العبرة للناس في شؤون الإصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الناس، فكان اليهود ينفردون بمعرفةٍ إجمالية عن ذي القرنين، وكانت من أسرارهم، فلذلك جربوا بها نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم- ، ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به (ذو القرنين) ولم يتعين اسمه وبلاده وقومه؛ لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص، وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة، فلذلك قال الله: (قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً) أي: ما فيه ذكره؛ للتأسي بخبره وحياته[٤].

وسبب تسميته بذي القرنين، إما لأنه مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها، حيث يَطْلع قرن الشمس ويَغْرُب[٥]، وإما لأنه كان له من شعره ضفيرتان طويلتان[٦]، واُستُدل بحديث أم عطية- رضي الله عنها - عندما غسلت ابنة النبي - صلى الله عليه وسلم - "قَالَتِ : اغْسِلْنَهَا وِتْرًا ثَلاَثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ سَبْعًا، وَقَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ: مَشَطْنَاهَا ثَلاَثَةَ قُرُونٍ"[٧].

١- الفصل الثالث، المبحث الثاني، المطلب الأول، ص ١٩٥.
٢- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٥، ص ٥٩٢.
٣- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٨٣ - ٨٥).
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ١٢١.
٥- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ١٨٩.
٦- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ١٢٢.
٧- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الجنائز، باب: في غسل الميت، حديث (٢٢١٥)، ج ٣، ص ٤٧.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) أي: أعطى الله ذي القرنين ما أعطاه للملوك من أسلحة، وجنود، وآلات، وغير ذلك من أسباب القوة والتمكين؛ لينتصر بها على مَن يقف في وجه العدل والإيمان، (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) أي: سار وسلك الطريق الموصلة حيث يريد [1].

ثم قال تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ﴾ [2].
بعد مسير طويل مع جنوده وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس، ومغرب الشمس في نظر ذي القرنين، وليس حقيقة، فالشمس تدور في فلك معين، والأرض تدور حول نفسها، ونتيجة هذا الدوران يتكون الليل والنهار، فهي تغيب في عين الناظر إليها، كالجالس على شاطئ البحر يرى الشمس تغيب في البحر، والحقيقة خلاف ذلك، كأنه أراد أن يصل إلى أقصى غرب مملكته وسلطانه، فوصل إلى تلك المنطقة التي فيها عين ماء ذات طين أسود [3].

ووجد عند تلك العين قوما، (قلنا يا ذا القرنين) أي: بعد ما مكنه الله تعالى منهم، حكّمه فيهم وخيّره بين التعذيب وبين المنّة والفداء، وإسناد القول إلى الله، يُحتمل أنه قول إلهام، أي: ألقينا في نفسه ترددا بين أن يبادر لاستئصالهم، وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل، وجاء هذا القول ليبين الله عدل ذي القرنين وسداد رأيه، فكان رأيه سديدا، فقال: أما مَن ظلم، وهو الشرك بقرينة (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)، فالظالم ندعوه إلى الله تعالى والإيمان به، فإن أبى عذبناه، وفي الآخرة عند الله عذاب أشد بخلوده في نار جهنم، وأما مَن استجاب وآمن وعمل الصالحات، فله في الاخرة جزاء الجنة، ونحن في الدنيا سنعامله بالقول الهين، وتيسير حاجته [4].

وبعد ما انتهى من إصلاح أولئك القوم انتقل إلى بلاد أخرى، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١ ﴾ [5].

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ١٩١.
٢- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٨٦ -٨٨).
٣- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢١، ص ٤٩٦.
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ١٢٩.
٥- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٨٩- ٩١).

أي: وواصل ذو القرنين مسيره في الأرض حتى بلغ مطلع الشمس، وهي جهة المشرق من سلطانه ومملكته، فقد بلغ جهة بعيدة بحيث لا يُرى عمران بعدها، ووجد من حالهم أنهم ليس عندهم ما يستترون من حر الشمس، ويحتمل أن هؤلاء القوم ليس عندهم شجر أو عمران، ويحتمل أن يكونوا عراة، (كَذَلِكَ) أي: كما فعل ذو القرنين مع أهل المغرب فعل مع أهل المشرق، من تعذيب للكافرين، وإكرامٍ للمؤمنين، وقد أحاط الله تعالى بذي القرنين وجنوده وقوته علما، وهذا دليل على عظمة المعلوم [1].

﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ ﴾ [2].

ثم تابع ذو القرنين مشيه في جيشه وسلطانه، (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) أي: جبلين عظيمين ، جعل ذو القرنين بين هذين الجبلين حاجزا قويا - كما سيأتي-، وعندما وصل إلى ذلك المكان، وجد عندهما قوما (لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً)، وفي قراءة حمزة[3] (لا يُفقِهون قولا)، بمعنى: لا يفهمون كلام أحد، وإذا تكلموا لا يفهم الناس كلامهم، (قالوا) أي: القوم الذين عند السدين، وقد يسأل سائل، كيف قالوا وفَهم ذو القرنين ما يريدون، مع أن الآية أخبرت أنهم لا يستطيعون الفهم والإفهام؟، فالجواب: إما عن طريق مترجم، أو أفهموه بمشقة وصعوبة، كاستخدام الإشارة[4].

(إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) أي: أن القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا شكوا حالهم واستضعافهم من يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان مفسدتان في الأرض، واسمهما مشتق من أجيج النار، " والأجاج: الحارّ المشتعل المتوَهِّج، وهو من تأجّجَت النار " [5]، كناية عن كثرتهم وشدتهم، وعرضوا على ذي القرنين المال مقابل أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حاجزا يحتمون به منهم [6].

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢١، ص ٤٩٧- ٤٩٨.
٢- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٩٢- ٩٨).
٣-انظر: أبا زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، **حجة القراءات**، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص٤٣٢.
٤- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ١٥، ص ٢٠٢.
٥- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ١، ص ٤١.
٦- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ١٥، ص ٢٠٣.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)، رد ذو القرنين عليهم قائلا: لا أريد منكم مالا، فما أعطاني الله خير من هذا المال، بل أريد منكم أن تساعدوني بأيديكم ورجالكم من العمّال والآلات، حتى أجعل بينكم وبينهم سدا كبيرا، وبين لهم خطة العمل: فقال: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)، آتوني زبر الحديد، وهي القطع الضخمة من الحديد، فلما ساوى بين الصدفين : وهما جانبا الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي: يتقابلان، فَأَتَوا بها، فوضع تلك الزبر بعضها على بعض، بحيث صارت تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار، ثم صب النحاس المذاب على الحديد المشتعل، فالتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلبا، والقِطر: النحاس المذاب؛ لأنه يَقْطُر، (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)، أي: إن يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يتسلقوا عليه؛ لارتفاعه وملاسته، وما قدروا على ثقبه؛ لصلابته وقوته [1].

ثم قال لهم ذو القرنين: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)، أي: هذا السد هو من رحمة الله بكم ولِمَن بعدكم، فإذا جاء يوم القيامة ساواه الله بالأرض، ووعد الله متحقق لا شك فيه، وخروج يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة وبعد الدجال[2]، ودليل ذلك، قول النبي - صلى الله عليه وسلم- واصفا مقتل الدجال- : "حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يأتي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ في الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون" [3].

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢١، ص ٤٩٩- ٥٠٠.

٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٥، ص ١٩٩.

٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث (٧٥٦٠)، ج ٨، ص ١٩٧.

استنباط الهمّ الدعوي:

يتجلى الهم الدعوي في قصة ذي القرنين فيما يأتي:-

١- تظهر همة الرجل على قدر همّه، فالناظر في قصة ذي القرنين يرى مستوى الهمّ في صدره، فهذا الهمّ وصل به إلى أقصى الأرض غربا وأقصاها شرقا، ووصلت دعوته إلى كل المعمورة، فنال شرف أن يذكر في كتاب الله تعالى، ويصبح مثالا يحتذى به لكل مَن سمِع به.

٢- كان همّ نشر العدل وقمع الظلم قد سيطر على حياة ذي القرنين، ودليل هذا الهمّ أنه خُيّرَ بين التعذيب والإحسان، فاختار الإحسان ولم يكن هذا التخيير ليكون لولا حقيقة ما يحمل في قلبه من الخير للناس.

٣- جعل الله تعالى لأهل تمكينه صفات ومقاصد، فإن حققوها مُكّنوا وإلا فلا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1]، فمكّن الله لذي القرنين لتحقق هذه الصفات فيه، فلو لم يكن آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ما أعطاه الله تعالى ما أعطاه.

٤- دليل الهمّ الصادق لنشر دينه وقمع الشر، أنه ما رضي أن يأخذ المال عند ما عرضوا عليه الخراج، في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾[2]، وأيضا بَذْلَ قُصار جهده هو وجنوده في بناء الردم العظيم، ولم يدّخر من ذلك جهدا، وهذا دليل صدق همّه وهِمته - فرضي الله عنه وأرضاه-.

٥- نسب الفضل لله ولم ينسبه لنفسه، وذلك عند قوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾[3]، وذلك ليُعَلِقْ قلوب الناس بالله، ولا يتعلقوا به.

١- سورة الحج، ج ١٧، آية (٤١).
٢- سورة الكهف، ج ١٥، الآيات (٩٤- ٩٥).
٣- سورة الكهف، ج ١٥، آية (٩٨).

المبحث الرابع

الهمّ الدعوي عند العلماء.

وفيه مطلب واحد: الهمّ الدعوي عند العلماء في قصة قارون.

تمهيد.

العلماء هم ورثة الأنبياء، ومصابيح الهدى للأتقياء، ومنقذي الناس الأشقياء، من ظلمات الكفر والجهل إلى طريق السعداء.

" تعلم يا فتى والعُود رطب وطيْفُك [1] ليِّنٌ والطَّبع قابل

فإن الجهل واضعُ كل عالٍ وإن العلم رافعُ كل خامل

فحسبك يا فتى شرفا وعزا سكوت الحاضرين وأنت قائل[2].

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " [3]، وحقيقة العالم أن يعمل بما علمه الله تعالى، وإلا سيكون هذا العلم وبالا على صاحبه، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"[4].

فالواجب على العلماء تبيين الحق، وتغيير الواقع، وأن يقفوا في وجه الباطل والمنكرات، ولا يَنْزِلوا تحت رأي الحكام والأمراء الفسقة الفجرة، بل يكونوا هم الأمراء الحكام، وألا يخافوا في الله لومة لائم، وإنما ترتب على العالم الخطأ الجسيم، والإثم العظيم، إذا زاغ وأبعد؛ لأن في اتباعه مفاسد عظيمة، وخسائر جسيمة، وبالمقابل فله الأجر الكبير، والشكر الجزيل، إذا أطاع واتبع؛ لِما في اتباعه من المصالح التي تعم البشرية، فإذا صلح العالِم صلح العَالَم.

وفي ظل تهافت بعض العلماء تحت ما يحب الحكام ويشتهوه، وَجب على هذه الأمة المحمدية، إيجاد العلماء، وصناعة الفقهاء، وتوفير الحفظة والائمة والخطباء، الذين

١- الطَّيف: تطلق على الخيال وسعة الفكر . انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٣٣٨.
٢- الشافعي، **ديوان الشافعي** ، جمع وتحقيق: د. مجاهد بهجت، ص ١١٨.
٣- أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، حديث (٣٦٤٣)، ج ٣ ، ص ٣٥٤، قال الألباني: "حسن"، **مشكاة المصابيح**، حديث (٢١٢)، ج ١، ص ٤٦.
٤- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري** ، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث (٣٢٦٧)، ج ٤، ص ١٤٧.

ينهضون بالأمة ويجددون لها روحها ودينها، وذلك من قبل أن يأتي الزمان الذي ينتزع العلم من الأرض بموت العلماء العاملين الصادقين، فإن الله تعالى لا ينزع العلم من الأرض انتزاعا، وإنما بموت العلماء، كما جاء هذا في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -، يقول - سيد الأولين والآخرين -:" إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا" [1].

وقد ذكر القرآن الكريم فضل أهل العلم، فوصفهم أنهم أكثر الناس خوفا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2]، وأنهم أصحاب الدرجات العُلى في الدنيا والاخرة، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[3]، وقد ذم الله تعالى علماء اليهود والنصارى الذين كانوا يرون ذنوب أقوامهم ولا ينكرونها، فوبّخهم الله قائلا:﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[4]، قال الرازي: " إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه تعالى قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت: (لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)، وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر: (لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ)، والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يُسمى صناعة إذا صار مستقرا راسخا متمكنا، فجعل جُرْمَ العاملين ذنبا غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم باللّه وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية، كان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال، فكما أن هناك يحصل العلم بأن المرض صعب شديد لا يكاد يزول، فكذلك العالم إذا أقدم على المعصية، دلّ على أن مرض القلب في غاية القوة والشدة "[5].

وقد مدح الله العلماء العاملين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهذا ما سيتم بيانه في هذا المبحث في قصة قارون.

١- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، حديث (٦٩٧١)، ج ٨، ص ٦٠.
٢- سورة فاطر، ج ٢٢، آية (٢٨).
٣- سورة المجادلة، ج ٢٨، آية (١١).
٤- سورة المائدة، ج ٦، الآيات (٦٢- ٦٣).
٥- الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ١٢، ص ٣٩٣.

الهمّ الدعوي عند العلماء في قصة قارون.

جعل الله تعالى السعادة في الدنيا والأخرة بطاعته واتباع سبيله، قال تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]، ولم يجعلها في كثرة الأشياء والأموال، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2].فهذا قارون أعطاه الله مالا كثيرا، وجاها عظيما، إلا أنه تكبر وطغى، وأساء وظلم، وانقسم قومه إلى طائفتين، طائفة اغترت بماله وزينته، وطائفة من أُولي العقل والفهم والعلم، لم تغرهم الدنيا وزينتها، بل نصحوا هؤلاء المغترين ووعظوهم، ألا يغتروا بقارون وماله، وأن الاخرة المقصد والغاية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3].

كان قارون ابن عم موسى - عليه السلام - ، أي: من بني إسرائيل، ولكنه (بغى عليهم)، والبغي: الفساد والظلم [4]، وكان بَغْيه على بني إسرائيل بإطالة ثيابه بطرا وكِبرا، والاستخفاف بهم واستحقارهم لكثرة ماله وكنوزه، وظلمه لهم؛ لأن فرعون كان قد استعمله عليهم فظلم وأفسد، ولقد أتاه الله من المال الكثير، لِدرجة أن الجماعة من الرجال الأقوياء لتنوء بهم مفاتيح تلك الصناديق التي كُنِزت بها الأموال، والنَوْء: النهوض بثقل[5]، ثم بيّن الله تعالى نصيحة الوعاظ، الذين ينهون عن منكر الكِبر والظلم، وذلك بعدة نصائح:

النصيحة الأولى: (لا تَفْرَحْ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) أي: لا يصيبك يا قارون كثرة مالك بالبطر والكِبر واحتقار الناس، والفرح: البطر والأَشَر [6]، وعلل قومه له ذلك بقولهم: إن الله المتعالي المتكبر يبغض مَن نازعه في شيء من صفات الجلال التي لا تليق إلا به سبحانه.

١- سورة النحل، ج ١٤، آية (٩٧).
٢- سورة طه، ج ١٦، آية (١٢٤).
٣- سورة القصص، ج ٢٠، الآيات (٧٦- ٧٧).
٤- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة** ، ج ١، ص ٢٥٥.
٥- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١، ص ١٧٤.
٦- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٢، ص ٥٤١.

النصيحة الثانية: (وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) أي: اطلب فيما أعطاك الله من المال والدنيا نعيم الآخرة بدخولك الجنة.

النصيحة الثالثة: (وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا) في الآية قولان [1]:

أحدهما: لا تنس عمرك باغتنامه في العمل الصالح، فنصيب الإنسان في هذه الدنيا هو العمر، وعلة هذا القول، في الموعظة حزم وقوة؛ ليرتدع وينزجر.

ثانيهما: لا تنس حظك من المأكل والمشرب والمنكح والمركب، بعد حق الله والاخرة، وفي هذا رقة في الوعظ تأليفا لقلبه.

النصيحة الرابعة: (وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) أي: لا تُقابل إحسان الله إليك بالإساءة والكفر والبخل والتكبر، بل أحسن في طاعتك لله، وأحسن إلى الناس، فتكون بذ لك قابلت الإحسان بالإحسان.

النصيحة الخامسة: (وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) أي: لا تطلب بمالك الإفساد في الأرض بالمعاصي والذنوب؛ فإن الله تعالى لا يحب الفاسدين في أنفسهم، المفسدين لغيرهم [2].

فرد عليهم الجاحد الكافر: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾ [3].
أي: إنما أعطاني الله هذا المال وهذه الكنوز الكثيرة؛ لأن الله يعلم أني أستحق ذلك، فأنا صاحب فضل عند الله، فرد الله تعالى على ادّعائه وكذبه، (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)، أي: قد كان من قبلك يا قارون مَن هو أكثر منك مالا، وأكثر منك جاها وخدما، فأخذهم الله وعذبهم، فأنت لست بأحسن منهم حتى لا يأتيك العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾ [4]، (وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)، إما لكثرتها، وإما للعلامات المتحققة فيهم كسواد الوجه، والذلة التي تميزهم [5].

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٣، ص ٣١٤.
٢- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٣، ص ٣١٠- ٣١٥.
٣- سورة القصص، ج ٢٠، آية (٧٨).
٤- سورة المائدة، ج ٦، آية (١٨).
٥- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٦، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

ثم قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ ﴾[1].

وبعد ما قَرَعَتْ المواعظ، وزمجرت الزواجر مسامع قارون، عاند قائلا:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[2]، وعاند فعلا: (فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)، وخروجه في زينته من مراكب وملابس، ومال ورجال، فيه إظهار للفخر والكِبر الذي لا يجوز لآدمي على آدمي، فلمّا رأى الناس هذه الزينة اغتر بعض مُريدي الدنيا، فقالوا: (يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، اعتقدوا أن السعادة في حصولهم على ما حصل عليه قارون من مال وفخر وزينة، ودّل هذا على ضعف اليقين على ما عند الله في الجنة، ولكن مريدي الاخرة قاموا فقالوا قولهم الذي أحبه الله، بل وخلّد ذكره في كتابه، (وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) شهِدَ الله لهم أنهم علماء عاملون؛ لأن العلم لا يُمدح إلا إذا اقترن بالعمل، وهم أحبار بني إسرائيل [3].

(وَيْلَكُم)، الويل: كلمة تقال لكل مَن وَقع في هَلَكة، وتقال للتعجب [4].

فالعلماء لم يقولوها للذين يريدون الدنيا من باب الدعاء عليهم، بل تعجبا من مقالتهم وزجرا لهم، (ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ)، أي: جزاء الله تعالى للمؤمنين في الجنة خير من كل ما يملكه قارون والناس أجمعون، فعن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِي - رضي الله عنه - قال: شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى، ثُمَّ قَالَ - صلى الله عليه وسلم- فِي آخِرِ حَدِيثِهِ:" فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾[5] "[6]، وهذا الثواب لِمَن آمن بالله واليوم الآخر، وظهر هذا الإيمان على جوارحه وسلوكه، فعَمِل وأطاع، وخاف واجتنب، مع الصبر على هذه الطاعات، والصبر عن المحرمات؛ لأن طريق الجنة محفوفة بالمشقات والصعوبات، فإذا لم

١- سورة القصص، ج ٢٠، الآيات (٧٩ - ٨٠).
٢- سورة القصص، ج ٢٠، آية (٧٨).
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٣، ص ٣١٧.
٤- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١١، ص ٧٣٧.
٥- سورة السجدة، ج ٢١، الآيات (١٦- ١٧).
٦- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الجنة، وصفة نعيمها،(باب)، حديث (٧٣٠٨)، ج ٨، ص ١٤٢.

يصبر لن يستطيع الوصول، لذلك ختم أهل العلم موعظتهم بقولهم: (ولا يلقاها إلا الصابرون)، حتى يحثوا مَن اغتر بالدنيا، بأنه لا بد من الصبر فيها، وعدم الركون إليها؛ لأنها دار ممر، وأنّ الآخرة دار مقر [1].

وبعد حوار العلماء للناس، ظهرت النتيجة، قال تعالى:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2].
خسف الله تعالى بقارون وداره وماله الأرض، والخسف: غياب الشيء في الأرض[3]، فعَنِ النَّبِي - صلى الله عليه وسلم- قَالَ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "[4].

فخسف الله به الأرض، فما كان له مَن ينصره من عذاب الله من خدم ولا حشم، ولا ناصر له من نفسه، (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) أي: صار الذين رأوه بالأمس القريب في زينته وحشمه، يقولون: (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويوسع ويضيق، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في منعه وعطائه، فعطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، ولقد قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: " إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ ، وَمَنْ لا يُحِبُّ ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلا مَنْ يُحِبُّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَلا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْلَمُ ، أَوْ لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ ، أَو يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ، قَالُوا : وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : غَشْمُهُ ، وَظُلْمُهُ ، وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالا حَرَامًا فَيَتَصَدَّقُ مِنْهُ فَيُقْبَلُ مِنْهُ ، وَلا يُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ ، وَلا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ "[5].

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٠، ص ١١١- ١١٣.
٢- سورة القصص، ج ٢٠، الآيات (٨١- ٨٢).
٣- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٩، ص ٦٧.
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، حديث (٥٥٨٦)، ج ٦، ص ١٤٨.
٥- البغوي، شرح السنة، ج ٨، ص ١٠. تعليق الألباني: ضعيف، **(ضفيف الترغيب والترهيب)**، حديث (١٥١٩)، ج ٢، ص ٨٣.

وكلمة (ويكأنه) على النحو الآتي : (وي) تستخدم للتعجب من شيء حصل [1]، أو تأتي (ويكأنه) بمعنى: (ألم تر)، ثم قالوا: (لولا أن من الله علينا لخسف بنا) أي: لولا لطف الله بنا ورحمته وامتنانه علينا، لخسف بنا كما خسف بقارون؛ لأننا أردنا أن نكون مثله، (ويكأنه لا يفلح الكافرون) يعنون: أنه كان كافرا، ولا يفلح الكافر عند الله، لا في الدنيا، ولا في الآخرة [2].

ثم خُتمت هذه القصة الكريمة، التي فيها من العِبر ما فيها، بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [3].

(تِلْكَ) استخدمت لبيان تعظيم الدار الاخرة وتفخيم شأنها، والمُلاحظ: أنه لم يتعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن تعلق بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما، فمُريد الآخرة لا يريد عُلوا؛ ليتجبر، ولا يريد فسادا؛ ليعصي الله، ولقد ذكرت هذه السورة الكريمة المتعالين المتكبرين، من أمثال فرعون وهامان وقارون، وذكرت مصيرهم ومآلهم، ففرعون إلى الغَرَق، وهامان إلى الحَرْق، وقارون إلى الخسف، (والعاقبة للمتقين)، والعاقبة: الجزاء في آخر الأمر [5]، فعاقبة الكافر النار، وعاقبة المتقي الجنة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۚ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [6]؛ ليعلم القوي أن هناك مَن هو أقوى منه، فلا يطغى ويتجبر، ويعلم المتقي أن جزاء صبره واحتسابه سيلقاه من لدن حكيم خبير [6].

١- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١٥، ص ٤١٨.
٢- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٦، ص (٢٥٦- ٢٥٨).
٣- سورة القصص، ج ٢٠، آية (٨٣).
٤- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١، ص ٦١١.
٥ انظر: الزمخشري، **تفسير الكشاف** ، ج ٣، ص ٤٣٥
٦-- سورة الرعد، ج ١٣، آية (٣٥). .

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إنّ ردّ أهل العلم على اغترار النّاس بقارون (يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون) وتصحيح المفاهيم لديهم، يدل على همّهم للدعوة.

٢- إنّ استخدامهم أسلوب التعجب بقولهم (وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ) بيان أنّ ما عند الله أفضل، حتى لا يَنْخدِعوا بما عند قارون، فهذا الحرص برهان على همّهم.

٣- كذلك ترغيبهم فيما عند الله (ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً)، وتوظيف ذلك بغرض تثبيتهم على الإيمان.

٤- إنّ جهر العلماء بالنصيحة للنّاس على الرغم ممّا قد يلاحقهم من أذى قارون وفساده، يرجع إلى همّ خالج صدورهم، واستعدادهم للتضحية من أجله صابرين محتسبين في سبيل الدعوة والإصلاح.

المبحث الخامس

الهمّ الدعوي عند الوالِدَين

وفيه مطلبان:

١- الهمّ الدعوي عند لقمان الحكيم.

٢- الهمّ الدعوي عند الوالدين في سورة الأحقاف .

المطلب الأول: الهمّ الدعوي عند الوالدين.

تمهيد.

الوالدان وصية الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1]، ووصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ "[2]، فبر الوالدين من أعظم أعمال الدين وأفضلها.
وبر الوالدين أساسه بر الأبناء، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" عِفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبَرّوا آباءكم تبركم أبناؤكم"[3]، فكما أن على الابن واجب البر لأبويه، فكذلك الأبناء لهم حق التربية والاهتمام في أمور دنياهم وأُخراهم، وقد أسست الشريعة الإسلامية لبر الأبناء منذ التفكير في أمر الزواج، فأوصت بتزويج الشاب صاحب الخُلُق، وأوصت باختيار الزوجة صاحبة الدين، بل أوصت الشريعة بالاهتمام بالأبناء قبل أن يَتَخَلَّقُوا وفي أخص لحظة بين الزوجين - عند الجماع-، فعن النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ :" لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[4]، وهذا ليس من أجل الزوجين وحسب، وإنما لأجل الذرية التي ربما يرزقان بها، وفي هذا حفظ لهذه الذرية من الشيطان.

إذن: فالأبناء هم خلفاء المستقبل، فيجب على الوالدين أن يكونا القدوة الحسنة لأبنائهم، فأخلاق الأب والأم هي امتداد طوال حياة أولادهم، والأولاد أمانة وليسوا مِلكا للوالدين، يفعلان بهم ما شاءا.

ولهذه المعاني السامية الراقية، جاءت بعض قصص القرآن تُعَمِق هذه المعاني في نفوس الآباء والأمهات، وفي هذا المبحث سيتم عرض هذه النماذج القرآنية التي جعل الله فيها العِبرة والعظة، منها وصايا لقمان الحكيم لابنه.

١- سورة العنكبوت، ج ٢٠، آية (٨).
٢- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: بر الوالدين، حديث (٦٦٦٤)، ج ٨، ص ٢.
٣- الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب: البر والصلة، حديث (٧٢٥٨)، ج ٤، ص ١٧٠. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، تعليق الذهبي في **التلخيص** : بل سويد، ضعيف.
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، حديث (٣٦٠٦)، ج ٤، ص ١٥٥.

المطلب الأول: الهمّ الدعوي عند لقمان الحكيم.

هو لقمان بن عنقاء بن سرون، كان قاضيا في بني إسرائيل، وكان على زمن النبي داود - عليه السلام -، وهو رجل آتاه الله الحكمة، ومدحه الله تعالى في كتابه الكريم لهذه الصفة، بل وسُمّيت السورة باسمه(سورة لقمان)؛ لحب الله تعالى لهذا الرجل الحكيم الذي سُطّرت وصاياه في كتاب الله المجيد [1].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [2].
فضل الله تعالى لقمان بإعطائه الحكمة، والحكمة: "عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيم "[3]، فلقمان كان عنده أفضل العلوم، وهو علمه بالله تعالى وصفاته الكريمة، فوظَّف علمه لأحسن الأعمال وهو الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله، فرأس الحكمة موافقة العمل للعلم، وهذا سبب حب الله تعالى للقمان - رضي الله عنه-، وفسر اللّه إيتاء الحكمة بقوله: (أنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) لأن الشكر من جملة ما يقال: إن العمل موافق للعلم، فالإنسان إذا عَلِم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقا لعلمه، فصار بذلك حكيما، وإن أهمل الأهم كان مخالفا للعلم، ولم يكن ذلك من الحكمة في شيء، فشكر اللّه أهم مقتضيات الحكمة، ثم إن اللّه تعالى بَيَّن أن الشكر لا يَنْتِفعُ به إلا الشاكر وذلك بقوله: (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)، وبَيَّن أن كفر النعمة لا يتضرر به غير الكافر بقوله: (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)، وسواء شَكَرَهُ الناس أو كفروا، فالله لا ينفعه شُكر شاكر، ولا يضره كُفْر كافر؛ (فَإِنَ اللَّهَ غَنِيٌّ) في نفسه، (حَمِيدٌ) بصفاته، سواء شُكِر أو كُفِر [4].

ثم بدأ التفصيل بهذه الحِكم والوصايا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ [5].

عَظّمَ الله تعالى لقمان بإتيانه الحكمة وشكرها، ومدحه لتأديبه ابنه وموعظته، فأصبح بالشكر كاملا في نفسه، وبالوعظ مُكَملا لغيره، فنال بذلك ما نال من رفعة ومنزلة، وفيه إشارة إلى فضل النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي تحمّل مشقة دعوة

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٤، ص ٥٩.
٢- سورة لقمان، ج ٢١، آية (١٢).
٣- ابن منظور، **لسان العرب** ، ج١٢، ص ١٤٠.
٤- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٥، ص ١١٩.
٥- سورة لقمان، ج ٢١، آية (١٣).

الأباعد والأجانب، فضلا عن دعوته للأبناء والأقارب، وكانت الوصايا والآداب مرتبة على الأهم فالأهم على الترتيب الآتي [1]:

الوصية الأولى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾[2].

أول ما بدأ لقمان موعظته بدأها بالتوحيد؛ لأن أساس قبول أي عمل هو الإيمان الصحيح، وموافقة هذا العمل للشريعة، فلا ينفع العبد أي عمل وأدب وخُلُق إن كان اعتقاده مغلوطا ، وقول جمهور المفسرين على أن ابن لقمان كان مشركا، فما زال لقمان يعظه حتى آمن، وبدأ لقمان موعظته بالنداء؛ لاستحضار الذهن لِيَعي الكلام، وبدأ بكلمة (بُني)؛ للتحبب وتأليفا لقلبه، وجَعْلُ الشريك لله تعالى فيما يخصه سبحانه من الألوهية والربوبية ظلم في حق الله، فمن مقتضيات الإيمان بالله تعالى تنزيهه تعالى عن كل ما لا يليق به من الشريك وغيره، فكيف يستوي الأمر إذا كان مع الله إله آخر، كما قال تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ ﴾[3]، والشرك ظلمٌ للمرء نفسه؛ لأنه يضع العبودية لله تعالى في أخس الجمادات، وهو أيضا ظلمٌ لحقائق الأمور؛ وذلك بقلبها لأكاذيب باطلة فاسدة، ولهذا وصف الله الشرك أنه ظلم عظيم [4].

الوصية الثانية:﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ ﴾[5].

لمّا منع لقمان ابنه من عبادة غير الله، بَيّنَ أنها غير ممتنعة في الصورة لا على الحقيقة، بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور، مثل خدمة الأبوين، ثم بَيَّن السبب فقال : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ) يعني: أنعم الله على العبيد بنعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء بالرزق، وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها ذلك حقيقة، فإن الحمل به يظهر الوجود، وبالرضاع يحصل البقاء، فقال: (حملته أمه)، أي: صارت بقدرة الله سبب وجوده، (وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ)، أي: صارت بقدرته أيضا سبب بقائه، فإذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة، فإن

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٥، ص ١١٩.
٢- سورة لقمان، ج ٢٢، آية (١٣).
٣- سورة الأنبياء، ج ١٦، آية (٢٢).
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢١، ص ١٠٠- ١٠١.
٥- سورة لقمان، ج ٢٢، الآيات (١٤ -١٥).

الخدمة لها صورة العبادة، وفي الأب ما وُجد في الأم، فإن الأب حمله في صلبه سنين، وربَّاه بكسبه سنين، فهو أبلغ [١].

ووصف الله حال الأم عند الحمل، فإنها تحمله في ضعف عندما يكون في بطنها، فبدايته نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، وهو في هذا الضعف يُضْعِفُ أمه في الأخذ من دمها وغذائها، ثم تفطمه عن الرضاعة بعد عامين، قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[٢]، فالحمل والرضاعة وتَحَمُّل مشاق ذلك، هو السبب في أن الله قَرَنَ شكره بشكر الوالدين، كأن الذي لا يشكر والديه ويُحسن إليهما لم يشكر الله، حتى لو كان مصليا صائما حاجا، ثم أكد قضية مهمة، وهي خطورة الوقوع في الشرك، فحتى مَن وصّى الله تعالى بشكرهما والإحسان إليهما، فلا يجوز طاعتهما في الشرك حتى وإن ألحّا وأصرّا على ذلك، ومع هذا فعلى الابن معاشرتهما بالإحسان والمعروف، وطيب الكلام، حتى يرجع الكل لله تعالى وهناك يلقى كل إنسان جزاء أعماله [٣].

الوصية الثالثة: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾[٤].

أي: ما تكون من مظلمة أو ذنب حتى وإن كان مقداره مثقال حبة من خردل، وتكن في صخرة، دلالة على الحُجُب المانعة، أو في السموات، دلالة على البُعد، أو في الأرض، دلالة على الظلمات، يأتِ الله تعالى بهذه المظلمة، أو بهذه الخطيئة؛ ليُحاسب كل امرئ على فعله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[٥]، فالله عليم بخفايا الخلق، خبير بما يعملون، وفيه تعليم لقمان ابنه معنى المراقبة والخوف من الله [٦].

الوصية الرابعة: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[٧].

ثم أوصى لقمان ابنه بعد أصول الاعتقاد، بأصول الأعمال، وأولها الصلاة، وهي العبادة التي يظهر فيها معنى التوحيد، والخضوع والخشوع، ولا تسقط عنه إلا أن يذهب عقله، فحتى لو كان مريضا، أو فاقدا للماء، أو غير ذلك من الأعذار، لا بد له

١- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٥، ص ١٢٠.
٢- سورة البقرة، ج ٢، آية (٢٣٣).
٣- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢١، ص ١٠٣.
٤- سورة لقمان، ج ٢٢، آية (١٦).
٥- سورة النجم، ج ٢٦، الآيات (٣٩- ٤١).
٦- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٢٥، ص ١٢٠- ١٢١.
٧- سورة لقمان، ج ٢٢، آية (١٧).

من الصلاة، وإقام الصلاة يكون بأدائها في وقتها المشروع، وبالمحافظة عليها في جميع الأحوال والظروف، والإتيان بجميع شروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، واجتناب جميع المحظورات والمكروهات، وبعد تكميل نفسه بإقامة الصلاة، أوصاه بتكميل غيره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه عمل الأنبياء، ومنهج العلماء، وسبيل الدُّعاة، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه التعب والمشاق، ويكون فيه من الإيذاء وسماع السخرية والاستهزاء ما فيه، لذلك فقد أوصاه بالصبر عليه، وتَحَمُّل هذه المشاق من أجل الله تعالى، فإن ذلك دال على قوة الإرادة، وشدة الإقبال على حب الله تعالى، وتحبيب الخلق بخالقهم [١].

الوصية الخامسة: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [٢].

وبعد وعظه - رضي الله عنه - في أصول الاعتقاد والعبادات، زين ذلك بأحسن الأخلاق وأجمل المعاملات، فنهاه أن يُصَعِر خده للنّاس، والصُعار: مرض يصيب عنق البعير فتُلوى وتُمال [٣]، والمعنى: لا تمل وجهك عن الناس إعجابا بنفسك، واحتقارا لغيرك، والصغار فيه معنى التدابر الذي نهى عنه النبي - صلى الله عليه وسلم- في الحديث: " لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"[٤]، لأن مَن أعرض عن أخيه فإنه يعطيه ظهره ويميل بنفسه عنه، وهذا متحقق في الذي يُصَعِر خده، ثم نهى لقمان ابنه عن المشي مرحا، أي: لا تمش بين الناس متبخترا مختالا، محتقرا غيرك؛ لأن الله الكبير المتعالي لا يحب ولا يرضى عن المختالين المتكبرين، أصحاب الفخر والاعتزاز بأشياء الدنيا من المال والجاه والسلطة، الذين لا يرون مَن تحتهم [٥].

الوصية السادسة: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [٦].

من حكمة لقمان - رضي الله عنه - أنه بيَّن لابنه الخطأ ثم بيَّن له الصواب، فنهاه عن المشي متبخترا، وأمره أن يمشي قصدا، والقصد في المشي: هو التوسط بين البطء المتماوت، والإسراع المفرط، فيمشي بقوة وعزيمة، مع السكينة والوقار، كما

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٦، ص ٣٣٨ .
٢- سورة لقمان، ج ٢٢، آية (١٨).
٣- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ٤، ص ٤٥٦.
٤- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب: البر والصلة، باب: النهي عن التناجش والتباغض والتدابر، حديث (٦٦٩٠)، ج ٨، ص ٨.
٥- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٤، ص ٧٠.
٦- سورة لقمان، ج ٢٢، آية (١٩).

وصف الله تعالى عباده، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[1]، والهَوْن: الرفق والسكينة، وسهولة المعاملة [2]، وفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القدوة الحسنة، في المِشية المعتدلة، فعن أنس - رضي الله عنه - قال: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ وَلاَ مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلاَ حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- وَلاَ شَمَمْتُ مِسْكَةً وَلاَ عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-."[3]، والتَّكَفُّؤُ: الميل إلى قدّام كما تجري السفينة في البحر[4]، ثم قال: (واغضض من صوتك)، أي: اخفض من صوتك، ولا ترفعه عن الحاجة المطلوبة؛ لأن الصوت المرتفع قبيح ومؤذي، لذلك شبه الله تعالى قبح الصوت المرتفع بصوت الحمار؛ لعلوه وقبحه، فعن النَّبِي - صلى الله عليه وسلم- قَالَ:" إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا "[5]، فالقصد في المشي، وحسن السمت، وخفض الصوت من أخلاق الأنبياء والصالحين [6].

فهذه وصايا وآداب لقمان الحكيم، ذكرها الله العليم الحكيم، في كتابه الكريم العظيم؛ لتكون سلوكا للمُريدين، وسبيلا للصالحين، وتربية للبنات والبنين.

١- سورة الفرقان، ج ١٩، آية (٦٣).

٢- انظر: ابن منظور، **لسان العرب** ، ج ١٣، ص ٤٣٨.

٣- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الفضائل، باب: طيب رائحة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولين مسه والتبرك بمسحه، حديث (٦٢٠٠)، ج ٧، ص ٨١.

٤- انظر: الزبيدي، **تاج العروس** ، ج ١، ض ٤٠١.

٥- أخرجه مسلم، **صحيح مسلم** ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الدعاء عند صياح الديك، حديث (٧٠٩٦)، ج ٨، ص ٨٥.

٦- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٤، ص ٧١ - ٧٢.

استنباط الهمّ الدعوي:

يظهر الهمّ الدعوي في نصائح لقمان الحكيم فيما يأتي:

١- وظّف لقمان أسلوب النداء في أكثر من موطن، وكذلك وظّف أسلوب التصغير بقوله " يا بُني" كلّ ذلك بغرض التودد والتحبب واستجلاب العاطفة التي من شأنها أن تستميل قلب ابنه، وهذا دليل بيّن على الهمّ الدعوي الذي يحمله لقمان.

٢- تنوّع الأساليب في خطابه مع ابنه، حيث وظّف أسلوب النداء، والنهي، والأمر، والشرط، والتعليل، كلّ ذلك في سبيل دعوة ابنه وحرصه على هدايته.

٣- التدرج في اختيار الموعظة بداية في نفي الشرك، ثمّ أصول العبادات، ومن ثَمَّ المعاملات والأخلاق، وهذا تَفَنُّن في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، النابع من الهمّ الصادق.

٤- تعظيم الله في قلب ابنه، (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، وبحصول تعظيم الله في القلب، فإنّه سيظهر على جوارح ابنه، فتعظيم الله هو الهمّ الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم من الدعاة، فابتداء الكلام في عظمة الله تعالى وتفصيله، يدل على أعلى مراتب الفهم للهمّ الدعوي.

٥- أمر لقمان ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من ثمرات الهمّ الدعوي عند الداعي تكوين همّ دعوي آخر في قلوب الناس، حتى يصبح همّ الدين ونشره كائن في قلوب الناس.

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي عند الوالدين .

أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة الوالدين، وجعل فيهما من مشاعر الحب والمودة والحنان لأولادهما ما الله به عليم، فهما يحبان لهم دوام الخير والرُقي في الحياة، فعندهما الحرص والاهتمام، والنصيحة والحث على الإقدام، والدعاء لياليَ وأياما، فما من خيرٍ إلا دلّوا عليه، وما من شر إلا حذروا منه، لذلك أوصى الله تعالى ببرهما والإحسان إليهما، ونهى عن عقوقهما والإساءة لهما، حتى ولو بكلمة (أُف)، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

ولأهمية هذا الحرص عند الوالدين في إرادة الخير لأولادهما، ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، دعوة والدَين مشفقَيْن لإسلام ابنهما، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[2].

إن الآية لم تذكر اسم الشخص الذي قال لوالديه كلمة الكفر والعقوق، ذلك لأن هذه الآية تَعُم في مدلولها على مَن فعلوا كفعله، فالعبرة: (بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[3]، فالآية تدل على أن والِديّ هذا العاق تكلما معه عن الإيمان بالله تعالى، وعن اليوم الآخر، وأنه سيُبعث من قبره بعد موته، عندما يأمر الله الأرض أن تُخْرِج أثقالها، وأن كل امرئ سيُحاسب على عمله، إما إلى جنة، وإما إلى نار، والآية تحدثت عن الأب والأم المؤمنين، وعن رحمتهما وشفقتهما بابنهما، وذلك بنصحه وإرشاده وتوجيهه، قال الله - واصفا حالهما- :(وهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)، أي: يدعوان الله ويتضرعان؛ ليَهدِيَ ابنهما، وجملة (ويلك آمن) تعني: الحث والتحريض على الإيمان، فإن وعد الله حق في البعث والنشور، والحساب والعقاب، وإدخال الناس الجنة أو النار، فآمن بالله ولا تكن مع الكافرين [4].

فكان جوابه: (أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي)، أي: قال - كارها لقول أبويه مضّجرا منهما- (أُف)، هل من المعقول أن أُبعث وأُخرج من قبري بعد أن تصبح عظامي بالية، وإذا كان كلامكما صحيحا، فأين الأمم التي قد مضت من قبل، وهذا من سوء فهمه لمعنى البعث؛ لأن البعث لم يُوَقَّت بزمن

١- سورة الإسراء، ج ١٥، الآيات (٢٣- ٢٤).
٢- سورة الأحقاف، ج ٢٦، آية (١٧).
٣- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت ١٢٥٠هـ)، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول** ، تحقيق : الشيخ أحمد عزو عناية ، دار الكتاب العربي، ط ١- ١٤١٩هـ، ج ١، ص ٣٣٢.
٤- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٦، ص ٣٣.

معين، ثم قال (مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)، أي: ما هذا الذي تقولانه من البعث والحساب، إلا كذب وافتراء لا يمكن تصديقه، كالخرافات والُتَّرهات [1].

ثم قال الله تعالى - مخبرا عن مصير هؤلاء - : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ ﴾ [2].
(أولئك): دالة على أن الآية عامة في كل مَن اتصف بتلك الصفات، (حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي: وجب عليهم العذاب، وهو حكم الله: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، وهؤلاء الكفرة الذين رفضوا دعوة آبائهم وأمهاتهم، مصيرهم مع الأمم التي مضت من كفرة الجن والإنس، فهؤلاء كلهم خسروا الدنيا بعدم تحصيلهم على مذاق الإيمان، وفي الاخرة خسروا جنة الرضوان [3].

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إنّ التعبير بلفظ " وهما يستغيثان الله" ترسم حال الوالِدَين وهما يدعوان الله- عز وجل- ويتضرعان، وربما أعقب ذلك بكاء ودموع انسكبت من عيونهما، ذلك التعبير يتغلغل إلى مشاعرهم الجياشة وهمّهم الدعوي في صلاح ابنهم.

٢- إن قولهما (ويلك آمن) هو حث وتحريض وترغيب على الإيمان بالله، وبيان أنّ وعد الله حقّ، وذلك نابع من حرصهما على إيمانه، وهمّهم على دعوته.

٣- تكرار النصح حيث يُستشف من سياق الآيات تكرار الموعظة من قِبل الوالدين، وهذا المعنى ترسمه عبارة الولد ردا على نصح والديه بقوله (أف) والضجر لا يكون إلا بعد تكرار، وهذا التكرار مظهر من مظاهر الحرص عند الوالدين لإيمان ابنهما.

١- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٣٣- ٣٤.
٢- سورة الأحقاف، ج ٢٦، آية (١٨).
٣- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج ١٦، ص ١٩٨.

المبحث السادس

الهمّ الدعوي عند غير البشر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الهمّ الدعوي في قصة النملة مع سليمان.

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي من خلال قصة هدهد سليمان.

المطلب الثالث: الهمّ الدعوي عند الجنّ.

تمهيد.

جاء في كتاب ربنا العليم، من القَصَص ما فيه دليل على أن همّ التحذير من العقاب الشديد، أو هداية إنسان عن الله بعيد، ليس مقتصرا على مؤمن رحيم، أو داعية كبير، بل مُجِّد تحذير نملة في القرآن، وغدت كلماتها آيات من كلام الدّيان، مَن آمن بأقوالها نال رضا الرحمن، ومُجِّد سفر طائر يحمل همّ الإيمان، وقطع الأميال والبلدان، لِيُبَلغَ رسالة سليمان، لعلهم يكونون من أهل الإسلام والإحسان، ومُجِّد كلام جنّ دعوا إلى الله المنان، إذ حضروا حضرة المصطفى العدنان، قالوا: انصتوا، ليَسمعوا قمر الزمان، فلما قضى المجتبى تلاوة القرآن، قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الإيمان، ثم ولّوا إلى قومهم يدعون إلى الجنان، ويحذّرون من النيران.

وذكر الله تعالى أسماء سور لها دلالات عميقة، وإشارات جميلة، تُوحي بالنفع للآخرين، فهذه سورة تُسمى (سورة النّحْل)، وسورة أخرى تُسمى (سورة النّمْل)، وسورة ثالثة اسمها (سورة العاديات)، ورابعة تُدعى (سورة الجنّ)، فَلِم تُمَجّد هذه الأشياء لذاتها، بل لأعمالها، فالنّحْل يعمل بنظام اجتماعي مُنظم؛ ليُخرج شرابا فيه نفعٌ للناس، قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ ﴾[1]، والخيل التي تَعْدو بسرعة، وتَقدَح حوافرها شررا من شدة الركض، وعندها الاستعداد للتضحية بنفسها من أجل صاحبها، طاعة له، من غير تردد حتى لو أيقنت الموت، كانت هذه الصفات سببا أن يُقْسم الله بها [2]، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ ﴾[3].

وفي هذا المبحث بعض من القصص الدعوية عند غير البشر، والتي غدت مثالا مُحَفِزا لكل داع إلى الله تعالى.

١- سورة النحل، ج ١٤، الآيات (٦٨- ٦٩).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب** ، ج ٣٢، ص ٢٥٨.
٣- سورة العاديات، ج ٣٠، الآيات (١- ٦).

المطلب الأول: الهمّ الدعوي في قصة النملة مع سليمان.

كان نبي الله سليمان - عليه السلام - مَلِكا عادلا، وَرِثَ النبوة والمُلك عن أبيه داود - عليه السلام - قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[1]، أي: وراثة النبوة، ليست وراثة المال، فأعطاه الله تعالى من المُلك ما لم يعطِ أحدا من الخلق، فسخر الله له الريح والجنّ تحت إمرته، قال تعالى:﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ ﴾[2]، وعلمه الله لغة الطيور، قال تعالى:﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾[3]، وأخبر الله عن كثرة جنوده، قائلا: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝١٧ ﴾[4]، أي: جمع الله تعالى لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطيور من الأعداد والمعسكرات ما الله به عليم، والوَزع: الذي يُرَتّب صفوف الجيش من تقديم أو تأخير [5]، وهذا دلالة على العظمة والهيبة لسليمان - عليه السلام - ونظام جيشه الجرار [6].

وبينما كان سليمان - عليه السلام - يسير هو وجنوده في مملكته الكبيرة، مرّوا على وادٍ كثير النمل، قال تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ ﴾[7].

أي: حتى إذا وصل سليمان وجنوده إلى واد النمل، وسُمي ذلك الوادي بهذا الاسم؛ لكثرة ما فيه من النمل، فأُطلِق هذا الاسم على ما غلب وجوده في ذلك الوادي، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما- إنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم - : "نهى عن قتل النملة، والنحلة، والصرد [8]، والهدهد"[9]، وهذه نملة سليمان الحريصة على أخواتها من التّحَطم والموت، قدّسها الله تعالى لشرف ما قامت به من نصيحة بني جنسها، وتحذيرها إياهنّ والخوف عليهن، وذلك بعدة كلمات متتابعة، دلت على فرط المخافة والحذر، وبعدة أساليب في غاية الأناقة واللباقة، من أسلوب نداء وتنبيه، وأسلوب إنذار وتخويف، وأسلوب تعميم وتخصيص، وأسلوب أمر وتحذير، قالت:

١- سورة النمل، ج ١٩، آية (١٦).
٢- سورة ص، ج ٢٤، آية (٣٦- ٣٩).
٣- سورة النمل، ج ١٩، آية (١٦).
٤- سورة النمل، ج ١٩، آية (١٧).
٥- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٨، ص ٣٩٠.
٦- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٨٢- ١٨٣.
٧- سورة النمل، ج ١٩، آية (١٨).
٨- الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود . المباركفوري، **عون المعبود**، ج ٩، ص ٢٥٤٩.
٩- ابن ماجه، **سنن ابن ماجه**، كتاب: الصيد، باب: ما يُنهى عن قتله، حديث (٣٢٢٤)، ج ٤، ص ٣٧٧. تعليق الألباني: صحيح، **صحيح ابن ماجة**، حديث (٣٢١٥)، ج ٢، ص ٢١٧.

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)فـ (يا) نادت)، و(أيها) نَبَّهت، و(النمل) شمِلت، و (أدخلوا) أمرت، و (مساكنكم) حدَّدت، و(لا يحطمنكم) حذّرت، و (سليمان) خصصت)، و (جنوده) عممت، و(وهم لا يشعرون) اعتذرت، وجاء الخطاب بالأمر، كخطاب مَن يعقل، لأنها أمرت النمل كأمر مَن يعقل، وصدر من النمل الامتثال لأمرها، ويجوز أن تكون هذه الحكاية بين النملة وسليمان بالمعنى لا باللفظ [1].

فلما سمع سليمان - عليه السلام - قول النملة تبسّم لقولها وقد أخبر الله تعالى عن فعله وقوله:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[2] .

تعجب سليمان - عليه السلام - من قول النملة، لمعرفتها اسمه، وأنها مدحته وجنوده بأنهم لا يقتلون نفسا بغير حق، وهذا الأمر يُدْرَكُ به شرف العدل وعظمته، فتبسم ثم ضحك، وقال رب: ألهمني شكرك على ما أنعمتَ عليَّ من نعمة النبوة والمُلك والعلم بمنطق الطير والحيوان، وعلى والديَّ بالإيمان بك والإسلام لك، و يا رب: إذا جاء أجلي توفني مسلما وألحقني بالصالحين، أي: اجعلني منهم واكتبني في زمرتهم، وهذا من تواضع النبي المَلك سليمان بن داود - عليهما السلام - [3].

استنباط الهمّ الدعوي:

١- وظّفت النملة أسلوب النداء بغرض التنبيه والتحذير وإعلان حالة الطوارئ (يا أيها النمل)، ونداؤها في ظروف الخطر دليل على همّها فلا تفكر بنفسها.

٢- إنّ الخوف والشفقة التي تَحمله تلك النملة، يظهر من خلال تنوع الأساليب وتكثيفها، من أسلوب التعميم والتخصيص، والأمر وغيره.

١- انظر: أبا حيان، **البحر المحيط**، ج ٨، ص ٢٢٠. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٢٤٠.
٢- سورة النمل، ج ١٩، آية (١٩).
٣- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٦، ص ١٥١- ١٥٢، انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٢٤٠.

المطلب الثاني: الهمّ الدعوي من خلال قصة هدهد سليمان.

سليمان - عليه السلام - صاحب أكبر مملكة ملكها نبي مُرسل، وكان كثيرا ما يسير في مملكته يتفقد أمر رعيته، وهذا من عدل نبوته، وأمنة حُكْمه، وفي جولة من جَوْلاته - عليه السلام - في مملكته، فلم يجد الهدهد، قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، أي: نظر سليمان إلى مكان وجود الهدهد عادة، فقال: ما لي لا أراه، ظن أن هناك ساترا يستره، ثم بدا له أنه غائب عن صفوف الجيش، ولمّا تيقن غيابه توعده بالعذاب أو الذبح، إلا أن يأتي بحجة مقنعة واضحة تبين سبب غيابه [2].

قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

يخبر المولى - عز وجل عن محاورة سليمان مع الهدهد، قال الله تعالى: (فمكث) يعني الهدهد (غير بعيد) أي: غاب زمانا يسيرا، ثم جاء فقال لسليمان: (أحطت بما لم تحط به) أي: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، والإحاطة: إدراك الأمر على حقيقته من جميع جهاته [4]، (وجئتك من سبإ بنبإ يقين) أي: لك عندي بعد سفر وجُهود، خبر عظيم ذو شجون، لا ريب فيه ولا ظنون، و(سبأ) يُقال إنها: اسم لرجل انتسب أولئك القوم له، أو اسم للمدينة التي يسكنونها، وتعرف اليوم بمدينة، (مأرب)، والنبأ العظيم الذي جاء به الهدهد، هو إيجاده قوما يسجدون لغير الله تعالى، فاستغرب واستعجب، فرجع إلى سليمان مهموما مغموما، ووقف أمام المَلك بقوة وثقة، وقال بكل شجاعة وجرأة (أحطت بما لم تحط به)، فلشرف العلم وشرف الدعوة استطاع هدهد صغير الكلام أمام مَلك عظيم [5].

وهذه المرأة : هي بلقيس بنت مَلِكِ اليمن، وبعد وفاة والدها استلمت الحكم، فملكت اليمن وأهلها، وكان عندها ما يريده الملوك وتحتاجه الممالك، ولها كرسي عظيم،

١- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٢٠- ٢١).
٢- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٤، ص ٥٥٠.
٣- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٢٢- ٢٦).
٤- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ٢٩٧.
٥- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٤، ص ١٦٢-١٦٣ . انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٨٧.
٦- انظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٩، ص ٤٥١.

مرصع بأنواع اللآلئ والجواهر الغالية والثمينة، تَجْلس عليه وتَحْكم منه، وكانت بلقيس وقومها اتخذوا الشمس آلهة من دون الله تعالى، (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)، والتزيين: تحسين الشيء وإظهاره في أجمل صورة [1]، فقد ظنت بلقيس وقومها أنهم يُحسِنون صنعا بعبادتهم الشمس، فأضلهم الشيطان عن سبيل الهداية، وكذلك كان هذا التزيين السبب في إخراج آدم - عليه السلام - من الجنة، قال الله تعالى مخبرا عن قول إبليس لآدم: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [2]، وقال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [3]، فطريق الغواية في الكفر والشرك والذنوب هي طريقة التزيين والتحسين [4].

ثم قال الهدهد مغضبا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [5].

أي: هَلَّا سَجَدوا لله تعالى الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض وتركوا سجودهم للشمس المفتقرة في جريانها إلى الله تعالى، والخَبء: كل مستور غائب عن النظر فهو خَبأ [6]، فالخبء الذي في السماء هو المطر، والخبء الذي هو في الأرض هو النبات، والله - تبارك وتعالى - يعلم ما يُخفون في صدورهم، ومن باب أولى ما يُعلنون، فالمتصف بصفات الكمال والجلال، المتنزه عن مشابهة الحوادث والأمثال، "قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، حي لا يموت، قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة" [7]، هذه الأوصاف لا تكون إلا لله، فهو الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم [8].

ثم بعد ذلك أرسل سليمان رسالة مع الهدهد يدعوهم فيها إلى الله تعالى والإيمان به، وكانت صاحبة عقل ونظر، فشاورت قومها وجعلوا الأمر إليها، ثم أرسلت إلى سليمان هدية؛ لتعرف معدنه، هل يريد المال والجاه أم يريد دلالتنا إلى طريق

١- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ٣، ص ٣٠.
٢- سورة طه، ج ١٦، الآيات (١٢٠ - ١٢١).
٣- سورة الحجر، ج ١٤، آية (٣٩).
٤- انظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ج ٦، ص ١٥٥- ١٥٦.
٥- سورة النمل، ج ١٩، آية (٢٥- ٢٦).
٦- انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١، ص ٦٢.
٧- الطحاوي، أبو جعفر، أحمد بن محمد، (ت ٣٢١ هـ)، **متن العقيدة الطحاوية**، دار ابن جزم - لبنان، ط ١- ٢٠٠٤م، ص ٩-١٠.
٨- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٢٥١.

الإسلام والرشاد؟، فلما جاء وفد بلقيس رفض سليمان الهدية وقال:﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۡۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُمۡ بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ ﴾[1]، ولمّا عرفت بلقيس صدق رسالته، وعدل حُكمه، أرادات أن تقابل سليمان بنفسها، فعَلِم سليمان بذلك، فأراد أن يُريَها عظيم مملكته، وقوة حُكمه، فقال لجنوده:﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ٤٠ ﴾[2]، والذي عنده علم من الكتاب: يُقال إنّه كان رجلا صديقا يَعْرِفُ اسم الله الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب، فسأل اللهَ، فإذا بالعرش ماثل بين يدي سليمان - عليه السلام -، وبعد ما رأت قوة سليمان وجيشه، وفن الصرح واتقان صَنْعته، خضعت لله وقدرته، وأسلمت مع سليمان، قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤ ﴾[3]، والصرح: قصر عظيم من قوارير، أي: من زجاج، وأُجْرِيَ تحته الماء، فالذي لا يعرف أمرَه يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبين الماء، وهكذا أسلمت بلقيس وقومها [4].

فهذه القصة المباركة تبين أن الله تعالى قدّسها وعظّمها؛ لِمَا حوته من خصال عظيمة في الدعوة إلى الله، وقد كان الهدهد رائد هذه الدعوة، وظهر حرصه في أنه لا يَرى شِركا أو منكرا، أو ما يغضب الله تعالى، و ينتهك حرماته، إلا غضب وتكلم، فاستحق بذلك أن يُذكر في القرآن؛ لأنه ذكَّرَ بالله، وعظَّم الله، فعظَّمه الله، فتعظيم الهدهد لا لذاته بل لعمله وصفاته، فكيف إذا حمل هذا الهمّ مَن كُرِمَ منذ خلقه؟.

١- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٣٦- ٣٧).
٢- سورة النمل، ج ١٩، الآيات (٣٨- ٤٠).
٣- سورة النمل، ج ١٩، آية (٤٤).
٤- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٣، ص ١٩١- ٢١٢. انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٦، ص ١٩٤.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- إنّ الرحلة التي قام بها الهدهد والمسافة التي قطعها، بيّنت أنّه صاحب همّ وسفير رسالة.

٢- إنّ الهدهد قدّم لسليمان تقريرا شاملا ومفصلا بزيارته الاستكشافية الدعوية، من بيان نظام الحكم، وبيان الحاكم، وبيان الديانة، وذلك التفصيل دليلُ حرصه على تقديم المعلومات الهامة والمعطيات اللازمة لسليمان-عليه السلام- فلم يبخل في ذلك من أجل نصرة الدين، وذلك نابع من همّه الدعوي.

٣- إنكار الهدهد على عبادة غير الله، وذلك لحُرقته على دين الله، وقول الهدهد بحرقة وشفقة وتعجب: (أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..)، تلك الكلمات خرجت من قلب ممتلئ بمحبة الله، وحرص على دعوة النّاس.

٤- ظهر أنّ الهدهد قد حَمَلَ رسالة الدعوة والتوحيد من سليمان إلى ملكة سبأ، وقام بما أَمَرَه به سليمان من إلقاء الرسالة دون شعور من القوم به، فقام بدوره على الوجه الأتم والأكمل، وكان هذا سببا في نجاة أمة من النار.

المطلب الثالث: الهمّ الدعوي عند الجنّ.

خلق الله تعالى الجنّ والإنس من مادتيَن مختلفتين، فخلق الجنّ من النار، وخلق الإنس من الطين، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ ﴾[1]، وكلّف الله تعالى كِلا النوعين بعبادته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾[2]، وبناء على عبادتهم أو اختيارهم الكفر، سيحاسبهم الله تعالى، وذلك لقوله: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ)[3]،أي: " سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كَلام العرب، يقال لأَتَفَرَّغَنَّ لك وما به شغل "[4]، ولهذا أعد الله تعالى لِمَن آمن منهم الجنة، ومَن كفر فمأواه إلى النار، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ ﴾[5]، وهذه الآية: عامة للجنّ والإنس وهي من أدل الدلائل على دخول الجنّ الجنة[6].

والجنّ لغة: التستر، وسُميت الجن بهذا الاسم؛ لأنها مستورة عن أعين الناس[7].

وعند العلماء فإنّ الجنّ: عالَمٌ من الموجودات الروحانية اللطيفة، مخلوقة من نار، لا تدركها أبصار البشر، ولا أسماعهم، وهي من سلالة إبليس، منهم المسلمون ومنهم الكفرة، ويطلق على الكفار منهم الشياطين والمردة[8].

ولقد أرسل الله تعالى محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسولا إلى الجنّ والإنس، مبشرا ونذيرا، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ﴾[9]، أي: إن الله تعالى في هذه الآية أقرَ الإنس والجنّ بإتيان الرسل إليهم، وبهذا الإقرار أقام الله الحجة على الثقلين، بإيصال الرسالة لهم، قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ ﴾[10]، وقوله تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)، يمكن حملها على إرادة أحد المخاطَبَين، وهم الإنس فحسب، ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ ﴾[11]، وإنما يخرجان من البحر المالح ، إذن: كانت الرسل

١- سورة الرحمن، ج ٢٧، الآيات (١٤-١٥).
٢- سورة الذاريات، ج ٢٦، آية (٥٦).
٣- البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب: سورة الرحمن، ج ٦، ص ١٨١.
٥- سورة الرحمن، ج ٢٧، آية (٣١).
٦- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ٥٠٢.
٧- انظر: ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج ١، ص ٣٧٧.
٨- انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٢٠٣.
٩- سورة الأنعام، ج ٨، آية (١٣٠).
١٠- سورة النساء، ج ٦، آية (١٦٥).
١١- سورة الرحمن، ج ٢٧، آية (٢٢).

منهم، أي من جنسهم؛ ليفهموا عليهم المراد المطلوب [1] ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - بُعِثَ للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾[2]، وبُعِثَ للجنّ عامة، ودليله قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ ﴾[3]، قال الطحاوي:" وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغَيٌّ وهوى، وهو المبعوث إلى عامة الجنّ وكافة الورى، بالحق والهدى، بالنور والضياء" [4].

وأخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بإيمان الجنّ، وأنهم ذهبوا بعد إيمانهم دعاة إلى قومهم، فأصبحوا بذلك نُوّابا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ الرسالة، فالنبي محمد - صلوات ربي عليه وسلامه - لم يصل إلى ملوك الروم والفُرس، بل لم يغادر حدود الجزيرة العربية، وهو المبعوث للناس كافة كما نصت الآيات على ذلك، فكيف يقوم الرسول الكريم بإتمام ما كُلِفَ به من تبليغ الرسالة للناس كافة إذا لم يصل إلى كل فرد منهم؟ والجواب: أن حَمْلَ لواء النيابة عنه - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ دعوته وإيصالها إلى العالمين أجمعين، هو إتمامٌ لرسالته التي كُلِّفَ بها، ولهذا السبب كَرَّمَ الله هذه الأمة، قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[5]، وهذا ما فعله الصحابة والتابعون، - رضوان الله عليهم أجمعين -، بأنهم أتمّوا ما بدأ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تبليغ رسالته، وإنّ تُبَاعُد قبورهم في شتى الأقطار والأمصار، دليل على ذلك.

إذن: فرسول رسول الله، يُمثل الرسول ذاته، ألم يجعل الله رسل عيسى - عليه السلام - كأنهم رسل من عنده - تبارك وتعالى -، قال تعالى: ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ ﴾[6]، والأمر نفسه في الجنّ، فمؤاخذة الجنّ بالعقاب كانت بوصول الرسالة إليهم من خلال أبناء جنسهم، فالله - سبحانه وتعالى - خلق في نفوس هؤلاء الجنّ إلهاما يستمعون القرآن، فلما سمعوه فهموه فآمنوا، ثم أنذروا قومهم [7]، قال الله تعالى على لسان الجنّ:

١- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٤٤٥- ٤٤٦.
٢- سورة سبأ، ج ٢٢، آية (٢٨).
٣- سورة الجنّ، ج ٢٩، الآيات (١- ٢).
٤- الطحاوي، **العقيدة الطحاوية**، ص ١٢- ١٣.
٥- سورة آل عمران، ج ٤، آية (١١٠).
٦- سورة يس، ج ٢٢، آية (١٤).
٧- انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٢٨، ص ٢٨.

﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢ ﴾[1].

وعلى هذا التأصيل فالجنّ من أصحاب الطراز العالي في الهمّ الدعوي، وقد بيَّنَ القرآن العظيم همّ الجنّ في الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢ ﴾[2].

وجَّهَ الله الرحيم، الجنّ إلى سيد المرسلين؛ ليسمعوا كلام رب العالمين، فتُخبت قلوبهم، ويكونوا من الصالحين، وهذا التوجيه من الله تعالى جاء بعد صرفهم ومنعهم من استراق السمع في السماء، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال :" انْطَلَقَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - في طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شَيْءٌ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا يَا قَوْمَنَا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ - صلى الله عليه وسلم - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ) قَوْلُ الْجِنِّ)" [3].

وبعد إيمانهم جاؤوا قومهم منذرين، قالوا: (يا قومنا)، وهذا الكلام كان حكاية بالمعنى، وهؤلاء الجنّ كانوا حُكَماء في دعوتهم، فاستخدموا النداء، ومن ثم نسبوهم لأنفسهم، لاستجلاب قلوبهم وأسماعهم في سماع الموعظة، وقبل وعظهم بما سمعوا، مهدّوا لهم الدعوة

١- سورة الأحقاف، ج ٢٦، الآيات (٣١- ٣٢).
٢- سورة الأحقاف، ج ٢٦، الآيات (٢٩- ٣٢).
٣- أخرجه البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب: الآذان، باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر، حديث (٧٧٣)، ج ١، ص ١٩٥.

بقولهم: (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)، وذكروا موسى - عليه السلام - ولم يذكروا عيسى - عليه السلام - ؛ لأن الإنجيل كان مُتمِما للتوراة، التي هي الأصل في التشريع والأحكام، فذكروا لهم أصل التشريع، ثم وصفوا القرآن بأنه مصدق لِمَا سبقه من كتب الأنبياء السابقين - عليهم السلام - ، وأنه يهدي إلى الحق في الاعتقاد، وإلى الطريق المستقيم في الأعمال والمعاملات [1].

ثم أعادوا النداء مرة أخرى (يا قومنا)، وفيه دليل على أهمية الكلام الذي سَيُقال، أي: قولهم: (أجيبوا داعي الله وآمنوا به)، أي: الداعي هو الرسول - صلى الله عليه وسلم-، أو القرآن، وسمّوه داعيا بدليل حديث جابر - رضي الله عنه - قال : "خرج رسول الله - صلى الله عليه و سلم - على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن - ليلة الجن - فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد" [2]، وأخبروهم عن ثمرة هذه الاستجابة بأنه سيكون لهم مغفرة الذنوب، والنجاة من عذاب النار، ثم حذروهم من عدم الاستجابة، فقالوا: (وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)،أي: الذي لا يؤمن بالله تعالى، ولا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولا بالقرآن، فلن يَعْجَزَ الله عن الإتيان به ثم محاسبته وعقابه، ولن يجد له مَن يَنصُره ويحميه[3].

١- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ٣٠٢. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٥٠.

٢- الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرحمن، حديث (٣٢٩١)، ج ٥، ص ٣٩٩، قال الترمذي: حديث غريب. تعليق الألباني: حسن، **مشكاة المصابيح**، حديث (٨٦١)، ج ١، ص ١٨٧.

٣- انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٧، ص ٣٠٣. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٥١.

استنباط الهمّ الدعوي:

١- التبليغ الفوري يحمل في طياته الهمّ الدعويّ والحرص على الآخرين، فبعد أن استمع نفر من الجنّ القرآن، وانتهوا من سماعه، قاموا على الفور بتبليغه والدعوة إلى الإسلام دون تراخٍ، وهذا الأمر لا يتأتى إلا من صاحب همّ دعوي صادق.

٢- توظيف أسلوب النداء، ونسبة القوم لهم، وذلك بغرض استمالة القلوب واستعطافهم في سبيل دعوتهم.

٣- حثهم على اتباع النبي - صلّى الله عليه وسلم- وترغيبهم في ذلك، وبيان أنّه طريق النجاة وسبب مغفرة الذنوب، وتحذيرهم بقولهم: (وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ..)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبكرمه يعفو عن السيئات والزلات، وأصلي وأسلم على رسول الله بديع الزمان، وبدر الظلام، وسيد الأنام، وحبيب الرحمن، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحابته الغُر الميامين،

وبعد:

الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذه الدراسة بكرمه وفضله، وتتضمن هذه الخاتمة أهم النتائج والتوصيات:

١- الهمّ الدعوي: توجه القلب المنعقد على الخير، إلى الاهتمام بإمالة قلوب العباد إلى توحيد الله وطاعته، والبعد عن معصيته، والانقياد لما يترتب على هذا الإيمان من آثار ومآلات.

٢- وردت ألفاظ وعبارات تدل على الهمّ الدعوي في القرآن الكريم مثل: باخع نفسك، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التبليغ، التذكير، النصح، الإرشاد، الوعظ، الإصلاح، الدلالة، البيان.

٣- الهمّ الدعوي هو امتدادٌ لأنفاس الأنبياء - عليهم السلام - عامة، ونَفَس محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة، واستمداده من القرآن والسنة والسيرة.

٤- الهمّ الدعوي أساس إحياء الدين والطاعات، ومن دونه يَضعف نور الدين وتأتي المنكرات.

٥- اتفق العلماء على فرضية الدعوة إلى الله، واختلفوا في نوع الفرضية بين قائل بالفرض العيني وقائل بالفرض الكفائي.

٦- للدعوة فضائل كثيرة: فهي مهمة الأنبياء والمرسلين، وسبب لنيل رحمة الله والفوز بخيرية الأمة والفلاح في الدارين، والثبات على الدين وطريق للتزكية.

٧- الدعوة إلى الله مقصد عظيم تتعدد وسائله وتتنوّع أساليبه باختلاف الزمان والمكان والأشخاص.

٨- للدعوة آثار في الدنيا والآخرة على الداعي والمدعو والأمة.

٩- ما من نبي ولا رسول إلا واكتمل عنده الهمّ الدعوي، فهم الأكمل والأتمّ مع أقوامهم وأسرهم وأصحابهم.

١٠- الهمّ الدعوي يشمل جميع طبقات المجتمع، من الأب والابن، إلى المَلِك وصغير السِنّ.

١١- الهمّ الدعوي يعتمد على ركني: الحركة والقول، مع المشاعر الجياشة في هذين الرُكنَيْن.

١٢- لا تُفهم حقيقة الهمّ الدعوي بالكتابة والقلم، بل بإحراق القلب هما على هدايتهم، واتعاب القدم في ايصال الهداية لهم.

١٣- الهمّ الدعوي يشترك فيه الأنبياء - عليهم السلام - وغيرهم من البشر وغير البشر، وتكون الرفعة فيه، على حسب مقدار الهمّ واتساعه.

١٤- من علامات حب الله للعبد، همّه على نشر دينه، فالعبد إذا أراد أن يعرف مقامه عند الله، فلينظر فيما أقامه.

١٥- تَغير حال هذه الأمة مقرون بمجتمعات تحمل هذا الهمّ الدعوي حقيقة.

١٦- تبرز مظاهر الهمّ الدعوي من خلال توظيف الأساليب المختلفة: كالنداء أو التكرار أو التحذير أو الترغيب أو الترهيب أو الإضافة، وكذلك قرائن الحال.

وأهم التوصيات التي يُوصي بها الباحث:

أولا: ضرورة التفريق بين مفهوم الدعوة والعلم، و مفهوم الدعوة والقتال، ومفهوم الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين مفهوم الدعوة والسياسة، وذلك من خلال إفراد هذه المفاهيم ببحث خاص يُوضِح كل مفهوم على حدة.

٢- أهمية بيان مقدار خسارة الأمة وخسارة العالَم، بسبب ترك الدعوة، وبيان عواقب هذا الترك.

٣- العمل على بحث تُجمع فيه الأفعال الحركية الدعوية، ولطائف الأقوال الدعوية.

٤- القيام بدراسة شاملة كاملة يتبين فيها عصمة الأنبياء عن الخطأ أثناء عملهم الدعوي، وواجب الأدب معهم - عليهم السلام -.

٥- ضرورة الانغماس بالهمّ الدعوي عمليا، بالذهاب إلى الناس وطرق أبواب بيوتهم ونواديهم، لترسيخ مفهوم الهمّ الدعوي، وبخاصة طلاب العلم الشرعي.

٦- قيام الجامعات بمنهجية تعين الطلاب على تطبيق الهمّ الدعوي، ضمن برامج خاضعة لإدارة الجامعات.

٧- العمل على تفعيل دور المسجد من أئمة وخطباء في إنشاء جيل يحمل مسؤولية الدين ونشره.

٨- العمل على سلسلة في تفسير قصص القرآن، يتم من خلال هذا الطرح بيان كل التفصيلات والإشارات الدعوية من هذه القصص.

قائمة المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (ت ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد**، المحقق: السيد أبو المعاطي النوري، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م.

٣- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم ، (ت ٨٩٧هـ) ، **الأغاني** ، تحقيق : سمير جابر ، دار الفكر – بيروت ، ط ٢.

٤- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد ، (ت٥٠٢هـ) ، **مفردات ألفاظ القران** ، تحقيق الداوودي ، دار القلم – دمشق ، ط ١ – ١٤١٢ هـ .

٥- الألباني، محمد ناصر الدين (ت: ١٤٢٠هـ) ،**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، دار المعارف - الرياض ،ط ١- ١٤١٢ هـ.

٦- الألوسي، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، (ت ١٢٧٠ هـ)، **روح المعاني**، تحقيق : على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١٤١٥ هـ .

٧- البخاري، محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦ هـ) ، **صحيح البخاري**، دار الشعب، - القاهرة، ط ١- ١٤٠٧ هـ.

٨- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو، (ت ٢٩٢هـ) ، **البحر الزخار**، تحقيق محفوظ زين الله، مكتبة العلوم والحكم، ط(١)، ٢٠٠٩م.

٩- البغوي، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت ٥١٦ هـ)، **معالم التنزيل**، تحقيق : محمد عبد الله النمر، دار طيبة ط ٤ - ١٤١٧ هـ.

١٠- البغوي، الحسين بن مسعود البغوي ، ت (٥١٦ هـ)، **شرح السنة** ، تحقيق شعيب الارناؤوط ، المكتب الإسلامي – دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ.

١١- البوطي، محمد رمضان سعيد، (ت ٢٠١٣م)، **فقه السيرة النبوية**، دار السلام - القاهرة، ط ٢٣- ١٤٣٣ هـ .

١٢- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، (ت ٤٥٨ هـ) ، **دلائل النبوة** ، تحقيق د . عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، ط ١ - ١٤٠٨ هـ .

١٣- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر ، (ت ٤٥٨هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد - الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية - ببومباي بالهند، ط ١ - ١٤٢٣هـ.

١٤- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، (ت ٧٤١ هـ)، **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي -بيروت ط ٣- ١٤٠٥هـ .

١٥- الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ، (ت٢٧٩هـ) ، **الجامع الصحيح سنن الترمذي** ،تحقيق احمد شاكر ، دار احياء التراث العربي – بيروت.

١٦- التهانوي ، محمد علي ، (ت ١١٥٨ هـ)، **كشاف اصلاحات الفنون والعلوم** ، مكتبة لبنان ناشرون ، ١٩٩٦ م .

١٧- ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، (ت ٧٢٨هـ)، **مجموع الفتاوى** ، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء ، ط ٣ ،١٤٢٦هـ.
١٨- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت ٧٢٨هـ)، **الفتاوى الكبرى**، المحقق : محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية، ط ١ - ١٤٠٨هـ .
١٩- الجرجاني ، علي بن محمد، (ت٨١٧هـ) ،**التعريفات** ، تحقيق إبراهيم الأيباري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط ١- ١٤٠٥هـ.
٢٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، (ت ٥٩٧ هـ)، غريب الحديث، تحقيق: د . عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط : ١٩٨٥م.
٢١- الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري، (ت ٤٠٥ هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ - ١٤١١ هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .
٢٢- ابن حبان ، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، (ت٣٥٤هـ) ، **صحيح ابن حبان** ، مؤسسة الرسالة- بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ .
٢٣- الحصكفي، محمد علاء الدين بن علي، (ت ١٠٨٨هـ) ، **الدر المختار شرح تنوير الأبصار** ، دار الفكر – بيروت ، ١٣٨٦هـ .
٢٤- الحلبي، علي بن برهان الدين الحلبي ، (ت١٠٤٤ هـ)، **السيرة الحلبية**، دار المعرفة - بيروت، ط ١٤٠٠هـ .
٢٥- أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني،(ت ٢٧٥هـ) ، **سنن أبي داود**، تحقيق : مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف - الرياض ، ط ٢- ١٤٢٧هـ .
٢٦- ابن أبي الدنيا، عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس (٢٨١ هـ) ، **قرى الضيف** ، تحقيق : عبدالله بن حمد المنصور ، دار أضواء السلف - الرياض ، ط ١ - ١٩٩٧ م .
٢٧- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر ، (ت ٦٠١هـ)، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي، - بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ، ج ٢٨، ص ١٩.
٢٨- الزبيدي، محمد بن محمد ابو الفيض (ت١٢٠٥هـ) ، **تاج العروس**، دار الهداية.
٢٩- الزحيلي، وهبة بن مصطفى،(ت ١٤٣٦هـ)، **التفسير المنير** ، دار الفكر – دمشق ، ط ٢ – ١٤١٨ هـ .
٣٠- الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر، (ت ٥٣٨هـ) ، **الكشاف عن غوامض التنزيل** ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١٤٠٧هـ .
٣١- الزنداني، عبد المجيد بن عزيز، **بينات الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته**، مركز البحوث بجامعة الإيمان، ط ٣ - ١٤٢٥هـ .
٣٢- زيدان، عبد الكريم، (ت ١٤٣٥ هـ)، **أصول الدعوة إلى الله**، مؤسسة الرسالة، ط ١- ٢٠٠٨م.

٣٣- زيدان، عبد الكريم ، (ت ١٤٣٥ هـ)، **قصص القرآن للدعوة والدعاة**، مؤسسة الرسالة - لبنان، ط ١ - ١٤٣٤هـ .
٣٤- زيدان، عبد الكريم، (ت ١٤٣٥ هـ)، **الوجيز في أصول الفقه**، مؤسسة الرسالة، ط ١ - ١٤٣١ هـ .
٣٥- السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي، (ت٧٧١ هـ) ، **طبقات الشافعية**، تحقيق د. محمود الطناجي، دار هجر.

٣٦- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله،(ت١٣٧٦هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر : مؤسسة الرسالة، ط١- ١٤٢٠هـ .

٣٧- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، (ت ٩٨٢ هـ) ، **إرشاد العقل السليم** ، تحقيق : محمد الحلاق دار الفكر - بيروت ، ط ١ - ١٤٢١هـ .

٣٨- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل ، (ت ٤٥٨ هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط - ٢٠٠٠م.
٣٩- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ)، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤٠٣ هـ.
٤٠- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت٩١١ هـ) ، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، المحقق : مركز هجر للبحوث ، الناشر : دار هجر - مصر ط - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
٤١- الصابوني، محمد علي الصابوني، (ت ١٤٣٦هـ)، صفوة التفاسير، دار الصابوني - القاهرة، ط ٩ .
٤٢- الشافعي، محمد بن ادريس،(ت٢٠٤هـ)، **الرسالة**، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية - لبنان.
٤٣- الشافعي، محمد بن إدريس،(ت٢٠٤هـ)، **ديوان الشافعي**، تحقيق: د. محمد خفاجي، مكتبة الإرشاد- اليمن، ط ٢٠٠٩م.
٤٤- الشربيني، الشيخ محمد محمود ، **مرشد الخلان على مذهب أبي حنيفة النعمان**، دار النور - الأردن، ط ١ - ٢٠١٦م.
٤٥- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت ١٢٥٠هـ)، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق : الشيخ أحمد عزو عناية ، دار الكتاب العربي، ط ١- ١٤١٩هـ .
٤٦- ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوي أبو عمرو، (ت ٦٤٣هـ)، **أدب المفتي والمستفتي**، تحقيق : د. موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤٠٧هـ .
٤٧- الطحاوي، أبو جعفر، أحمد بن محمد، (ت ٣٢١ هـ)، **متن العقيدة الطحاوية**، دار ابن جزم - لبنان، ط ١- ٢٠٠٤م.

٤٨- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد، (ت٣٢١هـ)، **مشكل الآثار**، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط ١ - ١٤١٥ هـ .
٤٩- الطبري، محمد بن جرير، ت (٣١٠هـ) ، **جامع البيان في تأويل آي القران** ، تحقيق أحمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ – ١٤٢٠ هـ .
٥٠- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، (ت ١٣٩٣ هـ) ، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي - لبنان .
٥١- عباس، فضل حسن، (ت ١٤٣٢هـ)، **الإعجاز البياني في القرآن الكريم**، دار النفائس - الأردن، ط ١ - ١٤٣٧هـ.
٥٢- العبَّاسي، عبد الرحيم بن أحمد، (ت ٩٦٣هـ)، **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م .
٥٣- ابن عجيبة، الإمام أحمد بن محمد المهدي ، (ت ١٢٢٤ هـ) ، **البحر المديد في تفسير القران المجيد**، تحقيق عمر الراوي، دار الكتب العلمية - لبنان، ط ٣ - ٢٠١٠م.
٥٤- العراقي، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم، (ت ٨٠٦ هـ)، **ألفية السيرة النبوية نظم الدرر السنية**، دار المنهاج- بيروت، ط ١ - ١٤٢٤هـ.
٥٥- ابن العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي ، (ت ٨٥٢هـ). **فتح الباري**، دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩هـ .
٥٦- أبو عمرو، جاسر بركات أبو عمرو، **فقه الأسرة المسلمة**، مكتبة الصفا - القاهرة، ط ١ - ٢٠١١م .
٥٧- ابن فارس ، أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ) ، **مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون ، دار اتحاد العرب، ط ٢٠٠١ .
٥٨- الفرّاء، أبا زكريا يحيى بن زياد، (ت ٢٠٧ هـ)، **معاني القرآن**، تحقيق: عماد الدين آل الدرويش، دار عالم الكتب - بيروت، ط ١ - ١٤٢٣ هـ .
٥٩- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (ت١٧٠هـ)، **العين**، د. مهدي المخرومي، دار الهلال.
٦٠- الشيباني، صالح أحمد بن حنبل أبو الفضل،(ت ٢٦٥هـ) ، **سيرة الإمام ابن حنبل** ، تحقيق : الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد دار الدعوة - الاسكندرية ، ط - ١٤٠٤هـ .
٦١- القرافي ،شهاب الدين أحمد بن إدريس، (ت ٦٨٤ هـ) ، **الذخيرة**، تحقيق محمد حجي ، دار الغرب – بيروت ، ط ١٩٩٤م .
٦٢- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، ت(٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ط ٢- ١٣٨٤هـ .
٦٣- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت٧٥١ هـ) ، **مدارج السالكين**، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .

٦٤- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، (ت٧٥١ هـ)، **جلاء الافهام في فضل الصلاة على محمد خير الانام** ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، دار العروبة – الكويت ، ١٤٠٧هـ .
٦٥- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، (ت ١٠٩٤هـ) ، **الكليات (معجم الاصطلاحات والفروق اللغوية)**، تحقيق عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، ط ١٤١٩هـ .
٦٦- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي، (ت ٧٧٤ هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢- ١٤٢٠ هـ .
٦٧- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت٧٧٤هـ)، **قصص الأنبياء**، تحقيق: عصام الدين الصبا بطي، دار الفجر - القاهرة، ط ٢ - ١٤٣٤هـ.
٦٨- أبو الليل، الشيخ نعمان أبو الليل، **الأنوار النعمانية في الدعوة الربانية** ، اعداد: محمد علي إمام.
٦٩- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٣هـ)، **سنن ابن ماجة** ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
٧٠- الماوردي، العلامة أبو الحسن بن إبراهيم بن محرومة، (ت ٤٥٠ هـ) ، **الحاوي الكبير**، دار الفكر – بيروت.
٧١- المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم أبو العلا، (ت١٣٥٢ هـ)، **تحفة الاحوزي**، دار مصطفى الباز، ط١، (٢٠٠٤)م.
٧٢- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي، **ديوان أبي الطيب المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣.
٧٣- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ،(ت ٢٦١هـ)، **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**، دار الجيل - بيروت.
٧٤- مصطفى الخن و مصطفى البغا، **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي** ، الدار الشامية.
٧٥- المظهري، محمد ثناء الله العثماني، (ت ١٢١٦هـ)، **التفسير المظهري**، تحقيق غلام تونسي، دار التراث العربي – بيروت ، ط ٢٠٠٤ م .
٧٦- المناوي، محمد عبد الرؤوف، (ت١٠٣١هـ) ، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: د. محمد الداية، دار الفكر - بيروت.
٧٧- المناوي، زين الدين عبد الرؤوف، (ت١٠٣١ هـ)، **التيسير شرح الجامع الصغير**، دار الامام الشافعي - الرياض، ط ٢ – ١٤٠٨ هـ .
٧٨- ابن منظور، محمد مكرم الأفريقي، (ت ٧١١هـ)،**لسان العرب**، دار صادر – بيروت ط ١.
٧٩- الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي، (ت ٦٨٣هـ)، **الاختيار لتعليل المختار**، تحقيق: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣ - ١٤٢٦ هـ .

٨٠- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، (ت ١٤٢٥هـ)، **فقه الدعوة إلى الله**، دار القلم- دمشق، ط٢- ١٤٣١هـ.
٧٩- انطونيوس، د. انطونيوس بطرس، **المعجم المفصل في الأضداد**، دار الكتب العلمية - لبنان، ط ٢ - ١٤٣٤هـ.
٨١- النووي، يحيى بن شرف ابو زكريا، (ت٦٧٦هـ) ، **المنهاج في شرح، صحيح مسلم بن الحجاج**، دار التراث العربي، لبنان، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٨٢- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري أبو محمد، (ت٢١٣ هـ)، **السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق طه سعد، دار الجيل – بيروت ، ط ١ – ١٤١١هـ.
٨٣- أبو يعلى، القاضي محمد بن الحسين (ابن الفداء)، (ت ٤٥٨هـ)، **العدة في أصول الفقه**، تحقيق د. أحمد المباركي، ط٢، ١٤١٠هـ.

٨٣- موقع على الشبكة العنكبوتية، قناة (معرفة الله) ، / https://knowingallah.com/ar/articles